جان جاك روسو

اميل

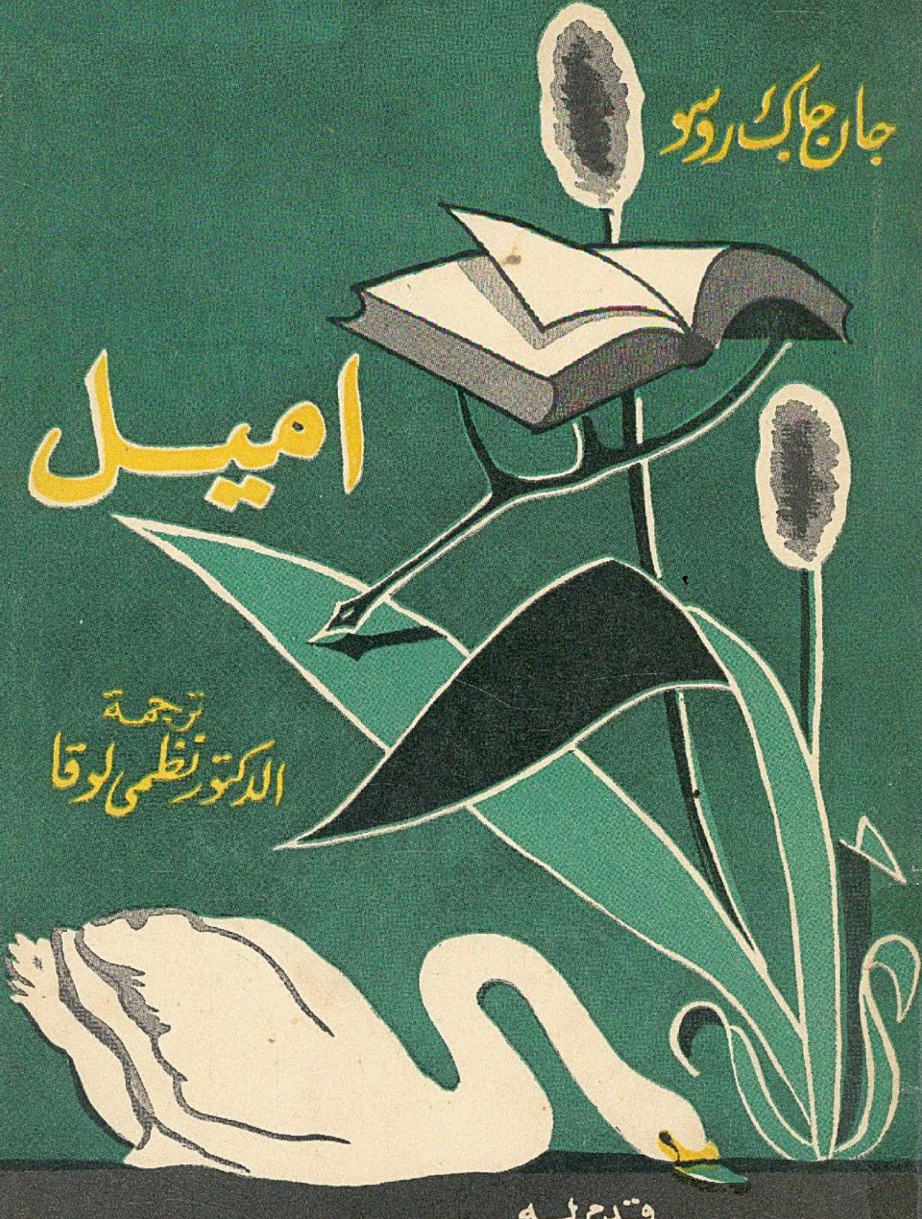

ترجمة
الدكتور نظمي لوقا

قدم له
الأستاذ أحمد زكي محمد وكيل وزارة التربية والتعليم المساعد

الأستاذ ع
مع محبة الى
٩/١٢

إميل

أو

تربية الطفل من المهد إلى الرشد

جان جاك روسو

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعـــة الأولى - أغسطس ١٩٥٨

إميل

أو

تربية الطفل من المهد إلى الرشد

تأليف

جان جاك روسو

نقله إلى العربية

الدكتور نظمي لوقا

تقديم

الأستاذ أحمد زكي محمد

وكيل وزارة التربية والتعليم السابق

الناشر: الشركة العربية للطباعة والنشر

تقديم
للأستاذ أحمد زكى محمد
وكيل وزارة التربية والتعليم المساعد

كان من السهل الى وقت قريب أن نرى أناسا يعيشون كما كان يعيش أجدادهم من قبل — أناسا يتعلمون الحياة من الحياة نفسها فنرى أطفالهم يشتغلون مع آبائهم ويتعلمون منهم حرفهم وأعمالهم بالمحاكاة والتجربة .

ولكن الحياة عندما تتغير وتتغير القيم وتتغير الاساليب والاتجاهات يتغير معها كل شيء ، فقديما لم يشعر الناس بالحاجة الى التربية ولا بالحاجة الى المدارس والتعليم المباشر ، ليس هذا فقط ، بل ان هذه المدارس وهذا التعليم عندما وجد وانتشر كان من الضرورى أن يتغير ويتشكل حسب حاجات المجتمع وظروفه ومطالبه .

ففي القرنين السادس والسابع عشر مثلا نجد أن العالم فى اوروبا قد تغير تغيرا كبيرا فقد غيرت العلوم الحديثة وغير اختراع البارود من وجهة نظر الناس ومن طبيعة الحروب وأساليبها كما غيرت الطباعة كثيرا وساعدت على نشر الكتب وذيوعها بين أكبر عدد من الناس ، كما أن ازدياد نفوذ الملوك وقوتهم قضى على النزاع الذى كان سائدا بين أمراء الاقطاع وساعد على تأسيس ممالك واسعة يحكمها ملك واحد قوى يستطيع أن يؤمن الناس على حياتهم . كل هذا وغيره جعل الناس يفكرون فى التربية وفى اللغات القديمة وفى الخطابة والفلسفة والمنطق ومدى صلاحيتها لاعداد

الافراد لمثل هذه الحياة الجديدة . نستطيع أن نتلمس كل هذا فى العصر الذى سبق العصر الذى عاش فيه جان جاك روسو حين اهتم الناس بالعلوم الطبيعية وعنوا باللغات جميعا ولكن اهتمامهم بها لم يكن لأهميتها فى ذاتها وانما كان لما اعتقدوه فى تعليمها من فائدة ومنفعة وقيمة تهذيبية فاهتموا بتعلم اللغات لأنها تقوى الذاكرة عند المتعلمين واهتموا بالعلوم الرياضية لأنها تقوى العقل وتشحذه . وقد أثر هذا التفكير فى التعليم وتأثرت به المدارس والمناهج وتأثرت به العملية التعليمية كلها سنين طويلة وزاد اهتمام الناس فى انجلترا فى هذا العصر بكل مايتصل بالعقل والتفكير بفضل كتابات جون لوك كما قامت حركة مشابهة فى فرنسا تزعمها الفيلسوف فولتير قائد الحركة العقلية الكبرى . ومن الغريب أن الناس فى كل من فرنسا وانجلترا تأثروا تأثيرا كبيرا بهذا الاتجاه فظهر التكلف فى سلوكهم وبعدت تصرفاتهم عن الطبيعة وتحكم العقل فى تصرفاتهم فبعدوا عن العاطفة اعتقادا منهم أن العواطف تسبب الخطأ والالتواء ، كل هذا كان نتيجة لما ذاع وانتشر من الآراء التى كتبها المفكرون وبثوها فى قلوب الناس فتأثروا بها ايما تأثر فى العصر الذى سبق العصر الذى عاش فيه روسو وكان لابد من ثورة جامحة ، وكان لابد من ردفعل سريع لهذا التزمت وهذا الجمود وكان لابدمن الخروج على الحالة القائمة التى تبعد ما بين الناس وبين الطبيعة السمحة المرحة ، وكان لابد من نبذ كل نظام يقوم على الرياء والتكلف ، فجاءت الثورة الطبيعية التى تزعمها جان جاك روسو فقاد ثورة العاطفة وتمرد على العقل والتكلف واكتشف فى السياسة ما اكتشفه مارتن لوثر فى الدين .

كتب روسو كتبا أوضح فيها آراءه عن المجتمع والتربية والطبيعة كما فصل فيها تاريخ حياته ، ولا أريد أن أفصل تاريخ حياته ونشأته ولكنى

أريد أن أؤكد أن كتابات روسو كانت صورا شتى من حياته الشخصية فكانت تنعكس فيها تربيته المضطربة — الخالية من كل نظام أو توجيه وكانت تصور لنا خبراته فى الحياة سواء أكانت خبرات سامية أو غير سامية . وفى كتاباته جميعا نرى مزاجه المعكوس ووجدانه المتسلط على عقله ، وروسو خير من يعبر عن الآمال والأمانى الجائشة فى عصره وقد اختارته الظروف والاقدار ليكون خير داع وخير معبر عن المجتمع الذى عاش فيه وعن مرضه ونواحى الضعف فيه ، فكتابات روسو قطعة من نفسه ، ولست أبالغ اذا قررت أن روسو الكبير كان يكتب عن روسو الصغير فهو فى النصف الاخير من حياته كان يكتب عن روسو فى النصف الاول منها . والكتاب الذى اريد أن اقدمه الى القراء هو كتاب (اميل) الذى يعتبر فاصلا بين عصرين فى التربية : التربية القديمة والتربية الحديثة .

وهذا الكتاب قسمه روسو الى خمسة كتب ، كل منها يتحدث عن مرحلة من المراحل ،وقد بدأ روسو كتابته فى هذا القسم بالمطالبة بجعل وظيفة التربية من البداية مقصورة على ازالة الصعوبات وكل ما يعوق الطبيعة البشرية الخيرة عن النمو الطبيعى وهذا مايطلق عليه روسو بالتربية السلبية وهو يتحدث عن عوامل التربية ويقول انها ثلاثة : طبيعة الطفل ، ثم المعلم ثم الحياة نفسها ، فطبيعةالطفلهىالتى تساعدعلى نموه الجسمى وعلى نمو حواسه وقواه العقلية ، أما المعلم فهو الذى يرشد ويوجه الطفلالى ماينبغى أن يستخدم فيهذلكالنمو الطبيعى ، وأماالحياة فهى التى تربينا بما فيها من التجارب والخبرات .

وفى الكتاب الأول من (اميل) يتحدث الينا روسو عن تربية الطفل حتى سن الخامسة ويحدثنا عن أهمية العناية بالجسم وضرورة اهتمام الأم

بنفسها وأهمية منح الطفل الحرية منذ ولادته ، فهو لايريد اللفائف ولا الاربطة التى تقيد الطفل وتشل حركاته وانما هو يريد أن يترك الطفل حرا حتى يحبو وأن يترك يحبو كيف يشاء . وروسو يذكرنا هنا بأن اميل يتيم بلا أب وبلا ام . وهو يربى على يد مرب يربيه بعيدا عن المدن وصخبها وضوضائها وعبث اهلها ، يريد أن يربيه بين الفلاحين حيث الطبيعة وفى القرى الهادئة حيث لايهتدى بالانوار الصناعية التى تزعج الانسان فى المدن وانما يهتدى بالانوار الطبيعية : بالقمر والنجوم .

ويحدثنا روسو عن ضرورة عدم التعجل فى تعلم الطفل النطق والمشى وينتهى هذا الطور من أطوار حياة اميل متى عرف كيف يأكل ومتى تعلم النطق والكلام وأتقن المشى بمفرده وبلا مساعدة أحد .

أما الكتاب الثانى من اميل فهو الذى يشرح لنا فيه روسو حياة اميل من الخامسة الى الثانية عشرة وهذا يعرف الطفل آلام الحياة ولذا يجب أن يترك مستقلا . وعليه أن يتعلم الطاعة على انها واجب طبيعى وروسو لا يريد أن يناقش الطفل فى الاخلاق وانما يرى علينا أن نبعده عن الشر ونرشده الى العمل الصحيح والتصرف السليم والنزاهة فى العمل . وروسو يريد ألا يتعلم الطفل أى لغة حتى سن الخامسة عشرة الا لغة واحدة والا يدرس الجغرافية وهو عدو « لدود » للمصورات الجغرافية والكرة الارضية ولا يريد اميل أن يتعلم التاريخ ولا الادب أو أن يطالع الكتب . ويقول دع اميل يوازن بين الاشياء ويقسمها ويعدها ولا يطالع الا كتابا واحدا هو كتاب الطبيعة . لأن الكتب كما يقول روسو عذاب للطفولة وألم لها .

أما الكتاب الثالث فيتحدث فيه روسو عن تربية الطفل فى دور المراهقة من سن الثانية عشرة الى الخامسة عشرة . فهو يريد أن يشغل اميل بالدرس

والتحصيل ، يريد منه أن يدرس الطبيعه وان نعتمد على رغبته وحاجته الملحة الى المعرفةوالاستزادة منالعلم ، يريد روسو أن نوجه نظراميلالى الطبيعة وأن نشجعه على البحث والاعتماد علىالنفس فى التعليم ، يريد أن يسأل اميل عما يريد وان يتعلم الفلك والهندسة والجغرافية ولكنه يريد أن يعتمد اميل فى هذه الدراسة على ملاحظة النجوم والكواكب وأن يدرس الجغرافية عن طريق البيئة المحلية .

ويلح روسو فى أن يقرأ اميل كتابا فى هذه المرحلة ولكنه لا يريده أن يقرأ غير هذا الكتاب وهو قصة روبنسون كروسو الذى حى حياة طبيعية واعتمد على نفسه وتعلم الحياة بالحياة فاشتغل وعمل وهو أى روسو يريد أن يتعلم اميل الحرف والصناعات ولكنه يريد منه أن يتقن حرفة النجارة بنوع خاص .

الى هنا لم يتعلم اميل كثيرا وهو لا يعرف الصلات الخلقية التى تربط الناس بعضهم ببعض ولكنه ميال الى العملمعتدل فى مزاجه ، صبور ثابت العزيمة كله شجاعة وكله اقدام .

وفى الكتاب الرابع يصف روسو تربية الطفل ما بين الخامسة عشرة والعشرين . وفى هذه الفترة يريد روسو أن يحب اميل وأن يكون حبه شاملا جميع الناس حتى أعداء الانسانية ولا ينتمى الى طائفة دون أخرى . وفى هذه المرحلة يريد روسو أن يفحص اميل آراء الناس وأفكارهم وأن يحترم الناس جميعا وأن يتعرف عليهم من دراسة التاريخ وهو يريد أن يتعلم اميل الدين وأن يختار لنفسه دينا معينا لا يفرض عليه . وفى هذه المرحلة يريد اميل أن يكثر من المطالعة وقراءة كتب التاريخ والأدب وأن يذهب الى مشاهدة الروايات التمثيلية .

وفى الكتاب الاخير يحدثنا روسو عن تربية البنت (صوفى) وهو يريد أن تكون امرأة صالحة لخدمة الرجل وارضائه وكسب محبته وتربية الأطفال وأن تكون زوجة تهتم بالأمور المنزلية وأن تكون حسنة الهندام جميلة المنظر .

هذا هو ملخص كتاب اميل أعرضه على القراء ، وأرجو ألا أكون قد مسخته أو أقللت من قيمه . فالكتاب كما يراه الكثيرون قصة شائقة لاتخلو من دروس ، فهى كما قدمت لك تعرض علينا فى تفصيل غير ممل نظرية روسو فى التربية . وهى تعرض علينا صورة طفل سليم متوسط الذكاء ربى فى الريف وحيدا وليس فى صحبته سوى مدرسه الخاص ، وفى هذا الوسط الذى يربى فيه الطفل لن تفسد طباعه الطبيعية وانما تنمو وتتقدم .

وقد ذاع صيت اميل وأقبل الناس على قراءته لأن روسو نادى فيه بالمساواة بين الأفراد وامتدح الرجل العادى ورفع من شأنه واعتمد على اثارة خيال الناس وعواطفهم التى كان لا يعبأ بها الكتاب من قبل .

وأهم أثر لقصة اميل انها نبهت الاذهان الى التربية وجعلت الكثيرين يهتمون بها ويقبلون على آراء روسو مع ما فيها من غلو وتناقض .

وفى اميل يتحدث روسو عن أهمية تدريب الحواس ، فعن طريق الحواس نحصل على معلوماتنا عن العالم ولذلك يجب أن تقوم الحواس بعملها على أحسن وجه .

وفى الحق أن كتاب اميل يعتبر فتحا جديدا فى التربية فكان له أثر كبير فى توجيه نظرياتها واساليبها واستحق أن يطلق على العصر الذى ظهر فيه

« عصر الطفل » للاهتمام البالغ بالطفولة ، ومطالبته بأن يكون الطفل هو مركز العناية والاهتمام لا المادة كما كان الحال من قبل .

واميل يعتبر فى نظر بعض الكتاب قصة شعبية ، فقد أقبل على قراءتها عامة الشعب وغالبيتهم لا طبقة المفكرين وحدهم ، ذلك لان روسو جعل من التربية موضوعا شعبيا يتحدث فيه الجادون والهازلون من النـاس جميعا . وكتاب اميل هوالذى وجه الانظار الى التربية وجعل الحكومات والشعوب جميعا يعتبرونها عملية قومية يجب أن تكون موضع العناية والرعاية لا من الحكومات وحدها بل من الشعب أيضا .

يوليو ١٩٥٨ أحمد زكى محمد

التربية
عند جان جاك روسو

« عللنا التي نعانيها قابلة للشفاء ، والطبيعة التي يسرتنا للخير منذ مولدنا ، قمينة أن تعيننا على الشفاء متى نشدناه » .

سنيكا

هذا كتاب لا يكتبه الا عبقرى ،فهو ناطق بصورة صاحبه الذاتية فى صدق كثير ،وحماسة متدفقة ، واخلاص مستمر . ولكن فى كثير أيضا من الاندفاع الذى يتسم به اثنان لا ثالث لهما : عبقرى أو جهول !

فى الكتاب تحليق جبار فى سماء الفكر ،ونظرات ثاقبة فى اغوار النفس والفطرة البشرية لا يؤتاها مثقف من حيث هو نتاج علوم عصره ، وانما يؤتاها موهوب الحس والذهن . ولكن فى الكتاب أيضا سذاجة كثيرة ، تكاد تبلغ مرتبة الجهالة أو الغرارة المضحكة . وما أشبه ذلك بروسو فى حياته ، وفى سلوكه ، وفى أدبه كله .

وان الانسان ليحار بعد ذلك أيرفض اميل أم يقبله . أيحبه أم يكرهه .. ولكنه لا يتردد فى التأثر به ، والاهتزاز لما فيه من آفاق وسبحات .

ونظرية روسو فى التربية قائمة على ذلك المبدأ الذى اعتنقه بروح الفنان ،ودعا اليه فى حماسة المؤمن المندفع .

« ان الطبيعة خيرة .وليس لنا أن نقاومها أو نعارضها فى تقدمها الفطرى » .

ولهذا نراه يترك اميل لتنمو فيه جميع الميول الطبيعية التي ولد بها ، موقنا ان نمو تلك الميول فيه هو سبيله السوى الى الفضيلة .

وانه ليتطرف فى هذا الصدد تطرف الدعاة المتعصبين لمبادئهم دائما ، حتى يأبى ان يحصن تلميذه ضد الامراض ، ايمانا منه بأن الطبيعة ستتولى تحصينه منها ! .

وما نظن التربية الاخلاقيـة ترضى كثيرا عن ترك الحبل على الغارب لكل ميل فطرى ، فما كانت الآداب الانسانية كلها الا كفاحا دائبا لالجام الميول الفطرية بالكوابح والضـوابط حتى تأمن جماحها . فمن شأن الدوافع أن تكون قوية مندفعة . وذلك لا يعيبها من حيث هى دوافع ونوازع . وانما تطلب الضوابط والكوابح عنـد وظيفة اخرى ترسم حدود الفعل ، واهدافه ، وتفرض ذلك على الطبيعة البشرية بسلطان ، هو سلطان الفضيلة ، الذى يعلو بغير شك على سلطان الفطرة النزاعة . لأن الفضيلة لو كانت فطرية فى النفس ماعارضت دوافعها ولاوقفت بها دون مداها ، وانه لمدى لا يدرك له منتهى .

فليس يسعنا اذن أن تتقبل المبدأ الذى اعتنقه روسو وأسس عليه نظريته فى التربية ، لأنه مبدأ أشد سذاجة من أن يصلح لحياة الناس التى تدين بخصوبتها لما فيها من تنوع وتعقد ، قد ينكره روسو الفنان ، الا انه لا ينفك حقيقة لا مناص منها .

ثم ما ظنك بتلميـذ من أبنـاء السراة ، لا حاجة به للتكسب ، فرغ لتعليمه مؤدبه الخاص . أى نموذج هذا للتلاميذ ؟ وأى تربية هذه التى تتم فى معزل عن المجتمع . والتكيف به ؟ ان الطبيعة لاتعرف الانسان الفرد المنعزل ، ولكنها تعرف النوع والجمـاعة . وما تربية فرد ما الا تشكيله بآداب مجتمع ما ، وظروف ذلك المجتمع ، وقيمه . أما تربية الفرد المنعزل ، المجرد عن ظروف الزمان والمكان ، فوهم لو فرضنا تحققه لأخرج لنـا

مسخا لا يصلح لشيء .. وذلك هو عكس المقصود بالتربية .

ولا ننسى ان هذا الشاعر روسو قد انساق مع حلمه الخيالي فجعل تلميذه يكتسب جميع المعارف العلمية باكتشافها ابتداء . وقد استلزم ذلك الكشف آلاف العبقريات في آلاف من السنين .فان قيضت لأميل فسحة العمر كالخالدين ،فهل تتاح له حصيلة العبقريات كلها التيقسمت حظوظها في العباقرة أجمعين ؟ وان استجاب الخالق لروسو فخلق له ذلك التلميذ ،فكم اميلا على هذا الغرار يخلقه الله ؟وهل تصلح المعجزات أو الاماني أساسا لمنهج عام في التعليم ؟ .

اني لأرى المبدأ جميلا . ولكن الامكان لايسمح بتطبيقه كما هو . ولا شك ان الطفل ينبغي أن يوجه للملاحظة والكشف عن اسرار الطبيعة . ولكن المعلومات التي جباها لنا العلماء كافة لابد انتيسر للتلميذ ، ومن أقرب السبل ، وفي أرقى أطوارها ، لأنه لن يستطيعالمرور بجميع مراحل الكشف العلمي بمفرده .

ولنتصور اميلا يتعلم نظريات الراديو . أياخراج يحتاج اليه معلمه كي يقوده من ظاهرة الى كشف قانونها ، ثم الى ظاهرة أرقى وكشف قانونها ، وهكذا دواليك حتى يصل به الى المذياع ،والتلفزيون .. وكم من السنين يحتاج اليها كي يتم تلك الكشوف ،ويعيد من جديد اختراع كل ما اخترعه الأولون ؟ .

خيال شاعر هذا ولا مراء ..

ولكن أين كنا نمسي لولا خيال الشعراء ؟ .

ان هذه الحماسة المندفعة التي لاتبالي ،ولا تصلح أحلامها للتطبيق بحذافيرها ، عنصر دافع لا غنى عنه لأفكارنا وتقدمها . فما أشبه تلك الومضات بثورات البراكين التي تكشف لنا عن أسرار طبقات الارض ، وتخرج لنا من جوفها كوامن المعادن والكنوز .

أجل هو خيال شاعر. ولكنه لهذا السبب كان ثورة كاملة فى التربية. ثورة قوضت المبادىء العتيقة ، ولفتت الأنظار الى مبدأ جديد : مبدأ أساء صاحبه استعماله ، أجل ! ولكن حسن استعماله ما كان ليتاح لنا لو لم يقدمه الينا ، ولو لم ينبهنا اليه بتلك الهزة القوية التى ربما صدمتنا، الا أنها أيقظتنا . وذلك حسبها من فضل ، وحسبها من مبرر للخلود .

طالما تنكر المربون للطفل وتجاهلوا فطرته . فكان لابد من هزة عنيفة تلفت الناس الى تلك الفطرة .ولئن كان روســو قد قدس تلك الفطرة تقديسا يكاد يعزلها ويجمدها ، فبيدنا نحن أن نزيل عنها الجمود . وقد فعلنا . فما من نظرية عصرية فى التربية تجسر ان تقوم على أساس غير مراعاة طبيعة الطفل وظروفه وسعادته .لكنها تشفع ذلك بمراعاة الهدف الذى من أجله شرعت كل تربية ،وهو الاعداد لمجتمع معين ،وحياة معينة، لها قيمها وظروفها ، وبحيث تكون حياة الطفل فى غده أفضل من حياة جيل آبائه .

ومن المفارقات الطريفة حقا ان روسو الشاعر صاحب أنجيل الحرية فى التربية والسياسة ،يرتد سلفيا ،محافظا ، بل رجعيا حين يتحدث عن المرأة .فهو لا يرى لها حقا فى تربية كتربية الفتى ،وانما تربى الفتـــاة لتكون خادمة للفتى ،تمسح على آلامه ،وتهيىء له حاجتــه من ملبسه وطعامه .

ولعل قائلا يقول ان روسو قد استلهم الطبيعة كمـــا يراها فى ذلك الرأى ،ولكنه فى الحق رأى فطير وقسوة لا مبرر لهـــا .بل وجهالة كان ينبغى ان يتنزه عنها نبى الحرية ولسانها المبين ،وأحسبه لو عاش فى زماننا كان حريا أن يعدل عن ذلك الرأى .

هل قلت « لو عاش فى زماننا » ؟

ياله من فرض مضحك ! فان زماننا ما كان ليوجد على هذه الصورة

لولا أن روسو قد مهد له ، وبذر بتعاليمه وأحلامه وصرخات نفسه الشاعرة بذور الحرية الفكرية والحرية التربوية التى حددت معالم عصرنا الحديث .

لا تثريب على روسو .فما كان ليطالب بأكثر مما فعل ،وهو ان يكون صوتا صارخا فى البرية : أعدوا طريق التربية مستقيمة ! احترموا الطبيعة فى الطفل ! احترموا فطرته وميوله ! لاتتجاهلوا الطبيعة ولاتمسخوها !

ذاك هو روسو .قرين يوحنا المعمد . صوت صارخ فى البرية . نذير وبشير . نور ساطع فى غياهب المستقبل .وهو بهذا الاعتبار ، قد أدى مهمته أمجد الأداء ، بما استرعى من أسماع ، وما أوعى من قلوب ، وما هدى من سبيل ...

بهذا وحده ،وما هو وحده بقليل ، خلد روسو ،وخلد اميل .

يوليو سنة ١٩٥٨ **دكتور نظمى لوقا**

مقدمة المؤلف

هـذه المجمـوعة من الأفكار المتنـاثرة ، ضئيلة الحظ من التنظيم والاتصال . فقد بدأتهـا بقصـد ادخال السرور على أم فاضلة مستقلة التفكير .وكانت نيتى الأولى أن أجعل منها مقالة لايتجاوز طولها بضع صفحات .فاذا بالموضوع يجرفنى . وما أدرى الاومقالتى قد باتت كتابا أضخم بكثير من المادة التى يتضمنها ،وان يكن أضأل بكثير من جلال الموضوع الذى يتصدى له .

وترددت طويلا فى نشره على الناس .وكثيرا ما راودنى الشعور وأنا مشتغل بكتابته ، انه شتان بين نشر كتيبات معدودات وتأليف كتاب بمعنى الكلمة . وبذلت جهودا غير ذات جدوى فى تكميله من نقص . ثم جمعت أمرى حين رأيت من واجبى أن أنشره على الناس كما اتفق لى .

وأعتقد أن انتباه الجماهير ينبغى أن يسترعى الىهذا الموضوع.ولئن كانت أفكارى بصدده ربما جانبتالصواب ،فما أرانى أضعت ما أنفقت من وقت هباء اذا قيض لى أن أستنفر همة سواى لصوغ أفكار تتسم بالصواب فى هذا الباب .

وان فردا منفردا مثلى يلقى الى الجمهور بكتاباته من غير داعية يدعو لها أو يعلن عنها ،ومن غير حزب من النصراء متأهب للذود عنها ،بلوهو لا يعلم ماذا عسى أن يظن بتلك الكتابات أو يقال فيها ،لهو حقيقبالراحة من احدى المقلقات على الأقل ،فانه ان يكن مخطئا فيما كتب ،فلنيأخذ أحد أخطاءه مأخذ التنزيل أو الانجيل ! .

ولن أطيل الكلام عن قيمة التربيةالصالحة ،ولنأتلكأ لأثبت أنالتربية

السائدة الآن فاسدة .فقد سبقني الى ذلك ألف انسان .ولست أحب ان أحشو كتابا بأمور يعلمها الناس كافة .وحسبى أن أشير هنا الى تلك الصحية التى طالما ترددت فى الاسماع منددة بطريقة التربية القائمة ، بيد أن أحدا لم يجشم نفسه عناء الدعوة الى ما هو خير منها !.

ان ما لجيلنا من أدب ومعرفة يجنحان كثيرا الى الهدم دون البناء . فالنقد يتيح للناقد أن يتخذ لهجة الاستاذ .اما التوجيه أو الاقتراح فلهجتهما لاتتيح الكثير من زهو الفلسفة واستعلائها .

وعلى كثرة تلك الكتب التى تزعم هدفها الأوحد النفع العام ، تجد أشد الفنون جميعها منفعة للناس ،ألا وهو فن تكوين الرجال ،لم يزل رهين الاهمال .وحتى بعد أن كتب لوك كتابه فى الموضوع ، تركت المسألة فلم يمسسها أحد تقريبا .وانى لأخشى ان يذر كتابى هذا الأمر حيث أستقبله .

اننا لا نعرف شيئا عن الطفولة .ولضلال أفكارنا عنها نزداد بالمضى فى أمرها ضلالا على ضلال .وأحكم الكتاب يوجهون أنفسهم الى ما ينبغى للرجل أن يعرفه ،من غير اعتبار لما يستطيع الطفل أن يتعلم .ذلك انهم ينشدون الرجل دائما فى الطفل ،من غير ان يراعوا ماذا يكون الطفل فعلا قبل أن يغدو رجلا .

والى هذه الدراسة وجهت أكثر عنايتى .فلئن ثبت ان منهجى متخبط غير قويم ،فلن تنفك ملاحظاتى ذات نفع وغناء .وقد أخطىء كثيرا فيما ينبغى أن يكون ويصنع ،ولكن أخالنى أحسنت تصور المادة التى ينصب عليها العمل والصنع .

ابدأ اذن باحسان دراسة تلاميذك .فأنت يقينا لاتعرفهم اطلاقا ،فان أنت قرأت هذا الكتاب بهذه النية ، فلا أظنك تعدم من وراء قراءته شيئا من الجدوى .

أما من حيث ما يسمونه الجانب المنهجي من المسألة ،فليس هذا الجانب هنا الا تيار الفطرة .وهذا ما قد يضل فيه القارىء ،وهو أيضا الجانب الذي سأتعرض منه للهجوم بغير شك .وربما كان ذلك عن حق. فما أحراهم ان يجدوا مسحة الخواطر التى سنحت لمتأمل فى التربية أو حالم بها ،وقد غلبت على مسحة الدراسة .ولكن ماذا عسيت أن أصنع؟ فلست عن آراء سواى أكتب بل عن آرائى .ولست أرى ما يراه الناس وذلك شيء عيب على منذ أمد طويل .وهل فى وسعى أن أعير نفسي عيون الناس أنظر بها ،أو أنحل نفسى آراءهم ؟ .

حاشا ! ان فى وسعى حقا ألا أفتتن بآرائى ،وألا أظن بنفسى التفرد بالحكمة دون العالمين . ولكن ليس فى وسعى ان أجرد نفسى من رأيى ، وان وسعنى ان أرتاب فيه .هذا كل ما أستطيعه . وهذا ما أفعله .

ولئن اتخذت أحيانا أسلوب التقرير .فليس ذلك لرغبة منى فى الاملاء على القارىء ، بل أتخذه لأحدثه بما أعتقد . اذ كيف أحدثه بلهجة الشك عن شيء لا شك فيه عندى بتاتا ؟ الا أنى أقول الشيء كما يتراءى فى فكرى بغير تحريف .

ولأنى أبسط رأيى بصراحة وحرية ، لا أرتجي أن أجد له على الناس سلطانا . ولذا أشفعه دائما ببيان أسبابه وأسانيده ،حتى يتسنى للناس أن يزنوها ثم يحكموا لى أو على .

بيد ان عزوفى عن الدفاع عن آرائى لا يلزمنى بكتمانها عن الناس . لأن المبادىء التى أخالف فيها الناس ليست عندى من الهينات . بل هى مما ينبغي أن يميز الناس فيه الحق من الباطل ،ومما ينبنى عليه هناء النوع البشرى أو شقوته .

ولطالما قيل لى اطلب من الناس ما يستطاع .وما أشبه هذا بأن يقال لى اطلب من الناس أن يفعلوا ما هم فاعلون . أو أن يفعلوا ذلك الخير الذى يتفق وما هم آخذون فيه من شر !

الا أن مطلبا كهذا فى بعض الأمور لهو أمعن فى الخطل من مطلبى . فان الخير حين يصهر الى الشر ،يمسخ ،ويبقى الشر دون علاج .

ولأن أسير فى جميع الأمور على النهج المطروق ،أحب الى نفسى من متابعة النهج الصالح متابعة منقوصة .فذلك انفى للتناقض .فما يستطيع الانسان ان يتغيا غايتين متقابلتين فى وقت معا .

أيها الآباء والامهات .ما أردتم أن يكون فهو الممكن . فهل لى أن أترجم عن ارادتكم ؟ .

وهناك أمران يجب اعتبارهما فى كل شريعة نهم بها ، أولهما ما لذلك المشروع من صلاح مطلق .وثانيهما ما فى تنفيذه من يسر .

والنظرة الأولى كافية لاقناعنا بأن ما فى طبيعة هذا الموضوع من خير كفيل له بيسر العمل والتطبيق .أى أن التربية التى ندعو اليها تلائم طبيعة الانسان وتتفق مع العاطفة البشرية .

والاعتبار الثانى يتوقف على شروط معينة فى حالات خاصة .وهذه الشروط عارضة ،وهى من ثمة متغيرة الى أقصى حد .فنوع معين من التربية قد يكون ممكنا فى سويسرا ولكنه غير ممكن فى فرنسا .ونوع آخر يصلح للطبقات الوسطى بيد انه لايصلح للنبلاء .فالمشروع قد يتفاوت حظه من التوفيق عند التنفيذ حسب عوامل شتى ،لايمكن تحديدها الا بالتطبيق الخاص للمشروع فى هذا البلد أو ذاك ، وهذه الطبقة أو تلك .

ولكن التطبيقات الخاصة ليست هى جوهر موضوعى ،ولهذا لا موضوع لها فى مشروعى . ولسواى أن يجشم نفسه بلوغ تلك الغاية ما شاء ،كل يختار لذلك التطبيق البلد الذى يشاء والطبقة التى يختار .

وحسبى ان مشروعى يصلح للناس أينما ولدوا . وانك متى أخذتهم

مأخذي هذا ، صنعت منهم خير ما يمكن أن يكونوا لأنفسهم ، وصنعت منهم خير ما يمكن أن يكونوا للناس .

وان قصرت دون هذا العهد ،فاللوم لاحق بي لا محالة . أما أن وفيت وعدى هذا ،فلا حق لأحد أن يطالبنى بالمزيد . فما بغـــيره تعلق منى الوعد ...

الكتاب الأول

الطفولة الأولى
وما تقتضيه من عناية

- الطبيعة والتربية
- مزاعم باطلة
- واجب الأب
- تخير المؤدب والتلميذ
- تخير المرضع
- الخدمات الأولى
- التربية النفسية المتدرجة

الطبيعة والتربية

يخرج كل شيء من يد الخالق صالحـا ،وكل شيء في أيدي البشر يلحقه الاضمحلال . يكره الانسان الارض على انبات ما تخرجه أرض سواها ،ويكره الشجرة على حمل ثمار شجرة غيرها .يخلط بين الاجواء والعناصر والمواسم ،ويخصي كلبه وحصانه وعبـده .يقلب كل شيء ، ويشوه كل شيء .يحب المسخ والامساخ ،ولا يريد شيئا على الوجـه الذي برته به الطبيعة حتى ولو كان ما برته الطبيعة انسـانا مثله ! فهو يأبى الا أن يروض له ،كأنه جواد ركوب ،وأن يصاغ على هواه كأنه شجرة في بستانه .

وبغير هذا كان المآل حريا أن يزداد وخامة ،فلا يصلح جنسنا البشري بحال وسط .اما وقد وصلت الامور الى وضعها الراهن ،فمن خلي بينه وبين سجيته منذ مولده خليق أن يغدو بين النـاس أشـدهم مسـخا . فالسبقيات ،والسلطان ،والضرورات ،والقـدوة ،وسـائر الظـروف الاجتماعية التي تستغرقنا قمينة أن تخنق فيه فطرته ، ثم لا تعوضه عنه شيئا . ستكون فطرته كنبتة شاءت لها المقادير أن تنبثق في عرض الطريق، فتدوسها أقدام السابلة ،وهم يدهمونها من كل صوب ،ويرتطمون بها في كل اتجاه .

اني أتجه اليك أنت بالخطاب أيتها الأم الحصيفة الحنون التي عرفت

كيف تتنكبين الطريق المطروق وتحمين النبتة الباثقة من عتو المواضعات البشرية ! . (١)

اسقي هذه النبتة الصغيرة وتعهديها قبل أن تموت . فيوما ما ستكون ثمراتها قرة عينك . وبادري الى احاطة روح ولدك بحمى متين . أجل سواك قد يناط به تخطيط ذلك الحمي ، ولكن ما من أحد سواك ينبغي له أن يقيم السياج ..

انما يتشكل النبات بالزراعة، ويتشكل البشر بالتربية . فمن ولد منهم فارها قويا ، لن تجديه قامته وقوته الى أن يتعلم كيف يفيد منهما ، بل تكونان مصدر ضرر له بما تمنعان غيره من التفكير في مد يد العون

---

(١) ان التربية الاولى هي أخطر مراحل التربية شأنا . وهذه التربية الاولى موكولة الى النساء بغير منازع . فلو أن فاطر الفطرة شاءها موكولة للرجال لآتاهم لبنا يرضعون منه البنين . فالاجدر في مؤلفات التربية أن توجه الخطاب الى النساء ، فهن أقرب مساسا بها من الرجال ، وأشد منهم تأثيرا ، والتوفيق فيها يعنيهن أكثر مما يعني الرجال ، لان معظم الارامل تحت رحمة أولادهن . الذين لا يتورعون عن مصارحتهن برأيهم في حسن تربيتهن لهم أو سوئها . ولما كانت القوانين تهتم برعاية الاموال دون الاشخاص ، لانها تستهدف الامن لا الفضيلة ، فهي لا تمنح الامهات سلطة كافية على الابناء . وواجبات الامهات أثقل من واجبات الآباء ، وأعمالهن أجدى على رفاهة الاسرة ، وهن في العادة ألصق بابنائهن . ولئن كان لابن يعق أباه بعض العذر أحيانا ، فان من مسخت فطرته حتى عق أمه التي حملته في بطنها وغذته من لبنها ، ونسيت نفسها أعواما لتفرغ له جهدها ، لحقيق أن يعجل به لانه لم يكن أهلا لنور الدنيا . وقد يقال ان الامهات يدللن أولادهن . وهن في ذلك مخطئات . ولكن لعلهن في ذلك أقل خطأ منكم يا من تفسدونهم . فالام تريد لابنها السعادة منذ الآن . وهي في ذلك محقة وان أخطأت الوسيلة . وينبغي تبصيرها بها . الا أن الطموح والشح والعنت وسوء التقدير للعواقب مما يجنح اليه الآباء ، والاهمال أو البلادة التي يعاملون بها أولادهم ، لهي أضر بهم من حنان الامهات الاعمى . وعلى كل حال يجب توضيح هذا المعنى الذي استعمل به لفظ الام ، وهذا ما سأفعله فيما بعد .

اليه [1] ،واذ يتركونه لشأنه يموت صبرا قبل أن يفطن الى حاجاته .

وان من يضيق بفترة الطفولة لا يدرك أن النوع البشرى كان حريا أن يهلك لو لم يبدأ الانسان طفلا ... فنحن نولد ضعافا ،فى حاجة الى القوة ،ونولد مجردين من كل شيء ،فى حاجة الى العون .ونولد حمقى، فى حاجة الى التمييز . وكل ما يعوزنا حين مولدنا ،ونفتقر اليه فى كبرنا ،تؤتينا اياه التربية .

والتربية تأتينا اما من الطبيعة أو من الناس ،أو من الاشياء .فنمو وظائفنا وجوارحنا الداخلى ذلكم هو تربية الطبيعة .وما نتعلم من الافادة من ذلك النمو، ذلكم هو تربية الناس . وما نكتسبه بخبرتنا عن الأشياء التى تتأثر بها ، فذلكم هو تربية الأشياء .

كل امرىء منا اذن يتولى أمر تشكيله ثلاثة ضروب من الأساتيذ والتلميذ الذى تتضارب فيه دروسهم المتباينة تسوء تربيته ،ولن يكون على وفاق مع نفسه .اما من تتوافق فيه تعاليمهم ،فتنصب على أمور واحدة ،وتستهدف غايات واحدة ،فهذا هو الذى يصل الى مبتغاه ، ويعيش فى وفاق مع نفسه .وهذا هو من طابت تربيته .

ومن بين ضروب التربية الثلاثة ، نلفى تربية الطبيعة خارجة عن ارادتنا. وأما تربية الاشياء فلا تدخل تحت سلطاننا الا بمقدار .واما تربية الناس فتلك دون سواها مطوعة لنا بحق .بيد أننا لسنا مسيطرين عليها الا افتراضا ، فمن ذا الذى يتطاول فيطمع أن يهيمن الهيمنة كلها على أقوال كل من يحيطون بالطفل وأفعالهم ؟

وما اعتبرت التربية فنا ، فهى توشك أن تستعصى على النجاح ، فأسباب النجاح المحتومة ليست بيد أحد .وكلما يستطاع بالجهد أن

---

(1) أنه اذ يشبه سواه من الناس فى مظهره ، تعوزه الالفاظ والمعانى التى تدل عليها ، فيعجز عن تفهيمهم حاجته الى معونتهم ، وظاهر حاله لا يدل على تلك الحاجة .

نقترب من غايتنا قليلا أو كثيرا ،ثم يستأثر الحظ بتمام الوصول :
وما هي هذه الغاية ؟

انها بعينها غاية الطبيعة . وقد سبق البرهان على هذا - وحيث ان أئتلافه ضروب التربية الثلاثة لا معدى عنه لاكتمالها ، فيجب أن نوجه هذين الضربين اللذين لنا عليهما بعض السلطان الى مضاهاة الضرب الذي لا سلطان لنا عليه .

ولعل لفظ الطبيعة يعتريه بعض الغموض ، فلأعمد هاهنا الى ضبطه.

قيل ان الطبيعة ان هي الا العادة . فما معنى هذا ؟ ألا توجد عادات لا تتكون الا قسرا ، ولا تقضي على الطبيعة مطلقا ؟ خذ مثلا العادة التي تتكون عند النبات حين يحال بينه وبين اتجاهه الرأسي. ولكن حين يترك للنبات مطلق الحرية ،يستمر في الاتجاه الذي أجبر عليه ،الا أن كل امتداد جديد للساق الاصلي يرتد الى الاتجاه الرأسي .وكذلك ميول الناس .فما لبث المرء على حالته ،احتفظ بالعادات التي أقحمت على طبيعته ،ولكن متى زالت تلك الحالة انقطعت العادة وارتد الحال الى الطبيعة .

وما التربية يقينا الا عادة .وكأين من انسان ينسى تربيته أو يهدرها . وكأين من انسان يصونها .فمن أين جاء هذا الاختلاف ؟ فهل نقصر لفظ الطبيعة على العادات التي توافق الطبيعة ، فلا حاجة بنا لمزيد من الافصاح ...

اننا نولد ذوي حس ،ومنذ مولدنا ونحن ننفعل بمختلف الاشياء التي تحيط بنا ،ومنذ نؤتي ما يسمى وعي احساساتنا ونحن ننزع الى الاقبال على الأشياء التي تصدر عنها بعض هذه الاحساسات ، والى العزوف عن بعضها الآخر ، بحسب ما يطيب لنا منها وما يسوؤنا ، ثم بحسب ما نجد من وفاق بيننا وبين هذه الاشياء أو تنافر .ثم أخيرا بحسب الفكرة التي يكونها ذهننا عن السعادة أو الكمال ..

وتزداد هذه النزعات اتساعا وشدة كلما ازددنا تعقلا واستنارة . الا أن هذه النزعات تتغير بتأثير معتقداتنا وبضغط من عاداتنا . اما قبل ذلك التغير القسري ، فهذه النزعات هي التي أطلق عليها اسم طبيعتنا .

الى هذه النزعات الأولية اذن ينبغي أن نرد كل شيء . وهذا ميسور لو أن الضروب الثلاثة من تربيتنا كانت متباينة فحسب ، ولكن ما الحيلة فيها حين تتعارض ؟ وحينما لا يكون المطلوب تربية شخص من أجل ذاته بل تربيته من أجل سواه ، فما احرى التوافق أن يكون عسيرا أو ممتنعا . فيتحتم أن نكافح في تربيته . اما الطبيعة واما المقولات الاجتماعية. فاما أن تجعله انسانا أو تجعله مواطنا ، اذ يمتنع أن تجعله هذا وذاك في آن واحد !.

ان كل مجتمع جزئي اذا كان ضيق الحدود شديد الترابط ينفصل عن المجتمع الكبير . وكل وطني فيه قسوة على الأجانب . فما هم الا بشر . ولهذا فهم ليسوا في نظره شيئا [1] .

وهذا العيب لا مناص منه ، بيد أنه غير ذي بال . فالمهم أن يكون المرء رحيما برا بمن يعيش معهم . وكذلك كان الاسبرطيون . فالواحد منهم خارج أسبرطه طموح بخيل أناني . أما داخل أسوار بلده فهو نزيه عف عادل . فاحذروا من أولئك الدوليين الذين ينادون بأضخم الواجبات وأوسعها مدى في كتبهم ، وهم ينكصون عن القيام بها في محيطهم الخاص . فمثل ذلك الفيلسوف يحب التتار لا لشيء الا ليهرب من حب مواطنيه .

ان الشخص الطبيعي يعيش لنفسه ، فهو الوحدة العددية ، وهو الكل أيضا بالاطلاق . ولا يتعلق وجوده الا بنفسه وبنظرائه . أما المواطن

---

(١) ولذا تكون حروب الجمهوريات أقسى من حروب الملكيات . ولكن ان تكن حروب الملوك أهون ، فسلمهم فظيع : فخير للمرء أن يكون عدو الملوك من أن يكون من رعاياهم !

فهو وحدة كسرية .هو بسط مقامه الوطن .وقيمته ليست فى ذاته بل تتعلق بالكل ،وبنسبته الى ذلك الكل الذى هو الهيئة الاجتماعية .

والمقولات الاجتماعية الصالحة هى التى تعرف كيف تحسن تغيير طبيعة الشخص ،فتجرده من وجوده المطلق لذاته ،كى تمنحه وجودا نسبيا يذيب ذاته فى الوحدة العامة ،بحيث لا يرى الفرد نفسه بعدئذ شيئا قائما ،بل جزءا من الكل ،ولا يحس الا باحساس الكل .

ان المواطن الرومانى لم يكن فلانا من الناس .وانما هو رومانى وكفى. بل انه كان يحب وطنه دون نفسه .وهذا ريجوليوس حين وقع فى الأسر اعتبر نفسه من قرطاجنه ،بما غدا من ممتلكات سادته .واذ اعتبر نفسه أجنبيا عن روما أبى أن يجلس فى مقعده بمجلس الشيوخ الرومانى ، الا أن يأمره بذلك قرطاجى . انه استنكر أن يفكروا فى انقاذ حياته . وكان له ما أراد ،وعاد منتصرا ليلقى ميتة شنعاء !ومثل هذا السلوك لا يشبه كثيرا فيما أظن سلوك الناس فى هذا الزمان .

وهذا بيداريتس يتقدم فى اسبرطه مرشحا نفسه لعضوية مجلس الثلاثمائة ،وحين يخذل يعود الى داره وهو يكاد يطير من فرط السرور ، لأنه اتفق لاسبرطه أن يكون بها ثلاثمائة رجل كلهم خير منه . وأحسب الرجل كان مخلصا فى سروره .وهكذا يكون المواطن !.

واليكم امرأة اسبرطيه كان لها فى الجيش المحارب خمسة بنين . ووقفت تنتظر أنباء المعركة الدائرة ،وجاء من الميدان من يحمل أنباء فسألته ما وراءه وهى ترتجف ،فقال لها :

— بنوك الخمسة سقطوا صرعى !

فزجرته وسبته وصاحت به :

— سحقا لك من عبد ! أعن هذا سألتك ؟

فلما قال لها العبد :

— قد انتصرنا !

أسرعت الأم الى المعبد وقدمت القرابين شكرا للآلهة .وهكذا تكون المواطنة !.

ان من يريد أن يحتفظ في النظام الاجتماعي بالأولية للعواطف الطبيعية لا يفقه ما يريد .فمثل هذا الرجل سيظل على الدوام متناقضا مع ذاته ، متأرجحا بين ميوله وواجباته ،فلا هو انسان ولا هو مواطن ،ولا خير فيه لنفسه ولا خير فيه لسواه .بل يكون كأبناء زماننا ،فرنسيا أو انجليزيا أو من أبناء الطبقة الوسطى .وما هذا بشيء ! .

ولكي يكون المرء شيئا ، ويكون مخلصا في كيانه سليم الوحدة ، ينبغي أن يطابق عمله قوله ،على بينة مما ينبغي أن يفعل ،فيقدم على فعله في حزم وثبات ومثابرة .

واني لشوق أن أرى هذا النابغة كي أتبين أهو انسان أم مواطن ، أو كيف يتأتى له أن يكون الاثنين معا .

ومن هذه الأشياء التي تتعارض بالضرورة تنجم صورتان متناقضتان من النظم ،احداهما عامة مشتركة ،والأخرى فردية منزلية .

وان أردت أن تعرف كيف تكون التربية العامة ، اقرأ جمهورية أفلاطون .فما هو بكتاب في السياسة كما يتوهمه من يحكمون على الكتب بعناوينها ،بل هو أجمل سفر في التربية خرج من يد بشر .

ان الهيئة العامة لم يعد لها وجود . وليس من الممكن أن توجد ،لأنه لم يعد للوطن وجود ،فلا يمكن اذن أن يوجد المواطنون .فينبغي أن تمحى كلمة الوطن والمواطن من اللغات الحديثة .وعندي مبررات هذا الرأي ، ولكني لا أريد الادلاء بها هنا ، لأنها لا تتصل بالموضوع الذي نحن بصدده .

وأنا لا أعتبر تلك المؤسسات المضحكة التي يسمونها كليات من الهيئات

العامة . وكذلك لا أحسب التربية الدنيوية تربية بمعنى الكلمة لأنهـا تهدف الى غايتين متناقضتين ، فيفوتها ادراكهما جميعا . ولا تفلح الا فى أن تغرس الرياء فى الناس ،فهم يظهرون دائما أنهميعملون لسواهم ،فى حين أنهملا يعملون الا لأنفسهم . وتلك أمور معروفة للجميع ، فلا ضرر منها على أحد . وانما هى جهد ضائع .

ومن هذا التناقض يتولد الصراع الذى نحسه دائما فى أنفسنا ؛ اذ نجدنا مسوقين فى طريقين متعارضين بدافع منالطبيعة ودافع منالناس، فتتقاسمنا هذه القوى المتباينة ، ونتبع من بينها طريقا مختلطا لايؤدى بنا الى هذه الغاية أو تلك .وهكذا نتأرجح مغلوبين على أمرنا طيلة حياتنا، الى أن نخدم تلك الحياة عاجزين عن الوصـول الى وفاق معذواتنـا ، وعاجزين عن اسداء الخير لأنفسنا وللناس على السواء .

أما التربية المنزلية ،أو تربية الطبيعة .فماذا يكون للناس امرؤ ربى لنفسه فحسب ؟ ولو انه أمكن جمع الهدف المزدوج فىغاية واحدة ، بالقضاء على التناقض فى نفس المرء ،لأزيل عائق ضخم يحـول دون سعادته .

وماذا ينبغى ان نصنع للحصول على ذلك الانسان الطبيعى النادر ؟ نستطيع الكثير بأن نحول دون عمل شىء فى ذلك الصدد . ان الحركة ضد التيار يسيرة .فما علينا الا الاتجاههنا تارةوهنالك تارةأخرى .ولكن حين يكون التيار قويا وفى مرادنا أن نثبت فى موضعنا ،فلابد من القاء المراسى . والخطر عليك أيها الربان الشاب من فقدان مراسيك ، فتغرق سفينتك وأنت لا تدرى .

ان الناس فى الحالة الطبيعية سواسية .ومهمتهم المشتركة أن يكونوا رجالا . وأنا لا يعنينى أن يكون مصير تلميذى الانضمام الى الجيش أو الكنيسة أو الاشتغال بالقانون .فالطبيعة تندبه قبـل كل شىء للحيـاة

الانسانية .والحياة هي المهنة التي أريد أن ألقنه اياها .وحين يتخرج من بين يدي لن يكون قاضيا أو جنديا أو قسيسا ،بل سيكون انسانا قبل كل شيء ،بكل ما ينبغي أن يكونه الانسان ،وسيعرف كيف يكونه على على الوجه الصحيح ومهما غيرت صروف الأيام من وضعه ،فسيكون دائما في موضعه الحق .

ان دراستنا الحقة هي دراسة البيئة الانسانية .وبهذا تكون التربية الحقة بالممارسة أكثر مما هي بالتلقين .فالانسان يبدأ التعلم حين يبدأ الحياة .فتربيتنا تبدأ معنا ،ومعلمنا الأول هو حاضنتنا .وكان الأقدمون يعنون بالتربية التغذية ، ولئن قال قائلون ان القابلة تخرج الطفل الى النور فترضعه الحاضنة ويؤدبه المؤدب ويثقفه معلم المدرسة ،فهذا التفريق ساء استعماله ،وينبغي لخير الطفل أن يتولى قياده مرشد واحد .

لذا يجب أن نوسع أفقنا .ونستهدف في تلميذنا الانسان المجرد ، المعرض لجميع عوارض الحياة البشرية ،ولو أن الناس كانوا يولدون مرتبطين بأرض وطنهم ،ولو أن السنة كلها يستغرقها فصل واحد لايتغير، ولو أن حظ كل واحد من الحياة لايعتريه التبدل مطلقا ،لكانت الطريقة السائدة في تربية الأطفال بحسب حال ذويهم طريقة صالحة من بعض نواحيها . لأن الطفل الذي يربى على أساس وضع معين لن يتزحزح عن ذلك الوضع فلا يتعرض لأكدار وضع سواه ،بيد أن حظوظ الناس لاتثبت على حال .وقرننا الحالي ذو روح قلقة تكثر التبديل بين جيل وجيل . فمن الخرق أن ينشأ طفل على أساس حالة ثابتة وظروف لا تتغير .فاذا اختلفت حاله قليلا أو هبط السلم درجة واحدة هلك لا محالة أو ضل . وليس المراد أن نعلمه احتمال الآلام ،بل المراد أن نجعله يتمرس باحساسات الألم ! .

ان المرء يبتغي أن يصون طفله .وهذا لايكفي .بل ينبغي أن نعلمه كيف

يصون نفسه حين يضحى رجلا ،وكيف يحتمـل ضربات القـدر وكيف يواجه البؤس والنعيم ،وكيف يعيش ان اقتضى الأمـر فى الزمهرير والقيظ .

وعبثا تحتاط حتى لا يهلك .فما من الموت مفر . ان واجبك أنتعلمه كيف يعيش لا كيف يتحاشى الموت .والحياة ليست نفسا يتردد بل هى نشاط ،واستخدام للجوارح والحواس والوظائف الحيوية ،من سـائر عناصر كياننا .وليس أعظم الناس نصيبا من الحيـاة من سلخ فيـها سنوات أطول ،بل من مارسها أكثر من سواه .وكم من امرئ آودعوه التراب فى سن المائة وهو ميت منذ مولده . وكان خيرا له لو ضمه القبر فى ميعة فتوته ،وقد قيض له أنيعيش حقا تلك السنوات القلائل .

مزاعم باطلة

حكمتنا فى مجموعها مزاعم حقيرة . وكل مواضعاتنا ضروب من الخنوع أو الانحصار أو الضيق .فالانسان المتمدين يولد ويعيش ويموت فى رق العبودية .حين يوثقونه بقماط ،وحين يموت يسمرون عليه تابوتا. ومادام على وجه الدنيا ، فهو مكبل بشتى النظم .

ويقال ان القابلات يزعمن وهن يدلكن رؤوس الأطفال على اثر ولادتهم أنهن يصلحن من أشكالها .ويطاق منهن هذا الكلام !كأنما رؤوسنا قد أساء فاطر الفطرة تكوينها .فنلتمس لها التهذيب من خارج على أيدى القابلات ، ومن داخل على أيدى الفلاسفة ! .

ان الطفل حين يولد يكون بحاجة الى مد أطرافه وتحريكها ،كى يطرح عنه ماركبه من الانقباض والتجمع الطويل فى أحشاء أمه ،فكيف نحول بينه وبين الحركة داخل القماط ؟ حتى رأسه لا نعفيه من ملبس . كأننا نخشى ألا يحس بغير ذلك أنه على وجه الدنيا .وهكذا تجد الأعضاء الداخلية للجسم الذى يتجه للنمو عوائق هائلة ضد الحركة التى تحتاج اليها .

ويبذل الطفل جهودا لاجدوى منها تستنفد قواه وتعطل نموه . فيكاد يندم على أنه ولد لأنه لايرى فائدة جناها من ولادته .

ان التضييق على أطراف الطفل يعوق دورة الدم ويعوق النمو ويغير من تكوينه وبنيته .ويلاحظ انه حيث لا يبالغ الناس فى هذه الاحتياطات يشبون أقوياء ذوى فراهة وتناسق .أما البلاد التى تشد الأطفال فى الأقمطة . فهى البلاد التى تغص بالحدب والعرج وما الى ذلك من العيوب

والعاهات .وخوفا من تشوه الجسم بالحركات الحرة ،يسـارعون الى تشويهه فعلا بهذا الضغط - فكأننا نعجز أطفالنا عن الحركة كى نحول بينهم وبين أذى محتمل من حركاتهم .

وهل يمكن أن يحتمل ضغط قاس كهـذا من غير أن يؤثر فى مزاج الطفل ؟ ان أول ما يحسه فى الدنيا هو الألم .لأنه يجد عوائق لحركته التى يحتاج اليها .فهو أسوأ حالا من سجين مكبل بالأغلال ،فيشتد هياجـه وصراخه .

أتقولون ان أول صوت يصدر عن الطفل هو البكاء ؟لاريب عندى فى هذا .فانكم تكرهونه على ذلك بما تكبلونه به من قيود .وتنزلونه به من عذاب .فلا يجد شيئا لديه حرا الا صوته .فكيف لايستخدمه ليجأر بالشكوى ؟انه يبكى من الأذى الذى تنالونه به .ولو أنكم منيتم بمثل ذلك لكنتم أسرع منه الى البكاء وأبرع !.

ولا أدرى من أين جاءت هذه العـادة الخرفة ؟ فالأمهـات يتنكرن لواجبهن الأول ويعزفن عن حضن أطفالهن ،فلا يكون مناص من اتخاذ الحواضن المأجورات ليكن أمهات لأطفال غرباء ،لايجـدن فى طبيعتهن باعثا فطريا نحوهم .ومن هنا فى الغالب نشأت فكرة القماط .فالطفل الحر يحتاج لرعاية مستمرة ،اما الطفل المكبل فلا يحتاج لرعاية ،ولا ضير على أحد أن يبكى كيف شاء له البكاء ! فما على الحاضنـة من بكائه شىء ،مادام لايهاض لهساق .وليشب بعد ذلك عليلا ما عاش ! وهكذا تصان أعضاؤه على حساب بنيته ! وهذا من خبث الحاضنات الأجيرات ومكرهن السيىء .

ترى هل تعلم الأمهات اللطيفات اللواتى تخلصن من أطفالهن فخلصن للهوهن فى المدينة ،أى معاملة يلقونها فى القرية وهم رهن أقمطتهم ؟ ان الحاضنة تعلق الطفل أحيانا من قماطه فى مسمار ،وتمضى بعد ذلك

لشأنها ،والطفل كالمصلوب لا يجأر بالصراخ و لايحير حراكا .فكل طفل على هذا الوضع يزرق وجهه ،وينقعر صدره بما يمنع عنه من الدماء ، وتصعد الدماء الى وجهه ،ولا يجد أنفاسا تساعده على الصراخ .فيظنه من يراه ساكنا ،أنه سعيد مطمئن .ولست أدرى كم ساعة يمكن أن يبقاها الطفل على هذا الحال قبل ان تزهق روحه .ولكنى لا أظنها تطول كثيرا. وتلك كما أعتقد احدى منافع القماط الكبرى !

ويزعمون أن الاطفال الطلقاء ربما اتخذوا أوضاعا تضر بهم ،وبتناسق أعضائهم . وذلك وهم من أسخف ما يعشش فى الأذهان ، لم يقم عليه من التجربة برهان .. فالطفل لا قوة عنده تكفى لالحاقه الأذى بنفسه من عنف حركاته .وان اتخذ وضعا سيئا ،نبهه الألم الى ذلك فارتدعنه.

لم يخطر أن نضع صغار الكلاب والقطط فى الاقمطة ،فهل أصابها من ذلك تشويه ؟ربما قيل أن الاطفال أثقل جثة ،ولكنهم كذلك أضعف من صغار الحيوانات .فمن أين لهم البأس الشديد للحركة المعطبة ؟ انهم لو تركوا على ظهورهم لماتوا على هذا الوضع كالسلحفاة لعجزهم عن التقلب على وجوههم .

* * *

وسيدات المجتمع يتخلين غالبا عن واجبهن الأساسى ، وهو ارضاع أطفالهن بأنفسهن .وواجبهن فى الأرضاع ليس موضع شك ،ولكن المسألة هل يستوى عند الطفل أن ترضعه أمه وأن ترضعه سواها .وهى مسألة يفصل فيها الاطباء ،بيد أنى أسلم بما يوافق أهواء النساء فيها ،وأعتقد أنه خير للطفل أن يرضع لبن أم صحيحة البنية ،من أن يرضع لبن أم مدللة ، اذا فرض أن هناك ما يخشى أن يلحقه منها أدهى مما ورثه من دمائها .

ولكن هل ينبغى أن ننظر الى المسألة من جانبها الجسدى فحسب ؟

وهل قصارى حاجة الطفل الى أمه أنها ثدي ؟ ان امرأة غيرها ،أو داية، قد تمنحه اللبن الذي تضن هي به عليه ، أما حنان الأم فلا يستعاض عنه. والمرأة التي تمنح ابن امرأة غيرها اللبن الذي تحرم منه طفلها أم مسيئة . فكيف يمكن أن تكون مرضعا صالحة ؟

انها قد تغدو مرضعا صالحة بمرور الوقت ،حين تحل العادة فيها محل الطبع ،ويتعرض الطفل للهلاك مائة مرة الى أن تشعر مرضعته نحوه بحنان الأمومة .

وهناك ضرر كبير ينشأ عن هذه المزية . فقد يحب الطفل مرضعته أكثر مما يحب أمه . ويحس أن ما يبديه لها من حنان منحة منه .أما تعلقه الطبيعي فيكون بتلك التي وجد عندها رعاية الأم .وكم في هذا من ألم للامهات ...

ويحاولون وضع حد لهذا الضرر بغرس الاحتقار للمرضعات في قلوب الأطفال ومعاملتهن معاملة الخادمات .وعندما تنتهي مهمتهن ،يؤخذ منهن الطفل ،أو تطرد المرضع ،وتمنع من رؤية الطفل بما تسام من سوء الاستقبال .وما هي الا سنوات قلائل حتى يكون قد نسي كل ما كان من أمرها .

والأم التي تفعل هذا تربي ابنها على جحود النعمة ،واحتقار من منحته الحياة يوما ما ،كما احتقر من أرضعته ثديها ...

ان لهذه المسألة أهمية أكثر مما يظن .فان أردت أن يلتزم كل انسان بواجباته الأولى ،فابدأ بالأمهات .وستعجب للتغير الذي ينجم عن ذلك. فهذا الحرمان من لبن الأم هو الأصل الذي نبعت منه جميع الشرور . اذ خمدت في القلوب جذوة الفطرة ،وقلت في البيوت نسمة الحيوية . ومنظر الرضعاء لم يعد يجتذب الأزواج ، فلا آباء ولا أمهات ولا أطفال ولا اخوة ولا أخوات منذ انحل رباط الأسرة . اذ كيف يتحابون وهم

لا يعرفون بعضهم بعضا لقلة الاقامة في البيت ؟ فحيثما يفتقر الناس الى البهجة في البيوت يذهبون لالتماسها في أمكنة سواها .

أما اذا أقبلت الأمهات على ارضاع الأطفال ، فما أحرى الأخلاق ان تصلح من تلقاء نفسها ،وتتقد العواطف الطبيعيـــة في القلوب ،ويزداد السكان في الدولة . فجاذبية الحياة البيتية هي أفضل ترياق للأخلاق السيئة ،وتمسي ضجة الأطفال التي يضيق بها البعض محببة ،ويزداد اعزاز الآباء والأمهات بمتانة الرباط الزوجي بينهم .ومتى ارتدت النساء أمهات ارتد الرجال سريعا آباء وأزواجا .

* * *

واذا لم تكن هناك أم ، فليس هناك طفل . فالواجبات بينهما متبادلة. وحيث تكون الاساءة من جانب يكون الاهمال من الجانب الآخر .فالطفل يجب أن يحب أمه قبل أن يعلم ان هذا واجب .وما لم يجد نداء الدم تأييدا بالتعود والرعاية ،سرعان ما يخفت في السنوات الأولى ،ويموت القلب قبل أن يولد . وهكذا نجد أنفسنا منذ المراحل الأولى وقد خرجنا على الطبيعة .

وهناك أمهات يبالغن في القيام بواجباتهن ،فيخرجن عن الطبيعة ولكن من الناحية المقابلة للأمهات المهملات .فالأم من هذا الطراز تتخذ من طفلها معبودا تنمي فيه الضعف كي تخفيه عنه . وتنشد اعفاءه من نواميس الطبيعة لتجنبه الألم ،وهي لاتدري أنها بتلك الشفقة تهيل على رأسه النكبات .اذ يظل ضعيفا ويشب ضعيفا .فهن يغمسن ابناءهن في الرخاوة بذلك التدليل فيحكمن عليهم بالعذاب المستمر حين يواجهون الحياة من غير جلد على المقاومة .

راقبوا الطبيعة وانظروا كيف تبين لكم السبيل .فانها تعمل على تمريس الأطفال بالأحداث والأشياء ،وتعلمهم منذ البداية كيف يكون الألم .

فالأسنان لا تنبت لهم الا بالحمى ،والسعال الطويل يكاد يخنقهم ، والديدان تعذبهم ،والخمائر الطفيلية تقسو عليهم وتعرضهم لكثير من الأخطار . ويكاد يكون عهد الطفولة الأول مرضا وخطرا متصلين . ونصف الأطفال الذين يولدون يهلكون قبل السنة الثامنة .ولكن متى مرت المحنة يكون الطفل قد اكتسب مناعة .

هذه هي سنة الطبيعة .فلماذا نخرج عليها ؟ألا ترون أنكم اذ تفكرون في تصحيحها تقوضون عملها ؟ ان التجربة تدل على أن الأطفال المرفهين عرضة للموت أكثر من غيرهم .فمرسوا أطفالكم بالمتاعب التي سيكون من الحتم عليهم احتمالها يوما ما .وقووا أجسامهم بالتعرض لأختلافات الفصول والأجواء والعناصر والجوع والعطش والتعب .وثقوا أن الطفل أكثر احتمالا للتغيرات من الرجل . فمفاصله أطوع وأشد مرونة . اما الرجل فليس كذلك .فمن الممكن اذن تقوية الطفل من غير أن تتعرض صحته أو حياته للخطر . وحتى ان وجد بعض الخطر فليس من الخير أن يردنا عما اعتزمناه .لأنه خطر لا مناص منه ما عاش الانسان .

ان الطفل تزداد قيمته بتقدمه في العمر . اذ يضيف الى قيمة شخصه قيمة الرعاية التي بذلت له .فمن الخير أن نسلحه ضد أخطار الشباب التي يتعرض لها ، وحياته أثمن وأجل ، بتعريضه لمخاطر يفيد منها قوة وهو في سن صغيرة قيمة حياته فيها أقل .فاذا كانت قيمة الحياة تزداد بالتقدم في العمر حتى السن التي يرجى فيها النفع ،فأى حماقة في تجنيبه بعض الآلام في الطفولة كي يضاعف له الألم في سن النضوج ! .

لقد كتب على الانسان أن يتعذب في جميع الأزمان .وسعيد من لم يعرف في طفولته الا آلام الجسد ، فما أهونها بجانب آلام أخرى ، فآلام الجسد قلما تدفعنا للتخلي عن الحياة .وانما الذي يدفعنا الى اليأس هو عذاب الروح .فأعظم الآلام حقا هو الذي يأتينا من قبل نفوسنا .

ان الطفل يبكى حين يولد . ويقضى طفولته الأولى فى البكاء .ونهزه أحيانا أو نترضاه كى يسكت . أو نتوعده أو نضربه كى يهدأ . أو نفعل ما يرضيه أو نطلب منه ما يرضينا ،أو نخضع لنزواته ،أو نخضعه لنزواتنا. ولا نتخذ لنا موقفا وسطا . فهو اما آمر واما مأمور .وبذا تكون أولى المعانى فى نفسه معنى التحكم أو معنى الاستعباد . فهو قبل أن يتعلم الكلام يأمر .وقبل أن يتعلم العمل يطيع .وأحيانا نعاقبه قبل أن يعرف فيما أخطأ ،بل وقبل أن يخطىء .

وهكذا نبذر فى قلبه الصغير منذ البداية بذور الشر ،ثم نملأ الدنيا بالشكوى من شره ! .

واجب الأب

ويقضي الطفل ست سنوات أو سبعا على هـذه الوتيرة بين أيدي النساء ،فريسة نزوتهن ونزوته ،وبعد أن يعلمنه علما لما ،انهو الا حشو ذاكرته بكلمات لا يفقه لها معنى ،أو بأشياء ليس فيها له نفع ،وبعد أن يختنق فيه الفطرة بميول مستحدثة فيه ،يلقين بهذا المخلوق المصطنع بين يدي مؤدب ،يتم فيه انماء بذور الاصطناع التي يجدها نابتة ،فيعلمه كل شيء ،فيما عدا معرفته لنفسه ،وحسن استخدامه لمواهبه ،وحسن الافادة من الحياة وتحصيل السعادة .

فلا عجب أن يشب هذا الطفل طاغية وعبدا في آن واحد ،حاويا للعلم ومجردا من الفهم معا ، واهن الجسم والروح على السواء ،ومتى ألقي به في خضم الدنيا كشفت عن سوآته ،عن خوره وغروره ورذائله ، فهـو عنوان مقيت لخساسة البشرية ومسخها .ولكن حاشا !فما هذا هـو البشر السوي . ان هذا الا بشر صنعته جهالتنا ،وما هكذا تسوي الفطرة البشر .

أفتريدون أن يحتفظ الطفل بصورته الفطرية ؟ احفظوها عليه اذن منذ قدومه الى هذه الدنيا .متى ولد ،الزميه أيتها الأم والزمه أيها الأب ولا تفارقيه مطلقا ،الى أن يستوي رجلا ! ولن يكون فلاحه الا من هذا الطريق .

وكما تكون المرضع أم الطفل الحقيقية ،يكون المؤدب أباه .فيجب أن يكون توافق بين قيام المرضع والمؤدب بمهمتهما ، سواء في الترتيب أو المنهج ،حين ينتقل الطفل من يدها الى يده .وأعتقد أن الطفل تكون تربيته

أفضل بمراحل بيد أقل الأباء تسامحا وثقافة ، مما هى بيد أبرع أساتذة العالمين .لأن الاهتمام أو الغيرة قد يغنى عن البراعة ،ما لاتغنيه البراعة عن الاهتمام والغيرة .

ولكنها الشواغل ،والمناصب ،والأعباء ،والواجبات ... آه ! أهى الواجبات ؟ ... لاشك أن أهونها شأنا واجب الأب نحو ولده !.

ولاشك أننا حين نطالع فى سير بلوترك كيف كان أغسطس وهو امبراطور الدنيا وعاهلها الأعظم ، يقوم على تعليم أحفاده بنفسه الكتابة والقراءة والسباحة ومبادىء العلوم ، وكيف كانوا يحفون بعرشه على الدوام ، لا نملك أنفسنا من ضحك الاشفاق من صغار الأقزام من أهل هذا الزمان وهم يظنون ما هم فيه من صغائر عذرا كافيا لهم فى اهمال تربية بنيهم بأنفسهم .

ولا عجب أن نرى رجلا ترفعت زوجته عن ارضاع ثمرة اقترانه بها ، وقد ترفع عن تربيته بنفسه .مع أنه ما من صورة تحرك القلوب وتأسرها كصورة الاسرة .ولكنها صورة ان نقص منها عنصر واحد ،فسدت كلها ولحقها التشويه .ومتى قعدت صحة المرأة بها عن ارضاع ابنها ، فلابد أن تحول شواغل الأب دون قيامه بواجب المربى . وهكذا يتفرق الأولاد بين المراضع ،والأديرة ،والمدارس ،يتلمسون فى غير المكان الطبيعى حبهم الطبيعى للبيت الأبوى ،أو بعبارة أصح ،يتعودون ألا يشعروا بارتباطهم بأى شيء ... ولا يكاد الاخوة والأخوات يعرف بعضهم بعضا ... وهذا لايمنع متى اجتمعوا فى حفل أن يتلطف بعضهم الى بعض فى تهذيب كامل ،لأنهم فى الواقع غرباء ، يسود فيما بينهم أدب الغرباء ...

ومتى ضاعت الألفة بين الوالدين ، امتنع على الأسرة أن تتيح للابناء عذوبة الحياة وحلاوتها ، فلا مناص من أن يلجأ المحرومون الى المباذل

والرذائل ليستعيضوا بلذاذتها عن تلك الحلاوة المفقودة . وكيف بالله تغيب الصلة بين هذا وذاك الا عن وجدان أغبى الأغبياء ؟ .

حين ينجب الأب أبناءه وينفق عليهم ليغذوهم ، فما يقوم بهذا الا بثلث واجبه نحوهم . لأنه مسئول أن يقدم لنوعه رجالا ، وأن يقدم لمجتمعه أعضاء اجتماعيين فيه ، وأن يقدم لدولته مواطنين . وأيما رجل قادر على الوفاء بهذا الدين الثلاثي وتقاعس عنه ، فهو مذنب ومقصر ، ولعله أن يكون أمعن في التقصير حين يفي ببعض منه دون سائره . وأيما رجل عجز عن النهوض بأعباء الأبوة حق النهوض ، لا حق له في أن يغـدو أبا . فما من خصاصة ، أو عمل ، أو جاه بشرى يمكن أن تعفيه من واجب اعالة بنيه وتنشئتهم بنفسه .

قد لا تصدقني أيها القارىء ، ولكنى نذير بين يدى ندم شديد لكل من به نسمة حياة ثم تخلى عن تلك الواجبات المقدسة (١) . ليـذرفن الدمع السخين على ما فرط فيه ، ولن يجد له من حسراته سلوانا .

ولكن ماذا يصنع الثرى ، رب الأسرة المشغول بأعماله الكثيرة ، حين تضطره الظروف — في اعتقاده — الى التخلى عن بنيه ؟ .

انه يستأجر عندئذ رجلا آخر ، ليؤدى عنه واجباته الابوية . أفتظن أنك مستطيع أن تستأجر لبنيك أبا بالمال . لعمرى ما استأجرت لهم الا خادما حين توهمت أنك أتيتهم بأستاذ ، وليجعلن من تلميذه نظيرا له في شمائل الخدام ! .

---

(١) ياله من حكم صارم ، يزداد مضمونه ايلاما حين نتذكر ما كتبه روسوعن نفسه في اعترافاته ، من ايداعه بنيه ملاجىء اللقطاء !

تخير المؤدب والتلميذ

ينبغي حين يتخير الأب لابنه مؤدبا يقوم عنه بتنشئة ولده ، ان يتحرى فى ذلك المؤدب تلك المزايا التى تتيح له النهوض حق النهوض بتلك التبعة الهائلة ،فى نزاهة قصد وعلو همة وكفاية قلب وعقل(١) ...

ولبيان تلك الصفات ،وطريقة التأديب والتربية ،رأيت أن أتخذ لى تلميذا وهميا ، وأن أزعم لنفسى من السن ،ومن الصحة ،ومن المعرفة، وجميع المزايا الأخرى التى يقتضيها القيام على تربيته ،وارشاده وتدبير أمره منذ مولده الى أن يستوى رجلا تام الرجولة ،لاحاجة به الى مرشد له غير ذاته .

وهذا المنهج يبدو مجـديا مع مؤلف لا يأمن جانب الزلل ، حتى لايضل فى آرائه وأحلامه .وسيكون واضحا للمؤلف وللقارىء معا هل يتمشى فى مذهبه أطوار الطفولة النامية والاتجاه الطبيعى للقلب البشرى أم لا .

وهاكم ما حاولت أن أقوم به فى هذا السبيل ، على ما فيه من صعاب وعراقيل .وحتى لايتضخم الكتاب فى غير طائل ،اكتفيت بوضع المبادىء التى لايمارى كل انسان فى صدقها وحقيقتها .أما الأسس التى قد تحتاج الى برهان ،فقد طبقتها تفصيلا على تلميذى اميل حتى يتضح سبيل العمل بها من غضون تلك التفاصيل .أو هذا على الأقل ما أخذت نفسى به من منهج ،وللقارىء الكلمة بعد هذا فى مدى توفيقى .

---

(١) وهى مزايا لم يكن روسو حائزا لها بدليل من اعترافاته . فمن لم يصلح أبا لبنيه وتخلى عنهم للملاجىء ، لا يصلح أبا لأبناء سواه من الناس

ولئن كنت قد أقللت من الكلام عن اميل فيما سبق من صفحات ، فما كان ذلك الا لأن مبادئى الأولية عن التربيــة على مناقضتها للمبــادىء السائدة ،تعتبر من قبيل البديهيات التى يتعذر على أى عاقل أن يرفض التسليم بها . ولكن كلما أوغلت في الكتابة ، سيتبين أن تلميذى الذى يجد توجيها مخالفا لتوجيه أبنائكم ، ليس طفلا عاديا ، ولابد له من نظام خاص به .وبذلك يكثر ظهــوره على المسرح ،ولا أفارقه البتة الى أن يستغنى عنه كل الغناء ..

وسوف لا أتحدث هنا عن صفات المربى الفاضل ، فسأفترض فى نفسى جميع تلك المزايا ،ومن يطالع هذا الكتاب سيجد أنى سخوت على نفسى فى هذه المواهب أيما سخاء .

وأكتفى بأن أشير هنا الى أمر مخالف لما درج عليه الناس ،وهــو أن المربى الذى يتعهد طفلا ينبغى أن يكون شابا ،بل وأشد ما يكون الرجل الحكيم شبابا ،ذلك أنى أريد منه أن يكون هو نفسه طفلا ،لو أن الى ذلك من سبيل ، وأن يكون فى وسعه مصاحبة تلميذه ، وكسب ثقته بمشاركته فى لهوه ومسراته . فليس بين الطفولة والسن الناضجة من صلة مشتركة يمكن أن تكون أساسا لرباط وثيق ، على ما بين العمرين من بون بعيد . فقد يعمــد الأطفال أحيانا للتزلف الى المسنين ، ولكنهم لا يحبونهم بمعنى الكلمة مطلقا .

وقد يقال ان المربى ينبغى أن تكون له خبرة سابقة بالتربية ،مرة واحدة على الأقل .وهذا كثير .فالشخص الواحد لا يستطيع أن يقوم الا بتربية واحدة فى حياته . واذا قيل انه لابد لنجاحه فى التربية أن يكون توليه التربية تاليا لقيامه بها مرة أولى على سبيل التمرين ،فبأى حق نعهد اليه بالتربية فى المرة الأولى ونحن نعلم سلفا أنه لم يصلح لها بعد ؟

أجل ان المران أو الخبرة معوان على الاتقان .ولكن ذلك غير مستطاع ،

لأن من قام بذلك العبء على أتم وجه ،وبغاية الهمة والاخلاص ،وعانى متاعبه الجمة ، لن يقدم على تلك الهمة بعد ذلك . واما ان كان لم يتصب فى المرة الأولى لأنه لم يقم بها على ما يرام ،فتلك سابقة سيئة لا تزكيه لتولى تلك المهمة ..

وما أبعد الشقة بين من يتعهد فتى أربع سنوات ،ومن يرشده ويتولاه خمسة عشر عاما .فانكم تسلمون الى المربى أولادكم بعد أن تكونوا فعلا ،أما أنا فأريد للطفل أن يكون له مرب مستعد له من قبل أن يولد!.

انمربيكم يستطيع أن يستبدل تلميذا بتلميذ كل بضع سنوات ، اما المربى الذى أعنيه فلن يتسع عمره الا لتلميذ واحد . فأنا لا أعرف تباينا فى مراحل التعليم والتأديب ،لأنى لا أعرف الا علما واحدا ينبغى أن يلقنه الأطفال ،وذلك هو علم واجبات الانسان.وانه لعلم واحد لايقبل القسمة ولا يمكن أن يتجزأ .ولهذا أفضل أن أسمى المعلم أو المؤدب مربيا ، لأنه سيكون معنيا بارشاده أكثر من عنايته بتلقينه العلم ،ولا ينبغى له أن يقدم اليه الوصايا والنواهى ،بل ينبغى أن يمهد له ويوجهه الى الكشف عنها بنفسه .

* * *

ولئن كان من الواجب اختيار المربى بكل هذا التدقيق ،فمن العدل اذن أن تترك للمربى اختيار تلميذه ،ولاسيما ونحن بصدد اختيار قدوة تحتذى . وهذا الاختيار لا ينبغى أن يقع بناء على نبوغ التلميذ أو خلقه فنحن لن نعرف شيئا من أحواله هذه الا فى نهاية المرحلة التربوية ، فى حين أننا سنختاره قبل أن يولد .

ولما كنا فى غير حاجة الى تربية التلاميذ الا العاديين جدا منهم .فاذا أتيح لى أن أختار ،فسوف أختار طفلا متوسط الذكاء .وسأفترض أن تلميذى اميل هكذا .فتعليم العاديين هو الذى يصلح مثلا يحتذى فى

تعليم نظرائهم .اما من عداهم فقادرون على تربية أنفسهم مهما يكن من شيء .

والمواطن ليس غفلا من الأهمية بالنسبة لثقافة النـاس . ذلك أنهم لايكونون خير ما فى وسعهم أن يصيروا اليه الا فى الأجواء المعتدلة .اما فى الأجواء المتطرفة فالتأثير المناخى على التعليم بين السوء .بيد أن المرء لا يغرس فى تربة اقليم كى يظل مقيما به لا يغادره كالشجرة . وما دام الانسان عرضة للتنقل بين الأقاليم ، ينبغى ألا ننسى أن من يرحل من طرف الى الطرف المقابل ،مضطر أن يقطع ضعف المسافة التى يقطعها من يرحل الى غايته عينها من منتصف البعد بين الطرفين .

ولهذا نجد أن ابن الاقليم المعتدل حين يرحل الى الأقاليم المتطرفة الأجواء ، يتمتع بمزية واضحة . لأنه وان تعرض للظروف التى يتعرض لها القادم من الجو المضاد ، الا أنه لايتكلف من الأثر الا نصفه ،بسبب تكوينه الأصلى فى بيئة وسطى .

ويبدو لى أيضا أن تكوين المخ فى الاقاليم المتطرفة أقل كمالا منه فى الأقاليم المعتدلة .فالزنوج والأسكيمو أقل توقدا من الأوربيين .فاذا فرضنا انى أردت لتلميذى أن يكون صالحا لسكنى الأرض كافة ،فانى أختاره من بين أهالى المنطقة المعتدلة ، من فرنسا مثلا ، فذلك أدنى لغرضى من أى مكان سواه .

وتلاحظ أن الناس فى الشمال يستهلكون الكثير ،وأرضهم شحيحة. وان أهل الجنوب يستهلكون القليل ،وأرضهم سخية .ومن هنا يتولد فرق جديد ،يجعل أهالى البقعة الأولى ذوى نشاط وجد فى العمـل ، ويجعل أهل البقعة الأخرى ذوى تأمل. ثم ان المجتمع يحدث فروقا أخرى، فيقدم الينا فى كل موضع صورة للفروق بين الفقراء والأغنياء . فالفقراء يسكنون حيث الأرض الشحيحة ،والأغنياء يسكنون الأرض الخصبة .

وليس الفقير بحاجة الى تربية .فظروف طبقتــه تفرض عليــه تربيتها فرضا .ولن يتيسر له سواها .وعلى العكس من ذلك ،نجد التربية التى تفرضها على الثرى طبقته الاجتماعية ،تربية لا تلائمه أصلا ، لا من حيث هو فى ذاته ، ولا من حيث مصلحة المجتمع (١) .

ومهما يكن من شيء ،فالتربية الطبيعية ينبغى أن تعد الرجل كي يكون لائقا للحياة في جميع الظروف البشرية .فمــا يستقيم أن نربى الفقير تربية من سيعيش فى الثراء ،ولا أن نربى الثرى تربية من سيعيش فى الفاقة .ولكن تربية الفقير ليصلح لحياة اليسار قد تكون أحمق من تربية الثرى ليصلح لحياة الفاقة ،لاننا اذا نظرنا الى الأحصاء ،وجدنا من يثرون بعد فقر أقل عددا بكثير ممن يفلسون بعد غنى .

وما دام الفقير يربى نفسه للرجولة التى تليق بطبقته من تلقاء نفسه ، فمن الأوفق اذن أن نختار تلميذى من الثراة ، لنخلق رجلا لو فقد عناية المربى لما صار ذلك من تلقاء نفسه .

ولا يسوؤنى أن يكون اميل ذا نسب وحسب ، فانى بذلك أكون قد أنقذت من براثن الأباطيل الموروثة فريسة بريئة ! .

وليكن اميل يتيما .اذ ليس يعنينى أن يكون له أب وأم .وبما انى سأتحمل جميع أعبائهما وواجباتهما .فسأرث اذن جميع حقوقهما .انه طبعا يجب أن يكرم أباه وأمه ،ولكن لا ينبغى أن تكون طاعتــه لأحد سواى من الناس .فهذا هو شرطى الأول لقبول رعايته ،أو لعله شرطى الأوحد .

وينبغى أن أضيف الى ذلك شرطا آخر ، ليس فى الحقيقة الا نتيجة أو تذييلا للشرط السابق . وهذا الشرط هو ألا يفرق بيننا الا برضانا .

(١) لقد نسخت فكرة التعليم العام فى الدول الحديثة هذه النظرة الطبقية الى التربية .

وهو شرط جوهرى ،لأنى أريد أن ينظر كل من التلميذ والمربى الى الآخر على أنهما لا يتفرقان ولا يتجزآن .وأن مصير عمريهما ونظامهما شيء واحد مشترك بينهما .فانهما متى توسما على البعد فراقهما .أو استشفا الوقت الذى يمسى فيه كل منهما غريبا عن صاحبه ،فستقع الغربة والانفصال بينهما توا .فالألفةوالتباعد كلاهما احساس .ولاتصلح الألفة الا على نية التخليد .أما اذا دخل الفراق فى الحساب فسيأخذ كل منهما فى وضع خطته الخاصة للمستقبل .وسيكون وقت اجتماعهما معا غير كامل الصفاء .

ان التلميذ لا ينظر الى الأستاذ الا على انه آية تشى بطفولته . والأستاذ لا ينظر الى التلميذ الا على اعتبار أنه عبء ثقيل يتحرق شوقا الى الخلاص منه .فكأن كلا منهما يتلهف على اللحظة التى يتخلص فيها من صاحبه .وما دام الرباط بينهما غير حقيقى ،فلابد أن يبدى الأستاذ تقصيرا فى الهمة .وأن يبدى التلميذ تقصيرا فى الانقياد .

اما اذا نظر كل منهما الى الآخر وفى يقينه أنهما سيمضيان عمريهما معا ،فسيكون من المهم لديهما أن يتحابا .وهذا وحده سيجعل كلا منهما عزيزا على الآخر .ولا يتضرج التلميذ خجلا من الانقياد فى طفولته للصديق الذى سيحظى به فى كبره أو يفاعته . والمربى سيهتم بتعهد التلميذ ولا يضن بخدمات سوف يجنى هو ثمراتها حين يكبر تلميذه . فكل ما يمنحه لتلميذه بمثابة مال يوظفه ليجنى ربحه ويأكل من غلته فى أواخر أيامه أو شيخوخته .

ويفترض هذا الكتاب مقدما أن الولادة كانت يسيرة ، وأن الطفل حسن التكوين سليم فى بنيته ذو قوة .فالوالد لا يملك اختيار ولده ، وليس له أن يفاضل بين أعضاء الأسرة التى افاءها الله عليه . فأبناؤه جميعا سواسية لديه ،ينبغى أن يعدل بينهم فى الرعاية وفى شمولهم ببره

وحنانه ،لا فرق عنده بين وسيم وقميء ،وبين هزيل وشديد .فالزواج عقد تدخل الطبيعة طرفا فيه كالزوجين تماما .وكل طفل من أطفال الرجل وديعة فى يده يؤدى عنها حسابا الى اليد التى منحته اياها ، وهى يد الطبيعة الخالقة .

أما ذلك الرجل الذى يفرض على نفسه واجبا لم تلقه على عاتقه الطبيعة ،فينبغى أن يتثبت مقدما من الوسائل التى سيتمكن عن طريقها من النهوض بتلك التبعة .والا فانه يضع نفسه فىموضع المقصر ، حتى فيما لم يكن فىأستطاعته أن يعمل فيه شيئا .

ان الذى يقبل رعاية تلميذ ذى عاهة أو هزيل انما فى الواقع يغير مهنته ،فبعد أن كان مربيا يمسى ممرضا .وهو الخاسر بالعناية بحياة لا جدوى منها ، يخسر على الأقل الوقت الذى ينفقه فى زيادة قيمة حياة مقضى عليها .ويعرض نفسه لأن يرى أما منكودة تقرعه ذات يوم وتحمله ذنب موت ابن كان ينبغى أن يصون لها حياته طويلا .

وما كنت لأتعهد بتلميذ عليل واه ، حتى وان عمر الى سن الثمانين . فما بى حاجة مطلقا الىتلميذ لا منفعة منه على الدوام لنفسه ولا لغيره ، وكل همه منصرف الى الاحتياط لحفظ حياته ،لأن جسمهيعوق دائما بل وينقض تربية روحه . فما جدوى أن أغدق عليه عنايتى هباء ، اللهم الا أن أضاعف الخسارة التى منى بها المجتمع ، بأن أجعل ذلك المجتمعيخسر رجلين لا واحدا ، فتضيع عليه حياة المربى والتلميذ معا ، كما تضيع على المجتمع جهود زارع يقضى حياته فى زراعة صخرة صلدة ،فلا ربح المجتمع الصخرةولا ربح الزارع ؟ .

ولا مانع عندى أن يتكفل سواى برعاية هذا المريض ،بل انى أعترف له بالرحمة .ولكن مواهبى أنا لم تخلق لتهدر فى خدمة من لايليق بها. فلا أستطيع مطلقا أن أعلم فن الحياةلامرىء لايفكر الا فىتجنبالموت!.

يجب أن يكون الجسم قـويا كى يحسن طاعة الروح .فان الخـادم الصالح يجب أن يكون متين البنية ،وانى أعلم أن التطرف يهيج الشهوات. وانه ينهك الجسم على طول المدى . وان التقشف والصيام يؤديان الى النتيجة بعينها ولكن من الطريق المضاد لطريق الشهوات .وكلما كان الجسم ضعيفا اشتدت سيطرته.وكلما كان قويا عظمت طاعته .والشهوات الحسية كلها قائمة فى أجسـام المخنثين - ويزدادون هياجا بعجزهم عن ارضاء تلك الشهوات .

الجسم الهـزيل يضعف الروح .ومن هنـا يأتى سلطان الطب الذى أراه أشد ايذاء للناس من جميع الأمراض التى يزعم شـفاءها . وأنا شخصيا لا أعرف من أى مرض يشفينا الأطباء .ولكنى أعرف جيـدا أنهم يصيبوننا بأمراض جد وبيلة ،منها الجبن والسذاجة والغفلة والفزع من الموت .فلئن صح أنهم يشـفون الجسم فانهم اذن يقتلون الشجاعة والاقدام . وما ضير أن يسيروا جثثا كانت هامدة ؟ انما نحن بحاجة الى رجال ،ولست أرى الرجال يخرجون من أيدى الأطباء ! .

لقد أصبح الطب موجة شائعة بيننا .وحق له أن يكون كذلك .فهـو ملهاة أهل الكسل والبطالة الذين لا يعـرفون ماذا يفعلون بأوقاتهم ، فينفقونها فى حفظ أجسامهم وصيانتها .ولو أن هؤلاء ابتلاهم القـدر فولدوا خالدين لا ينالهم الموت ،لكانوا أشقى أهل الأرض .فان حياتهم حين لا يخشون عليها الفقد لن تكون فى نظرهم ذات قيمة .ولهذا يحتاج هؤلاء الناس الى الأطباء كى يتوعدوهم ويهددوهم بالموت ،ويمنحوهم فى كل يوم اللذة الوحيدة التى يطربون لها ، وهى لذة الشـعور بأنهم لن يموتوا فى ذلك اليوم .

وليس فى نيتى أن أطيل الكلام هنا عن بطلان الطب وزيفه .وانمـا مرادى أن أنظر اليه من الجانب الأدبى والأخلاقى .ولا أستطيع أن أغالب

اعتقادي بأن الناس يرون فى أساليب الطب ما يرونه من السفسطة فى مسألة البحث عن الحقيقة. فهم يزعمون دائما أن المريض يشفى بالعلاج الطبي، كما يزعمون أننا نجد الحقيقة بالبحث عنها. ولا يقدرون أنهم ينبغي أن يوازنوا بين فضل الطبيب فى شفاء مريض عالجه، وبين وفاة مائة مريض قتلهم بطبه. كما ينبغي أن يوازنوا بين منفعة الحقيقة الواحدة التي يكتشفونها، وبين باطل الاخطاء الكثيرة التي تجرى فى الوقت عينه.

ان العلم الذي يثقف والطب الذي يعالج شيئان جميلان بغير شك. ولكن العلم الذي يضل، والطب الذي يقتل، شيئان قبيحان بغير شك كذلك. فينبغي أن نتعلم التمييز بين الطيب والخبيث. وهذه هي عقدة المسألة. فلو عرفنا كيف نتجاهل الحقيقة، لما أمكن أن نغدو ضحية الأكاذيب. ولو أننا عرفنا كيف نأبى الشفاء الذي يعارض الطبيعة، لما أمكن أن نموت بيد الطبيب. واني أوصى بهذين الأمرين الحكيمين، فان جدواهما كبيرة اذا اتبعناهما. وان كنت لا أمارى فى أن الطب قد يكون نافعا لبعض الناس. ولكنى أعتقد أنه ضار بالنوع البشرى بصفة عامة.

وقد يقال لي ما قيل مرارا، ان الخطأ من الطبيب، أما الطب فى ذاته فلا عيب فيه. مرحى اذن! مرحبا بالطب ان أتى اذن بغير الطبيب! فانهما أن جاءا معا فالخوف أكبر، الخوف من أخطاء الفنان، أكثر بكثير من الأمل المعقود على لوذعية الفن!.

ان هذا الفن الخادع الذي جعل لأمراض النفوس أكثر مما جعل لأمراض الأجسام، لا خير فيه لهذه ولا لتلك. فهو لا يشفينا من أمراضنا بقدر مايشيع فى نفوسنا الذعر. ولا يرغم الموت على التراجع بقدر مايجعله محسوسا قبل الأوان. ويبلى الحياة بدلا من أن يطيلها. وحتى حين يطيلها، فانما يكون ذلك على حساب النوع. اذ أنه يفصلنا عن المجتمع

بعنايته التي يفرضها علينا .ويمنعنا من القيام بواجباتنا بسبب الفـزع الذي يثبته فينا .فلا شيء يخيفنا من المخاطر مثل معرفتنا بها .ومن يعتقد انه مستعص على الجروح لن يخشى شيئا . فحيثما جعل الشاعر أخيلا محصنا ضد الهلاك نزع عنه كل قيمة وفضل . فكل انسان لو وجد فى مكانه لكان أخيلا بلا زيادة ولا نقصان ؟ .

أتريد أن تعثر على رجال ذوى شـجاعة حقيقية ؟ التمسهم اذن فى المواطن التي ليس فيها أطباء .حيث يجهل الناس عواقب الأمراض .وحيث لايفكرون مطلقا فى الموت ، فالانسان يعرف بفطرته كيف يتجلد ويتألم بثبات وكيف يموت بسـلام . وانما الأطباء بوصفاتهم ، والفلاسـفة بوصاياهم ، والكهان بمواعظهم ، هم الذين يوهنون من قلبه ويفسدون أهبته الطبيعية لملاقاة الموت .

أعطونى اذن تلميذا لا حاجة به الى هؤلاء النفر الثلاثة ،من أطبـاء وفلاسفة وكهنة ،والا فلا أرب لى فيه !فلست أريد أن يقـوم النـاس بافساد جهودى .بل أريد أن أربيه وحدى ،أو لا يكون لى به شأن . فهذا هو الحكيم لوك ، الذى قضى جانبا من عمره فى دراسة الطب ، يوصى بحرارة ألا نعطى الأطفال العقاقير ،لا على سبيل الوقاية ولا عند شعورهم بوعكات خفيفة .أما أنا فأمضى الى أبعد من ذلك المدى وأعلن وقد امتنعت دائما عن استدعاء طبيب لعلاجى ، انى لن أستدعى بتاتا أى طبيب لعلاج اميل ، اللهم الا اذا باتت حياته فى خطر ماحق . اذ لن يكون فى وسع الطبيب عندئذ أن يؤذيه بما هو شر من الموت الذى هو مشف عليـه ! .

وانى مقدر أن الطبيب سوف لا يحجم عن استغلال هذا الارجاء . فان مات الطفل قال اننا دعوناه بعد فوات الأوان .وان نجـا ،اختص نفسه بفضل انقاذه .ليكن ذلك اذن ،وليكتب للطبيب النصر فى تلك

الحالة !ولكن ينبغى مهما كان من شيء الا يدعى الطبيـــب الى فراش الطفل الا فى الرمق الأخير ! .

وعلى الطفل اذا لم يعرف كيف يشفى نفسه أن يتعلم كيف يمرض ، فهذا الفن عوض صالح عن ذاك ،وكثيرا ما يكون أبعد نجاحا منه .فان فن المرض هو فن الطبيعة . فحيثما يمرض الحيوان يتعذب ويتألم فى صمت ،ويخلد الى العــزلة .فلا نرى حيـــوانات عليلة قدر من نراهم عليلين من الرجال .

وكم من أناس قتلهم نفاد الصبر والخوف والقلق والعقاقير ،وكانت أمراضهم حرية أن تبقى عليهم لو ترك للزمن وحده مئونة علاجهم !

وقد يقال لى أن الحيوانات تعيش على وفاق مع الطبيعـــة أكثر من البشر ، ولهذا كانت أقل تعرضا للأمراض منا . ليكن ذلك ! هـــذا الأسلوب من الحياة هو على وجه التحديد ما أود أن أحمل عليه تلميذى. كى يغنم منه ما يغنم الحيوان .

ان الجانب الوحيد المجدى من علم الطب هو علم الصحة .بيد أن علم الصحة ،فضيلة أكثر منه علما .فالاعتدال والعمل هما الطبيـــان الأوحدان الحقيقيان للانسان .فالعمل يشحذ شهيته ،والاعتدال يعصمه من الافراط فيـــها .

وكى نعرف أى الأنظمة أصلح للحياة والصحة ،يجب أن نعرف ماهو النظام الذى يتبعه أصح الشعوب أبدانا وأقواهم أجساما وأطولهم أعمارا . فان اتضح من المشاهدات العامة أن استخدام الطب لايتيح للبشر صحة أمتن ولا حياة أطول ،ترتب على هذا أن فن الطب ليس له نفع .بل ترتب عليه أنه ضار ،لأنه يستنفد الوقت والرجال والمواد فيما هو باطل وهباء.

ولست أعنى الوقت الذى ينفق فى محاولة الابقاء على حياة ماضاعت الا بالتجائها اليه فحسب ،بل وأعنى كذلك الوقت الذى ينفق فى تعذيبنا،

والوقت الذى ينفق فى تعليم الطبيب فنا لاخير فى استخدامه .فالشخص الذى يعيش عشرة أعوام بغير طبيب ،انما يعيش فى الواقع لنفسه وللناس آكثر ممن يعيش ثلاثين عاما فريسة الأطباء .وانى وقد جربت الحالتين ، أجد من حقى أن أخوض فى هذا الموضوع وأرتب عليه النتائج أكثر من أى انسان .

هذه اذن هى الاسباب التى من أجلها لا أريد الا تلميذا قويا صحيحا. وهذه هى المبادىء التى سأتبعها فى الابقاء على صحته وقوته .وليس فى نيتى أن أطيل الوقفة للبرهنة على جدوى الأعمال اليدوية والتمرينات البدنية لتقوية الروح المعنوية واعتدال المزاج والصحة .فذلك مما لا يمارى فيه أحد .فان الأمثلة التى لدينا عن أطول الناس أعمارا نجدها من بين من أكثروا من الرياضة وأقبلوا على التعب والعمل . فلن أزيد الأمر اسهابا ، لأننى سأعيره اهتمامى بالضرورة عند الكلام عن التطبيق، ويكفينى هنا الاشارة الى المبدأ الذى سوف أطبقه عمليا .

تخيير المرضع

وعندما تبدأ حياتنا ،تبدأ معها احتياجاتنا . ولذا يجب أن تكون للطفل مرضع منذ ولادته . فان قامت أمه بواجبها كان خيرا ، وقدمت اليها تعليماتى كتابة .على أمل أن تتبعها بأمانة حرصا على مصلحة طفلها واحتراما للشخص الذى ستعهد اليه قريبا بمثل ذلك الكنز الثمين .

أما اذا لزم اختيار مرضع غريبة ، فيجب تخيرها بعناية . وليس هذا بيسير .فمن نكد الدنيا على الأغنياء أن يتعرضوا للسلب من كل صوب. فالثروة هى التى تفسد الناس .والثراة هم أول من يشعر بعيوب الأداة الوحيدة التى بين أيديهم .فكل ما يقدم للأغنياء من أعمال يدخله الغش، الا ما يعملونه بأنفسهم ،وذلك قليل جدا يقرب من العدم .

وحين يحتاج الغنى الى مرضع مثلا ، يترك اختيارها للطبيب . فماذا يحدث ؟ ان أفضل مرضع عندئذ ستكون أقدر الجميع على دفع أكبر رشوة للطبيب !ولهذا سوف لا أستشير الطبيب عند اختيار مرضع اميل بل سأختارها بنفسى . وسيكون رائدى فى ذلك غيرتى على الطفل لا طمعى ! .

وأول ما أفكر فيه هو عمر اللبن ونوعه . فأوائل لبن الأم يكون أشبه بالماء .لأن الطبيعة تقصد به أن يكون غسيلا لأمعاء المولود . ورويدا رويدا تزداد كثافة اللبن وقد أصبح الطفل أقدر على هضمه ، فليس عبثا تغيير الطبيعة للبن فى آناث الحيوانات على حسب عمر المولود .

يحتاج المولود اذن الى مرضع قريبة عهد بالأمومة .وتلك صعوبة لا يتعذر التغلب عليها .ويجب أن تكون المرضع أيضا جيدة الصحة

حسنة المزاج هادئة . فان العنف والانفعالات والكدر كلها تفسد اللبن.

واذا قصرنا اهتمامنا على الجسم ،لم نحقق الا نصف هدفنا .فقد يكون اللبن جيدا والمرضع سيئة . فحسن الطبع ضروري كحسن التكوين . فان المرضع مطالبة بأن ترعى الوليد ليلا ونهارا كما هي مطالبة بارضاعه .ولابد لذلك من صبر وأمانة وحنان ونظافة .فان كانت مهملة ساءت حالة الطفل وهو عاجز عن دفع الأذى عن نفسه وعاجز عن الشكوى .والأشرار لا يصلحون لأى عمل مهما كانت الاحوال .

وتزداد أهمية اختيار المرضع متى علمنا أن الوليد سيكون موكولا اليها كلية فى مدة الرضاعة . كما سيوكل الى المربى كلية بعد ذلك . وقد كانت هذه عادة الأقدمين ،أولئك الذين لم يحسنوا الكلام كما نحسنه ،ولكنهم كانوا يحسنون العمل كما لانحسنه .وكانت المرضع عندهم لا تفارق رضيعتها الفتاة . ولهذا نجد فى تمثيلياتهم المرضع تقوم دائما بدور موضع سر البطلة . والطفل الذى تتداوله أيد كثيرة حرى أن تسوء نشأته .

وينبغى أن تحظى المرضع فى معيشتها بمزيد من وسائل الراحة ، وأن تتناول من الأغذية مايمدها بمزيد من العافية .ولكن لابحيث أن تغير أسلوب حياتها كل التغيير .فان التغيير الكلى المفاجىء ،ولو الى ما هو أحسن ،ذو أثر خطير على الصحة .وما دام أسلوب معيشتها الأول كفل لها الصحة والعافية ،ففيم تغييره اذن ؟ .

ان الفلاحات يقل فى طعامهن اللحم وتكثر الخضر .على خلاف نساء المدينة .ويبدو أن هذا النظام النباتى أجدى عليهن وعلى أطفالهن .أو على الأقل جدواه عليهم أكثر من ضرره . وحينما تكفل الفلاحات رضيعا من أهل المدينة ،تقدم اليهن أطباق اللحوم ،على اعتقاد أن اللحم يزيدهن عافية ويمدهن بلبن غزير .ولست أرى هذا الرأى مطلقا .بل انى على

ضوء تجربتى أعتقد أن الأطفال فى هذه الحالة يشبون معرضين للاصابة بالديدان أكثر من سواهم ،ومعرضين للمغص أيضا .

ولا غرابة فى هذا ،مادامت المادة الحيوانية التى فى اللحم حينما تتعفن تحفل بالديدان .وليس هذا ما يحدث للمادة النباتية .واللبن وان كان نتاجا حيوانيا ، الا أنه مادة نباتية كما يدل على ذلك تحليله ، وهــذا طبيعى لأن النساء يأكلن الخبز والخضر ومستخرجات الألبان . وكذلك اناث الكلاب والقطط .بل ان اناث الذئاب تأكل الأعشاب .وهى كلها مصادر نباتية لألبانهن .

ولبن الأناث آكلة الأعشاب ألطف وأطيب مذاقا من لبن الأناث آكلة اللحوم .لأن اللبن فى هــذه الحالة يتكون من عناصر تجانس طبيعتــه النباتية ،فيكون أقل عرضة للتعفن .وأما من حيث الكمية فمن المعلوم أن النشويات تنتج من الدم أكثر من اللحم.فلابد أنها كذلك مدرة للبن .وأعتقد أن الطفل الذى لا تعجل فطامه . واذا فطمناه فعلى أطعمة نباتية .وكانت مرضعه تتغذى بأطعمة نباتية ، لا يمكن أن يصاب بديدان الأحشاء (١).

ومن الجائز أن الأطعمة النباتية تدر لبنا أسرع الى التحمض . ولكنى بعيد كل البعد عن الاعتقاد بأن اللبن الحامض ضار بالصحة من حيث هو غذاء .فهناك شعوب كثيرة لا تعرف فى طعامها الا اللبن الحامض ، وهى راضية عنه . فاللبن الرائب والمخيض طعامان جيدان ، ومن الحماقة أن نخشاهما .لاسيما اذا علمنا أن كل لبن يصيبه التحمض فى المعدة حتما . وبتحمضه يتحول الى غذاء كامل لأطفالنا ولصغار الحيوانات . وما لم يتحمض فى المعدة لا ينتفع به الجسم .فكل من يشرب لبنا انمــا يأكل فى الواقع جبنا .فمن وظيفة المعدة بحكم تكوينها أن تجبن اللبن. ومن معدة العجل تستخرج المنفحة .

---

(١) هذه المعلومات الكيماوية متخلفة عن العصر الحاضر كثيرا فلا حيلة فى غرابتها .

فالأفضل فى نظرى الا نغير شيئا من الطعام المعتاد للمرضع .وكل ما هنالك أن نقدم لها كميات آكبر منه ،وأصنافا مختارة من نفس نوعه .
فليس الطعام نفسه هو الذى يؤذى أو يهزل ،بل طريقة صنعه هى التى تؤذى .فأصلحوا أنظمة مطابخكم ،وأقلعوا عن القلى والتخمير .
ولا تضعوا على النار زبدا ولا ملحا ولا ألبانا . ولا تملحوا الخضر المطبوخة فى الماء الا عندما توضع ساخنة على المائدة . فان الطعام القفار الذى لا أدم فيه ولا دهن لا يرفع حرارة المرضع ،ويمدها بلبن وفير غليظ القوام .فمن التناقض أن يظن الانسان أن الطعام الحيوانى خير للمرضع ،مع أن الطعام النباتى ثابت انه أفضل للطفل .

والهواء الطلق النقى عظيم الفائدة فى تكوين بنية الطفل ولاسيما فى السنوات الأولى ،فهو يدخل من جميع مسام جلده الغض ويؤثر تأثيرا قويا فى جسمه ،تأثيرا لا يزول ،ولذا لا أقر من يأخذون امرأة من القرية ليحبسوها فى حجرة بالمدينة ومعها من ترضعه .بل الأفضل عندى أن أرسله الى الريف حيث يستنشق الهواء النقى بدلا من هواء المدينة الفاسد .

وأوثر أن يعيش الطفل فى ظروف المرضع الطبيعية ،يسكن معها فى كوخها حيث يلحق بهما مربيه .ويجمل بالقارىء أن يتذكر أن هذا المربى ليس خادما مأجورا بل هو صديق الوالد . فان لم يكن للوالد صديق يصلح لهذا الغرض ،أو كان الانتقال الى الريف متعذرا ،فليس ذلك مما أجد فيه حيلة .

ان البشر لم يخلقهم الله ليحتشدوا فى أعشاش النمل بل لينتشروا فى جنبات الأرض كى يزرعوها . وكلما تجمعوا فى موضع فسد حالهم . فالمرض والرذيلة هما الثمرة الأكيدة للمدن المزدحمة بالسكان .والانسان أقل مخلوقات الله لياقة للحياة فى قطيع . ومتى حشد الناس معا كالأغنام

ماتوا .فأنفاس الانسان قاتلة لأخيه الانسان .وتلك حقيقة تصدق بالحروف كما تصدق بالمجاز .

ان المدن تلتهم ساكنيها وتفتك بهم .وبعد أجيال من حياة المدينة يشيع الانحلال الصحى وتصاب السلالة بالهزال أو العقم .ولا يمكن تجديد حيويتها الا عن طريق الريف . فأرسلوا أولادكم يتجددوا فى الحقول الفسيحة وليستعيضوا عما استهلكه من عافيتهم هواء المدينة المزدحمة الفاسد .

الخدمات الأولى

ومتى ولد الطفل يستحم فى ماء دافىء يضاف اليه شيء من النبيذ. فانى أعتقد أن النبيذ لا لزوم له .فالطبيعة لا تنتج مشروبات مخمرة ، فليس من المنظور اذن أن تكون الخمور ذات قيمة عظيمة لمخلوقاتها .

بل انى أرى أيضا أنه لا لزوم لتسخين ماء الحمام الأول .فكثير من الشعوب تدفع بأطفالها بعد الولادة مباشرة الى مياه الأنهار أو البحار . وأطفالنا نجنى عليهم بالرفاهية الشديدة من قبل ولادتهم ،بما فى الوالدين من رخاوة ونعومة ،فيولدون وفيهم ضعف ولهذا لا يتحملون بصورة مفاجئة الظروف الطبيعية التى تتكفل باعادتهم الى الصحة .ولكن رويدا رويدا ينبغى أن نعود بهم الى الحالة الطبيعية ونبدأ بالحمام . ويجب أن نكثر منه لأن قذارة الأطفال التى تتكرر كثيرا توحى بالحاجة الى ذلك . واذا مسحنا عليهم فحسب تأذى جلدهم .وكلما تقدموا فى العمر قلل من حرارة الماء الى أن يكون استحمامهم شتاء وصيفا فى ماء بارد ،حتى ولو كان فى برودة الثلج .ولكن استعن بالتدرج واستخدم مقياس الحرارة للتأكد من الدقة التامة فى ذلك .

ومتى تكونت عادة الاستحمام بالماء البارد عند الطفل فلا ينبغى العدول عنها مطلقا ، بل يجب أن يثابر عليها طول حياته . وأنا لا أهتم بالحمام البارد لأسباب تتعلق بالنظافة والصحة الحالية فحسب ،بل لأنه يعود عضلات الجسم المرونة واحتمال الجهد والحرارة والبرودة .وبعد أن يكبر الطفل سأعوده بالتمرين على الاستحمام بين الحين والحين فى ماء ساخن فى مختلف درجات الحرارة التى يطيقها .ثم فى مختلف درجات البرودة .

وعندما يأخذ الطفل أنفاسه الأولى ،لاتكبلوه فى الأقمطة المحكمة . ولا تضعوا على رأسه تلك الطواقى .بل اجعلوا لفائفه واسعة فضفاضة، بحيث تتاح لأطرافه الحرية التامة ،ومن قماش غير ثقيل حتى لايعوق حركته .وغير حار حتى لا يحول دون نسمات الهواء .ومن العجيب ان أهل المدينة يخنقون أولادهم بهواء البيوت المحبوس وبالأردية الثقيلة .وليتهم يعلمون أن الهواء البارد لا يؤذى الأطفال بل يزيدهم قوة .وان الهواء الحار يضعفهم ويجلب لهم الحمى حتى يقتلهم .

وليوضع الطفل فى مهد واسع ، بحيث يتحرك بسهولة ، وليكن له سياج حتى لا يتعرض للخطر عند الحركة .ومتى اشتد عوده اتركوه يدرج فى الحجرة .ودعوه ينمو ويمد أطرافه الصغيرة كى تروها تزداد قوة يوما بعد يوم .ثم قارنوه بطفل حبيس القماط من سنه وسيدهشكم ما بين الطفلين من فرق جسيم .

وانى أتوقع معارضة عنيفة من جانب المرضعات ،لأن الطفل المكبل بالقماط لايجهدهن كالطفل الطليق الذى يحتاج الى يقظة لاتغفل . ثم ان قذارة طفل واسع الثياب أكثر ، وحاجته الى التنظيف المستمر أشد ! وأوصيكم الا تجادلوا أولئك المراضع بل مروهن وراقبوا طاعتهن .بل وشاركوهن فى خدمة الطفل ونظافته .وليشترك المربى بنفسه فى هذا كله .فهو بذلك سيتعلم القواعد الأولى للتربية على يد الطبيعة نفسها . ويجب عليه أن يراقب المرضع باستمرار حتى لا يأتى مع الطفل ما يناهض تيار الفطرة .عن جهالة أو عن لؤم .

التربية النفسية المتدرجة

وأعود فأقول : ان تربية الرجل تبدأ منذ مولده . فهو يتعلم قبل أن يتكلم بل وقبل أن يفهم . فالتجربة هى التى تمده بالدروس . وعندما تراه يعرف مرضعه ، فهو قد عرف شيئا كثيرا . وانك لتعجب من معارف الرجل مهما كان جاهلا ، لو انك تتبعته منذ لحظة ولادته الى اللحظة التى وصل اليها . ولو أننا قسمنا كل المعرفة الانسانية الى شطرين ، وجعلنا شطرا منها قسطا مشاعا بين جميع الناس ، وجعلنا الشطر الآخر خاصا بالعلماء ، لوجدنا هذا الشطر الأخير ضئيلا جدا بالقياس الى الشطر الأول . بيد أننا لا نفكر مطلقا فى المعارف العامة ،لأنها تتكون من غير أن نفكر فيها، بل وقبل أن نصل الى سن التعقل .ولأن المعرفة لاتبرز قيمتها الا بمراعاة التباين بين درجاتها ،شأنها فى ذلك شأن المعادلات الجبرية ،حيث الكمية المشاعة بين طرفيها لا حساب لها .

وان الحيوانات أنفسها تكتسب معارف كثيرة .فلها حواس لابد أن تتعلم كيف تستخدمها . ولها احتياجات يجب أن تتعلم كيف تكفيها . وبهذا تتعلم الأكل والمشى والطيران لذات الجناح منها .وذوات الأربع التى تقف على قوائمها منذ ولادتها لا تعرف كيف تمشى ،ويبدو على خطواتها الأولى أنها محاولات يعوزها الثبات .فكل شىء بالنسبة للمخلوقات الحية والحاسة رهن بالتعلم .ولو أن النباتات كانت لها حركة فى المكان ،لوجب اذن أن تكون لها حواس ،وأن تكتسب بحواسها المعارف ،والا أسرع نوعها الى الانقراض .

وأولى احساسات الطفل تكون احساسات انفعالية .فلا شىء عند

الطفل يخرج عن محيط اللذة والألم .والعادة الوحيدة التي يجب أن ندع الطفل يكونها هي ألا تكون عادة ثابتة . فلا نحمله على احدى الذراعين دون الأخرى ، ولا نجعله يمد احدى يديه دون الأخرى . أو أن يستعمل احداهما أكثر من الأخرى . ولا أن يأكل أو ينام أو ينشط في ساعات بعينها ،أو يعجز عن المكث وحده ليلا أو نهارا .

أعدوه من بعيد كي تسود حياته الحرية والقدرة على استعمال قواه كلها ،تاركين لجسمه العادة الطبيعية ،بحيث يكون دائما سيد نفسه ، قادرا في جميع الأمور على العمل بمشيئته ،متى صارت له مشيئة .

ومتى بدأ الطفل في التمييز بين الاشياء ،فمن المهم أن نختار الاشياء التي نطلعه عليها .وكل جديد يثير اهتمام الانسان بالطبع .وهو يشعر بضعفه لدرجة أنه يخشى كل ما لايعرفه .فاذا كونا لديه عادة مشاهدة أشياء جديدة من غير ان يتأثر بها ،قضينا لديه على ذلك الخوف .

والأطفال الذين ينشأون في بيوت نظيفة ،أو في بيوت لايطيق أهلها أن تضم العناكب ،يخافون العناكب ويلازمهم ذلك الخوف في أحيان كثيرة عندما يكبرون .ولم أر في حياتي فلاحا رجلا كان أو امرأة أو طفلا يخاف العنكبوت ! .

فلماذا اذن لا تبدأ تربية الطفل قبل أن يتكلم وقبل أن يفهم ،ما دام مجرد اختيار الاشياء التي تعرض عليه كافيا لجعله خوافا أو مقداما ؟اني أريد أن يتعود الطفل مشاهدة أشياء جديدة ،وحيوانات قبيحة ،مقززة، غير مألوفة ،ولكن في هوادة ،قليلا قليلا ،وعن بعد ،الى أن يألفها .ومتى رأى غيره يلمسها أقدم أخيرا على لمسها بنفسه .فاذا تعود الطفل في صغره ألا يفزع من منظر الثعابين وسرطان البحر وما الى ذلك ،فثق أنه سيرى من غير فزع حين يكبر أي وحش كان .فلا وجود للأشياء المفزعة لدى من يرى صنوفا وأشكالا منها في جميع الأيام .

وجميع الأطفال يخافون الأقنعة .وسأبدأ بأن أطلع اميل على قناع لطيف الشكل .ثم يضع أحد الناس ذلك القناع أمامه على وجهه . ثم آخذ في الضحك ،ويضحك الحاضرون جميعا ،فيضحك الطفل مع الباقين .وشيئا فشيئا أعوده رؤية أقنعة أقل جمالا ،ثم أقنعة شنيعة الشكل .فان كنت قد أحسنت التدرج ،فسوف لايفزع من آخر قناع يراه ،بل سيضحك كما ضحك من أول قناع .وبعد هذا لن أخشى أن يفزعه أحد بالأقنعة .

واذا أردت تعويد اميل على ضجة الأسلحة النارية ، أتدرج معه في سماع الضوضاء ورؤية شرارات الانفجار شيئا فشيئا الى أن يسمع طلقة البندقية من غير أن يهتز .ثم أعوده بعد ذلك على طلقات المدافع .

وقد لاحظت أن الأطفال قلما يخافون من الرعد ،اللهم الا اذا كان الدوى فظيعا جدا بحيث يخدش حقا جهازهم السمعى .وفيما عدا ذلك لا يحدث لديهم هذا الخوف الا اذاعرفوا أنالرعد يقتلأو يؤذى أحيانا. ومتى بدأ الذهن يفزعهم بصوره ،فيجب عليك أن تلجأ للعادة التدريجية كى تزيل عنهم ذلك الفزع .فبالتدرج البطيءالدقيق يمكن أن نجعل الرجل أو الطفل يجابه أى شيء .

وفى مطلع الحياة ،حينما تكون الذاكرة والمخيلةغير نشيطتين ،لايتنبه الطفل الا لما يؤثر فعلا فى حواسه .فاحساساته هى المادة الأولى لمعارفه. وتقديم المحسوسات اليه بنظام مناسب،هوبمثابة اعداد الذاكرة لامداده بتلك المحسوسات يوما ما بذلك الترتيب نفسه الى ادراكه.ولكن لما كان انتباه الطفل فى البداية مقصورا على محسوساته .يكفى جدا أن نبين له بوضوح العلاقة بين هذه المحسوسات وبين الأشياء التى تحدثها . انه يميل الى لمس كل شيء وتحريك كل شيء فلا تعارض هذا الاتجاه مطلقا .فانه يتعلم بهذه الوسيلة ويتدرب .فهو بهذا المنوال يتعلم كيف

يحس بالحرارة والبرودة والصلابة والرخاوة والثقل والخفـة التى فى الأجسام .ويميز حجومها وأشكالها وجميع خصائصها المحسوسة ،سواء بالنظر أو باللمس أو بالتحسس أو بالاصغاء ولا سيما بمقـارنة النظر باللمس ،حينما يقدر بالعين الاحساس الذى يأتيه من أصابعه .

والشم هو أبطأ الاحساسات نموا عند الأطفال .فحتى العام الثانىأو الثالث لا يلوح أنهم حساسون للروائح الطيبة أو الكريهة .فهم من هذه الناحية محرومون من الشم شأن كثير من الحيوانات .

وبالحركة وحدها تتعلموجود أشياء ليست هىنحن .وبحركةأجسامنا وحدها ندرك معنى الأمتداد .ولأن الطفل الحـديث الولادة لاوجـود عنده لتلك الفكرة ،تراه يمد بأسلوب واحد يده للقبض على شىء فى متناوله ،أو شىء على مسافة مائة خطوة منه .فيبدو لك ان اشارته تلك اشارة سيطرة أو أمر يصدره الى الشىء كى يدنو منه ،أو يصدره اليك كىتحمله اليه .وليس الأمر كذلك اطلاقا .فانه لايتصور أنهناك امتدادا سوى ذلك الأمتداد الذى يستطيع أن يبلغه بذراعه .فعليك اذن أنتهتم بنزهته كثيرا ،فتنقله من موضع الى آخر ،كى يستشعر تغير المكان ، فيتعلم من ذلك تقدير المسافات .ومتىبدأ فى معرفةالمسافات ،يجبعليك أن تغير المنهج .اذ بمجرد تخلصه منخداع الحواس ،يتغـير هـدف مجهوداته .وهذا التغير ملحوظ ويحتاج الى شىء منالتفسير .

ان الضيق الذى يشعر به الطفل بسبب احتياجاته يعبر عنه باشارات، وذلك عندما تكون مسـاعدات الآخـرين له ضرورية كى يكفى تلك الاحتياجات . ومن هنا صراخ الأطفال وبكاؤهم الكثير ، فذلك شىء لابد منه.ولماكانتجميعاحساساتهمانفعالية.فعندما تكونتلكالاحساسات مرضية لهم يستمتعون بها فى صمت .وعندما تكون تلك الاحساسات مؤلمة لهم ، يقولون ذلك بلغتهم الخاصة ، طالبين البرء منه . وعلى هذا ،

حينما يكونون بحال اليقظة ،لايستطيعون الأستمرار في حالة عـدم اكتراث ،فينامون أو يصرخون .

وجميع لغاتنا مبتدعات فنية .وقد طال البحث فيهل هناك لغةطبيعية عامة بين جميع الناس .ولا شك في أن هناك لغة بهذه الصفة .وهى لغـة الأطفال التي يتكلمون بها قبل أن يتعلموا الكلام .ولئن لم تكن تلك اللغة لفظية ،الا أنها صوتية ومفهومة .وأستخدامنا للغاتنا هو الذى جعلنا نهمل تلك اللغة المشتركة حتى نسيناها نسيانا تاما .

فلندرس الأطفال ،وعندئذ سنعرف كيف تتعلم تلك اللغة على أيديهم. ولا شك أن الحواضن والمراضع هن أساتذتنـا فى تلك اللغـة .لأنهن يسمعن ويفهمن كل مايقوله لهن الرضعاء ويحبونهن ، وتنعقد بينهن وبينهم محاورات متصلة .ومع أنهن ينطقن فى تلك المحاورات بكلمات ،الا أن تلك الكلمات عديمة الجدوى تماما .فالأطفـال لا يفقهـون معنى تلك الكلمات ، بل نبرة الصوت المصاحبة لها وطبقته .

والى جوار لغة الصوت نجد لغة الاشارة ، وهى ليست أقل منها نشاطا وتأثيرا .وتلك الأشارة لا تصدر من يدى الطفل الضعيفتين ،بل ترتسم على وجهه .ومن العجيب حقا مالدى الطفل من قدرة على التعبير بوجهه الذى تتغير معارفه من لحظة الى أخرى بسرعة فائقة،فتقرأ ثمة الأبتسام والرغبة والفزع ،وهى تتولد وتتلاشى كمـا يتـولد البرق ويتلاشى .حتى لتحسبن أنك فى كل مرة ترى أمامك وجها جـديدا . ولا شك أن عضلات وجوههم أشد ليونة ومرونة من عضلات وجوهنا. ولكن فى مقابل ذلك لاتكاد تنطق عيونهم الخابية بشيء .فلا بد أن هذا هو نوع الأشارات الذى يستخدم فى سن لاوجود فيها الا للاحتياجات الجسمية .فالتعبير عن تلك الاحساسات يكون بمعارف الوجه ،اما التعبير عن العواطف فيكون حتما بالنظرات .

ولما كانت المرحلة الأولى من حياة الانسان مرحلة ضعف وعوز ، فأصواته الأولى أصوات شكاية وبكاء .يشعر الطفل بحاجاته وليس فى وسعه أن يكفيها .فيستدر مساعدات الناس له بالصراخ .واذا كان جائعا أو عطشان بكى .وان شعر ببرد شديد أو حر شديد بكى .وان أراد أن ينام واحتاج الى من يحركه أو يهدهده بكى .فليست له الا لغة واحدة ،لأنه لا يشعر الا بنوع واحد من عدم الارتياح ،هو ما فى أعضائه من نقص .ولكنه لا يميز بين أنواع الاحتياجات المختلفة .فجميع تلك الاحتياجات أو المتاعب تبدو له فى صورة واحدة هى صورة الاحساس بالألم على العموم .

ومن ذلك البكاء الذى يتوهم البعض أنه ليس جديرا بالاهتمام ،تتولد العلاقة الأولى بين الانسان وبين كل مايحيط به .فهنا تصاغ الحلقة الأولى من تلك السلسلة الطويلة التى يتكون منها النظام الاجتماعى بأسره .

فعندما يبكى الطفل فمعنى ذلك أنه غير مستريح ، وانه بحاجة الى شىء ما لا يستطيع أن يكفى نفسه تلك الحاجة .فنقوم بالفحص والتنقيب عن تلك الحاجة المعينة الى أن نعثر عليها ونكفيه اياها . فان لم نجدها أو لم نستطع أن نكفيه اياها يستمر البكاء ،ويضايقنا ذلك فنحاول أن نترضى الطفل كى يسكت .فنهدهده ونغنى له كى ينام .فان أصر على البكاء تملكنا الضيق والغيظ وهددناه . ومن المراضع الضاربات من يضربن الطفل أحيانا .ويا لها من دروس غريبة يتلقاها الطفل وهو فى مبدأ دخوله الى الدنيا .

ولن أنسى ما حييت طفلا باكيا ضربته مرضعه .فسكت على الفور . فظننت أنه خاف منها وقلت فى نفسى ان هذا الطفل سيشب خانعا خسيسا لا ينال الانسان منه شيئا الا بالضغط والاكراه . ولكنى كنت مخطئا .لأن

المسكين كان مختنقا من شدة الغيظ والقهر ، حتى انه فقد أنفاسه ورأيت لونه يضرب للزرقة . وبعد لحظة انفجرت منه صرخات حادة تدل على منتهى اليأس والغضب فى تلك السن . فراعنى فى نبرات تلك الصرخات أنها تعبير صوتى كامل عن تلك الانفعالات ، يتناسب تماما مع تلك المرحلة من العمر . وخشيت أن يموت من شدة الانفعال .

وكلما خامرنى الشك فى أن عواطف العدل والاحساس بالظلم فطرية فى قلب الانسان ، كان هذا المثل وحده كافيا لاقناعى بوجودها فى فطرة البشر . فانى واثق أن قطعة من الحديد المحمى تسقط صدفة على يد هذا الطفل كانت أهون وقعا من تلك الضربة الهينة من يد مرضعته ، التى ضربته بقصد اهانته .

وان ما يبديه الأطفال من الاستعداد للغضب والسخط والاستياء والاحتجاج يستحق منا كياسة شديدة فعليكم أن تحولوا بينهم وبين الخدم الذين يغيظونهم أو يهيجون غضبهم وأعصابهم ويستنفدون صبرهم . فهم أشد خطرا عليهم بل أشد فتكا بهم من تقلبات الجو القطيعة وتغيرات الفصول التى تودى بأكبر عدد من الأطفال كما يقول بعض الاطباء . فان جهاز الأطفال العصبى يكون شديد الحساسية . وما دام الطفل لا يجد مقاومة الا من الأشياء الجامدة . لا من ارادات بشرية مماثلة لارادته ، فلن تتوتر أعصابه أو تسوء صحته . وهذا هو السبب فى ان أبناء العامة أقل رخاوة وذبولا فى العادة من أبناء الخاصة ، وأشد منهم قوة وأنضر عافية ، وأصح نفوسا وأجساما من أولئك الذين نزعمهم خيرا منهم تربية بمراحل ، ذلك أن ابناء العامة أكثر حرية واستقلالا ، فلا يضايقهم أحد ، لأن أحدا لا يشغل نفسه بهم خيرا أو شرا . اما أبناء الخاصة فمن يوكل اليهم الانشغال بهم من الخدم يتلهون بمضايقتهم .

ان بكاء الطفل فى الصيحات الأولى أشبه ما يكون بالضراعة . فان لم

تفطن اليه انقلبت الضراعة الى أمر وينتقل من طلب العون الى الالزام بالخدمة .وهكذا يتولد لديهم من شعورهم بالتواكل معنى السيطرة أو النفوذ أو التسلط .وهذه هي بداية النتائج الأخلاقية التى ليست الطبيعة سببها المباشر ،بل سببها المباشر طريقة تأديتنا الخدمات للطفل عندما يصبح صراخه أمرا ووعيدا .ولهذا ينبغي منذ الطفولة الباكرة جدا أن نميز السريرة الخافية وراء حركات الطفل وصيحاته .

وعندما يمد الطفل يده بقوة من غير أن يتكلم ،يعتقد أنه سيصل الى الشيء الذى يريده ،لأنه لا يحسن تقدير المسافة .فهو فى هذه الحالة مخطىء .اما عندما يشكو ويصرخ وهو يمد يده ،فهو فى هذه المرة لم يخطىء تقدير المسافة ،بل انه يأمر ذلك الشيء بالدنو منه ،أو يأمرك أن تحمله اليه .وفى الحالة الأولى قرب منه الشيء الذى أخطأ فى تقدير مسافته منه ببطء شديد . كأن الشيء يقترب منه فعلا . أما فى الحالة الثانية حيث ينقلب صراخه أمرا للشيء أو لك ،فلا تتجاهل سماعك لصراخه فحسب ،بل كلما اشتد صراخه يجب أن تزيد فى تجاهلك لسماعه .اذ يجب بأى ثمن أن تعوده منذ اللحظة الأولى الا يأمر الناس. فما هو عليهم بمسيطر .والا يأمر الأشياء ،فليست للأشياء أسماع وعقول .

وهكذا عندما يرغب الطفل فى شيء يراه وتريد أن تعطيه اياه ،فمن الخير أن تحمل الطفل الى الشيء ،فذلك أفضل من أن تحمل الشيء الى الطفل . فبهذه الوسيلة العملية سيصل الطفل فى تلك السن الى الاعتقاد بأن هذا هو السبيل الوحيد للوصول الى الأشياء .

* * *

ان الطفل لا يكون شريرا الا بسبب ضعفه .فان أحب تحطيم الأشياء، فليس ذلك عن سوء نية .ولكن لأنه يشعر بالحاجة الى الحركة والانفعال،

فيهاجم ما يجده فى متناول يده ،من غير نية خاصة فى العدوان أو التخريب .

ان الأطفال ليست لديهم قوى فائضة عن حاجتهم .بل ان قواهم ليست كافية لجميع مطالب طبيعتهم .فيجب أن نترك لهم حرية أستخدام جميع القوى التى منحتهم أياها الطبيعة ،ماداموا لن يستطيعوا اساءة استخدامها فى ايذاء أحد .وهذه هى الوصية الأولى .

ويجب أن نساعدهم ونمدهم بما ينقصهم ،سواء من حيث الذكاء أو القوة ، بما يكفيهم احتياجاتهم البدنية . وهذه هى الوصية الثانية .

ويجب فيما نقدمه اليهم من مساعدات أن تكون تلك المساعدات فى حدود المنفعة الفعلية فحسب ، ولا نساعدهم فى أى شىء يتصل برغباتهم أو نزواتهم غير المعقولة .فالنزوات ليست مما يترتب على ارضائها ألم أو تعذيب .لأنها ليست من صنع الطبيعة .وهذه هى الوصية الثالثة .

ويجب أن ندرس لغتهم الصوتية واشاراتهم ، كى نتمكن فى سنهم التى يعجزون فيها عن التمويه ،أن نتبين فى رغباتهم ما هو طبيعى وما هو نزوة أو ميل الى الاستبداد والتحكم .وهذه هى الوصية الرابعة .

وهذه الوصايا الأربع المراد منها اطلاق مزيد من الحرية الحقيقية للأطفال ،مع الاقلال من سيطرتهم وتحكمهم .وان يتعلموا العمل بأنفسهم لا أن يحملوا الآخرين على العمل لهم .وهكذا يتعودون منذ البداية أن تكون رغباتهم على قدر قواهم ويشعرون شعورا لا مبالغة فيه بأن الحرمان مما ليس فى متناول اليد أمر طبيعى لا يتسم بسمات الفجيعة والتحسر .

ولكنى فى الوقت نفسه لا أريد أن تكون الخدمات الأولى التى تقدم للأطفال موضع لبس أو ابهام .فلماذا لا يحجم الأطفال عن البكاء متى رأوا أن البكاء يفيدهم فى الحصول على مبتغاهم .ويتعلمون من

هذا مبلغ تقديرنا لسكوتهم . فيمتنعون عن حظوتنا بذلك السكوت ويظلون يستأدوننا اثمانا لسكوتهم ،ويغلون في تلك الأثمان المرة بعد المرة الى الحد الذى نعجز فيه عن أداء ما يطلبون من ثمن .ويصبح البكاء سلاحا فاشلا ،ومتى بالغوا في استعماله بلا جدوى أنهكت قواهم ، وربما قتلوا أنفسهم .

ان البكاء الطويل الذى يصدر عن طفل غير مقيد الحركة ولا مريض ولا ينقصه شيء من احتياجاته الضرورية ،لايكون الا نتيجة تعود أو عناد .ولا يمكن أن يكون من عمل الطبيعة .والمرضع التى لاتريد أن تتحمله ،تعمل على مضاعفة ذلك البكاء من حيث تظن أنها تسكته .فهى لا تسكته اليوم بالحيلة الا لتدفعه الى مضاعفة البكاء فى الغد .

ان الوسيلة الوحيدة للشفاء من هذه العلة أو الوقاية من تلك العادة، هى ألا نلقى بالا على الاطلاق الى بكاء الطفل . وما من انسان حتى الأطفال يحب أن يجهد نفسه بغير طائل .فالأطفال يصرون على محاولاتهم على أمل النجاح .ولكن اذا كنت أشد صبرا وعنادا منهم سيفقدون ذلك الأمل ويكفون عن البكاء ولايعودون اليه بعدها .وبذلك نوفر عليهم جهود البكاء فى الأمد الطويل ونعودهم ألا يذرفوا الدموع الا تحت ضغط الألم الحقيقى .

وعندما يبكى الأطفال لنزوة أو عناد ، فهناك وسيلة فعالة لمنعهم من الاسترسال فى البكاء ، وهى تلهيتهم بشيء يجذب انتباههم وينسيهم أنهم كانوا شارعين فى البكاء .ومعظم المراضع ممتازات فى هذا الفن .وهو فى الحقيقة فن نافع .ولكن من المهم الى أقصى درجة الا يفطن الطفل الى نية المرضع التى تكمن وراء هذه الحيلة ،كى يستمتع وهو لا يعتقد أنه محور الاهتمام . ولكن معظم المراضع فيهن هذه البلاهة .

***

وليس من المستحسن أن تفطم الأطفال فى وقت مبكر جـدا .فان الحبوب المغلية غذاء قليل الجدوى .وخير منه مشتقات الخبز الخفيفة .

واما من جهة الكلام فجميع الأطفال يبدأون التعبير بمقاطع مبسطة . ولا ينبغى أن تتشدد معهم فى تصحيح النطق منذ البداية .لأن عيوب النطق ستنصحح من تلقاء نفسها مع التقدم فى العمر ،ومن غير صعوبة . وانما المهم أن يتعلموا الكلام بصوت واضح رنان .وأن يكون تعبيرهم بالألفاظ دقيقا أكثر منه مسهبا .

وجميع نواحى النمو الأولى فى فترة الطفولة تحدث فى وقت واحد فالطفل يتعلم الكلام والأكل والمشى فى آن واحد تقريبا .فهذه هى بمعنى الكلمة الفترة الأولى من الحياة .اما قبل أن يتعلم هذه الأشياء فلم يكن شيئا مذكورا يزيد كثيرا عما كان فى بطن أمه .فما كان ذا شـعور ، ولا صاحب فكرة أو معنى .وانما كل رصيده فى الحياة احساسات عضوية. فلم يكن يشعر حتى بوجوده . فهو على حد تعبير الشاعر اللاتينى أوفيد:

— انه يعيش ،بيد انه يعيش جاهلا حتى انه يعيش .

الكتاب الثانى

الطفل : تربيته الأخلاقية

- الدروس الاولى فى الشجاعة
- بداية الحياة الاخلاقية
- تشكيل الارادة
- لا تجادلوا الاطفال
- مبادىء الاخلاق الاجتماعية
- دراسة اللغات ومدى جدواها للطفل
- دراسة التاريخ والاساطير ومدى جدواها للطفل
- الطفل ذو البدوات
- رياضة الحواس وعلاج الخوف
- منافع السباق
- أميل طفلا

الدروس الأولى فى الشجاعة

وهنا تبدأ المرحلة الثانية من مراحل الحياة .وتنتهى مرحلة الطفولة الأولى ،التى هى الطفولة بمعنى الكلمة .ولكنى سأستخدم لفظ الطفولة جريا على العادة المألوفة ،للكلام عن هذه المرحلة التى عرف الطفل فيها الكلام والمشى وطريقة الأكل .

وعندما يبدأ الأطفال فى الكلام ، يقل بكاؤهم ، وهو تقدم طبيعى جدا ،اذ حلت لغة للتعبير محل لغة أخرى للتعبير .وما داموا يستطيعون أن يقولوا انهم يتألمون بعبارات لفظية ، فلماذا يقولون ذلك بصيحات اللهم الا اذا كان الألم من الشدة بحيث لاتسعفه الكلمات للتعبير عنه؟.

فان استمر الطفل بعد تعلم الكلام على عادته فى البكاء ، فهذا خطأ أولئك الذين يحيطون به .أما اميل فمتى استطاع أن يقول «انى أتألم»، فيجب الا يعمد للبكاء الا اذا أصابته آلام موجعة جدا .

واذا كان الطفل رقيقا شديد الحساسية بحيث يستسلم بطبيعته للبكاء لغير سبب ويصرخ ،فانى أجعل صرخاته وبكاءه بغير فائدة وبغير نتيجة، بحيث يستنفد طاقته ويكف عن الصياح . فما دام هو يبكى لا أخف اليه بل ولا ألقى اليه بالا .. ولكن بمجرد أن يسكت أخف اليه . فسرعان مايتعلم أن الطريقة الوحيدة لاستدعائى هى أن يسكت ،أو على الأكثر أن يطلق صرخة واحدة ،فالاطفال لايميزون معانى سلوكهم الا بالأثر المحسوس لذلك السلوك .وليست هناك وسيلة أخرى لديهم .ودليل ذلك أنه مهما كان الألم شديدا على الطفل ،فمن النادر أن يبكى اذا كان بمفرده ،الا اذا وجد عنده الأمل فى أن يسمع بكاءه أحد من ذويه .

فاذا سقط الطفل على الأرض ،وظهرت فى رأسه من أثرذلك حدبة ، واذا نزف الدم من أنفه ، أو جرحت أصابعه ،فلن أبادر اليه وقد ارتسم على وجهى الذعر ،بل سأبقى محتفظا بهدوئى ،فترة من الزمن على الأقل. وما دام الشر قد وقع ،فمن الضرورى أن يتحمله .وكل ما أبديه من لهفة لن تكون له فائدة سوى زيادة فزعه واذكاء حساسيته وألمه .

واذا أردنا صميم الحقيقة ، رأينا أن المفاجأة أو الصدمة ليست هى التى تؤلم وتعذب عندما يجرح المرء ،بل الذى يؤلمه ويعذبه الخوف بالأكثر .وسأعمل على أن أجنبه على الأقل عذاب الخوف .اذ لاشك أنه سيحكم على ألمه بما يراه على وجهى من تقدير له ولخطورته .فان رآنى أجرى ملهوفا كى أرفه عنه وأتحسر عليه ،فسيظن نفسه هالكا .أما اذا رآنى أحتفظ بهدوئى ،فسيثوب سريعا الى هدوئه ،ويعتقد أن اصابته يسيرة.. ففى تلك السن تبدأ الدروس الأولى فى الشجاعة .ومتى تعلم الطفل كيف يتعذب بآلام هينة من غير فزع ،فسيتعلم بالتدريج احتمال الآلام الجسام وهذه هى الشجاعة فى جوهرها الأصيل .

وبدلا من أن أوجه اهتمامى الى تجنيب اميل الجروح ،سيسوؤنى جدا الا يجرح نفسه مطلقا .وأن يكبر قبل أن يعرف الألم .فالعذاب هو أول شىء يجب أن يتعلمه .بل انه أحوج مايحتاج الى معرفته .ويلوح أن الأطفال لا يكونون صغارا ضعافا الا لكى يتلقنوا تلك الدروس الجليلة بغير خطر على حياتهم . فاذا وقع الطفل من طوله ، فلن تنكسر ساقه . وان ضرب نفسه بعصا فلن تنكسر ذراعه .واذا قبض على سلاح قاطع فلن يشد قبضته عليه ،فلا يكون جرحه غائرا .

ولا أتذكر أنى سمعت أو رأيت طفلا طليق الحرية قتل نفسه أو أصاب نفسه بعاهة أو بألم شديد .الا اذا كان قد دفع دفعا الى الوجود فى أماكن

مرتفعة أو ترك وجده بالقرب من النار أو تركت فى متناول يده أدوات خطرة .

ان الطفل الذى يكبر من غير أن يتمرس بالألم يظل بلا خبرة وبلا شجاعة حتى انه يتوهم الموت عند أول وخزة . ويغمى عليه عندما يرى أول قطرة تسيل من دمه وليست هذه هى التربية التى تتحراها .

ان خطأ بل خرف تعليمنا آت من أننا نعلم دائما الأطفال ما كانوا سيتعلمونه بصورة أفضل كثيرا من تلقاء أنفسهم . ونغفل عما كان يمكن أن نعلمه نحن لهم دون غيرنا .وهل هناك أشد بلاهة من العناء الذى نبذله كى نعلم الأطفال المشى ،كأننا رأينا من قبل أى انسان أدى اهمال مرضعته الى جهله بالمشى عندما كبر ؟ بل كم من شخص نراه يمشى بصورة سيئة طول حياته ،لأنهم أساءوا تعليمه المشى وهو صغير ؟ .

ان اميل لن تكون له مشاية أو غيرها من أدوات تعليم المشى .ومتى بدأ يضع قدما أمام الأخرى ،فلن يسنده أحد الا عند المواطن الزلقة .ثم يؤخذ الى مكان معشب كل يوم حتى لايقضى وقته فى حجرة مقفلة . وهناك يترك ليجرى ويقع مائة مرة كل يوم .فذلك كله لفائدته ،لأنه سيتعلم كيف ينهض من سقطته بنفسه كلما وقع .وسعادة الحرية تشفع لكثير جدا من الرضوض والجروح .وستكون روحه دائما مرحة .فالطفل الحر سعيد دائما . أما الطفل المكتئب الساهم فهو الطفل المقيد الحرية الذى تكبت جميع رغائبه وميوله الفطرية .ولا أظن أن هذا هو الجانب الأرجح فى التربية .

بداية الحياة الأخلاقية

وهناك نمو آخر يجعل التجاء الطفل الى الشكوى أقل لزوما لحياته . وذلك هو نمو قواه . فمتى استطاع الأطفال أن يقوموا لأنفسهم بمزيد من العون والعمل ، قلت حاجتهم للاستعانة بالآخرين .ومع نمو قوتهم تنمو معرفتهم بحيث يكونون قادرين على استخدام قواهم وتوجيهها . وبهذا تبدأ بصورة دقيقة حياة الفرد .اذ يبدأ عندئذ وعيه لذاته .

وتقوم الذاكرة بمد الشعور بالأنية الى جميع لحظات حياته . فيغدو شخصا واحدا بمعنى الكلمة ،هو عين ذاته دائما ،ويكون بالتالى قادرا على الشعور بالسعادة أو الشقاء .ويكون من المحتم أن نعتبره منذ ذلك الحين كائنا أخلاقيا .

وما من شيء فى الدنيا أقل ثباتا وضمانا من العمر البشرى .فلا أحد يدرى كم يعمر كل فرد على حدة . وقليلون جدا هم الذين يصلون الى أقصى حدود العمر البشرى .فأعظم مجازفات الحياة تكون فى البداية . وكلما صغرت السن كان الأمل فى طول الحياة أقل .أو هكذا ينبغى أن يكون .فبين من يولدون من الأطفال لا يصل الى يفاعتهم غير النصف على الاكثر . وليس من المضمون أن تلميذك سيصل الى سن الرجولة .

فما القول اذن فى تلك التربية الهمجية التى تضحى بالحاضر القائم فى سبيل مستقبل مجهول غير مضمون ، وهى تربية تكبل الطفل بالاغلال من جميع الأنواع والأشكال . وتبدأ بأن تجعله شقيا فى طفولته لكى تعده لمستقبل بعيد تزعم أنه سيكون سعيدا .مع أنه ربما لا يصل اليه مطلقا؟

واذا اعتبرت مثل تلك التربية معقولة من حيث المضمون . فكيف

يمكن أن أغالب السخط والاستنكار حينما أرى الصغار المساكين مرهقين تحت نير ثقيل ومكرهين على أعمال متصلة، كأنهم سجناء، وهم غير واثقين من أن كل تلك الجهود ستجدي عليهم يوما ما ؟! .

ان عمر المرح لديهم يتقضى وسط الدموع والاحـزان والعقـوبات والتهديد والرق . وينصب العذاب على الصغير المسكين لمصلحته مستقبلا، ولكنهم لا يرون الموت الذي يستدعونه اليه، والذي سوف يقبضه وهو غارق فى الأسى والعذاب . والله وحده يدرى كم من الأطفـال يهلكون ضحايا الحكمة المتطرفة لآبائهم وأساتذتهم . وحين يحضرهم الموت يسعدهم أن يفروا من تلك القسوة . فالمزية الوحيدة التي يحصلون عليها من آلامهم وعذابهم هي أن يموتوا غير آسفين على الحياة، وهم لم يعرفوا منها الا العذاب، ولم يذوقوا من طعومها الا الحنظل والصاب .

أيها الناس ! كونوا أشد انسانية . فهذا هو واجبكم الأول . كونوا رحماء بجميع الطبقات، وبجميع الأعمار، وبجميع من ليسـوا غرباء عن البشرية . فأى حكمة يمكن أن تكون لكم ان أخرجتكم عن انسانيتكم؟ أحبوا الطفولة . وارعوا فى مودة لهوها وملذاتها وطبيعتها اللطيفة .

اسألوا أنفسكم . من منكم لم يتحسر أحيانا على تلك المرحلة من العمر حينما كانت الشفاه لاتعرف الا الضحكات ، والنفـوس لا تعرف الا الطمأنينـة والأمن والسلام ؟ لماذا اذن تريدون أن تنتزعوا من هؤلاء الصغار الأبرياء استمتاعهم بفترة قصيرة من العمر سرعان ما تنقضى كأنها سنة من وسن ؟ ولماذا تريدون أن تحرموهم من خير ليس له نظير ولا يمكن أن يسيئوا التمتع به ؟ لماذا تريدون أن تحشدوا فى تلك السنوات القلائل فى بكرة العمر عصارة الآلام والمرارة وأنتم تعلمون أنهم لن يستطيعوا تعويض مافات بدليـل أنكم لا تستطيعون الارتداد الى طفولتـكم ؟ أتعلمون أيها الآباء اللحظة التي يتربص فيها الموت بأولادكم ؟ لاتمهدوا

اذن ولا تزرعوا حسراتكم بأيديكم وأنتم تحرمونهم من اللحظات السعيدة الضئيلة التى تمنحهم الطبيعة اياها . يجب عليكم متى استطاع ابناؤكم أن يشعروا بذواتهم ،أن تجعلوهم يستمتعون بحياتهم .حتى اذا شاءت ارادة الله أن يدعوهم اليه ،لايموتون من غير أن يتذوقوا لذة الحياة .

وانى أعلم أن أصواتا كثيرة سترتفع ضدى !وكأنى أسمع عن بعد تنديد أولئك الحكماء المزيفين الذين يخرجوننا دائما عن طورنا ،ويريدون منا أن نسقط الحاضر من حسابنا ، ونجرى بلا هوادة وراء مستقبل يفر منا دائما كلما تقدمنا نحوه .

وقد يقال لى ان الطفولة هى أوان تصحيح ميول الانسان الخبيثة . وفى فترة الطفولة يكون الاحساس بالآلام أقل .فيجب أن نكثر من الآلام فى الطفولة كى نوفر الآلام فى سن الرشد حيث الألم وجيع ثقيل الوطأة.

ولكن من قال لكم ان جميع هذه التدبيرات طوع أمركم ، وان كل تلك المعلومات الجميلة التى تهيلونها على ذهن الطفل الضعيف لن تكون له يوما ما ضارة ضررا يرجح كثيرا على نفعها ؟من الذى يضمن لكم أنكم توفرون عليه أى شىء بتلك الاحزان والاسقام التى تفرضونها عليه ؟لماذا تحملونه من الآلام أكثر مما تحتمله حالته ، وأنتم غير واثقين بأن هذه الآلام الحاضرة ستخفف عنه آلاما مستقبلة ؟ .

بل انى أسألكم من أين لكم البرهان أن تلك الميول الخبيثة التى تزعمون عملكم على شفائه منها ، ليست فى الواقع الا ثمرة جهودكم ، لا ثمرة خلقته الفطرية ؟ .

يالها من حصافة خرقاء تلك التى تفرض الشقاء على مخلوق فى الوقت الحاضر فعلا ،على أمل ربما يكون حقيقيا أو موهوما ،بأن يسعد يوما ما!.

ان هؤلاء الفلاسفة السوقة يخلطون بين الاباحية والحرية ،وبين الطفل السعيد والطفل المدلل .فمن واجبنا اذن أن نعلمهم تلك الفروق !.

ولكى لا نضل كثيرا بالجرى وراء الأباطيل ،لاينبغى أن ننسى مايتلاءم مع ظروفنا . فالانسان له مكانه المحدد فى ترتيب الموجودات الطبيعية ، والطفولة لها مكانها المحدد فى ترتيب الحياة البشرية .لذا يجب أن نعتبر الرجل فى الرجل .وأن نعتبر الطفل فى الطفل .

ان تحديد مكان كل واحد وتثبيته فى ذلك المكان ،وتنظيم الانفعالات البشرية على حسب تكوين الانسان ،ذلك كل ما نملك أن نصنعه لتيسير سعادة كل انسان . أما الباقى فيتوقف على أسباب خارجة عن ارادتنا وليس لنا عليها أدنى سلطان .

تشكيل الارادة

اننا لا نعرف ما هو كنه السعادة فى ذاتها ولا ما هو كنه الشقاء فى ذاته . ولكننا ندرى أن فقدان التوازن والتناسب بين رغباتنا وبين استطاعتنا هو الذى يخلق فينا الشعور بالشقاء .

ان المخيلة التى تجسم لنا رغباتنا خطرة غاية الخطورة .ولكى يسعد الانسان يجب أن يحصر وجوده داخل ذاته ،ويمارس ارادته وحريته داخل نطاق قدرته واستطاعته . ومن هذه الناحية وحدها يمكن أن نقول ان سعادة الطفل هى بعينها سعادة الرجل .فالسعادة فى الحالتين هى عدم الطموح بالرغبات الى ما ليس فى متناول اليد .

وهذه الاعتبارات عظيمة الأهمية . وتجدى فى حل جميع المتناقضات التى توجد داخل النظام الاجتماعى . فهناك نوعان من التبعية : تبعية الأشياء ،والأشياء تابعة للطبيعة .وهناك تبعية البشر ،والناس تابعون للمجتمع .

فأما تبعية الأشياء فهى خالية من الاخلاقيات ،ولا تضر مطلقا بالحرية ولا تنجم عنها رذائل .وأما تبعية البشر فهى مختلة الترتيب ولهذا تنجم عنها كافة الرذائل .فان كان هناك سبيل لعلاج تلك الآفة فى المجتمع ، فهذا السبيل هو تسليح الارادات العامة بقوة حقيقية متفوقة فى الأثر الفعلى على جميع الارادات الفردية .

فلو أن قوانين الأمم كان لها ما لقوانين الطبيعة من صرامة لاتستطيع قهرها أى قوة بشرية ،لكانت تبعية الناس شبيهة بتبعية الاشياء . ولاستطعنا أن نجمع للجمهورية جميع مزايا الحالة الطبيعية والحالة

المدنية .ولاستطعنا أن نجمع بين الحرية التى تقى الرجل الرذائل ، وبين الاخلاق التى ترتفع به الى مستوى الفضيلة .

ربوا الطفل على تبعية الأشـياء وحدها .فانكم بذلك تتبعون سـنة الطبيعة نفسها فى نظام تربيتها .ولا تضعوا أمام ارادته الطائشة الا عقبات مادية أو عقوبات ناتجة من أفعاله نفسها وبحيث يتـذكرها كلما جاءت مناسبتها . فلا لزوم لمنعه من الاساءة ،بل يكفى أن نجعله يمتنع من غير تحريم لفظى .فالتجربة أو العجز هما القانون الوحيد الذى يجب أن يشعر به الطفـل . ولا تستجيبوا لرغباته لأنه أعرب عنـها ، بل لأنه بحاجة فعلية اليها .

لاينبغى أن يعرف الطفل ما هى الطاعة حين يعمل ،ولا ما هو التسلط حين نعمل نحن من أجله .بل يجب أن يشعر بحريته فى أفعاله وفى أفعالنا على السواء .ولا تضـف الى ما ينقصه من قوة الا بمقـدار ما يحتاج اليه بالضبط كى يغدو حرا لا متسلطا .

انه حين يتلقى منك خدماتك بشىء من المذلة ،انما يتوق فى الوقت نفسه الى اللحظة التى يمكنه فيها أن يستغنى عن خدماتك ، ويكون له الشرف بالقيام على خدمة نفسه بنفسه .

ولدى الطبيعة وسائل خاصة لتقوية الجسم وتنميته . ولا ينبغى أن نعارض هذه الوسائل مطلقا .ولهذا لا يجوز لنا بأى حال أن نرغم طفلا على المكث حينما يريد الذهاب .ولا أن نرغمه على الذهاب وهو يريد البقـاء حيث هو .وحينما لا تكون حرية الأطفال قد أفسدت باخطائنا فى التدليل ،فلن يريدوا شيئا من غير أن تكون له منفعة ظاهرة أو خافية.

يحتاج الأطفال الى أن يقفزوا ويجروا ويصيحوا .كلما راق لهم ذلك وجميع حركاتهم هذه انما هى فى الواقع احتيـاجات بدنهم وتكوينهم الذى يريد أن يتقوى بالنشاط والرياضة .ولكن يجب أن نحـذر ممـا

يبدون رغبتهم فيه من غير أن يقدروا على تنفيذه بأنفسهم ،أو أن يضطر غيرهم الى عمل ما يرغبون فيه .فعندئذ يجب التمييز بدقة بين الحاجة الحقيقية أو الحاجة الطبيعية ،وبين الحاجة المبنية على نزوة بدأت تنبت في رأسه ،أو الحاجة التى تنجم عن فرط الحيوية فيه .

وقد أوضحت آنفا ماذا يجب أن نعمل عندما يبكي الطفل كي يحصل على هذا الشيء أو ذاك .وأضيف هنا فحسب أنه منذ يستطيع الطفل أن يطلب مايرغب فيه باللفظ .يجب اذا عمد الى البكاء لحثك على الاسراع فى تنفيذ رغبته أو للتغلب على معارضتك ،أن ترفض تنفيذ تلك الرغبة رفضا قاطعا . أما ان كانت حاجته الحقيقية هى التى أنطقته ،فيجب أن تفطن لذلك وتقوم بما طلبه فورا .أما أن تخضع لدموعه ،ففى ذلك حض له على ذرفها باستمرار ،وكأنك تعلمه أن يسيء الظن بحسن نواياك من جهته ،وأن يعتقد أن التهديد أشد تأثيرا فيك من حسن المعاملة .

واعلم أن الطفل متى اعتقد انك غير طيب النفس ،صار شريرا .اما اذا اعتقد انك ضعيف ،فسرعان ما يغدو مستبدا .فيجب أن تلبي عند أول اشارة كل ما لست عازما عزما أكيدا على رفضه .لا تكن متطرفا متعنتا فى الرفض . ولكن لا تتراجع مطلقا عن رفضك متى أبديته .

* * *

واحذر على الخصوص من تلقين الطفل صيغا شكلية فارغة للتهذيب . فانه سيستخدم ذلك عند الحاجة وكأنه رقية سحرية لاخضاع جميع من يحيطون به وللحصول فورا على كل ما يشتهيه .

ان التربية المتحذلقة التى درج عليها الاثرياء تجعل الأطفال محبين للتسلط وان يكن ذلك فى أدب ظاهرى ،لأنهم يعلمونهم الألفاظ التى ينبغي أن يستخدموها حتى لا يجسر أحد على مقاومتهم . ولكن الملاحظ أن هؤلاء الأطفال ينطقون تلك الألفاظ المهذبة بلهجة وسمت لا يدلان

مطلقا على الترجى . بل يكونون وهم ينطقون بألفاظ الرجاء مثلا للعجرفة، بل ان عجرفتهم فى ذلك الموقف أشد من عجرفتهم وهم يأمرون بصراحة. وكأنهم وهم ينطقون بالرجاء واثقون من الطاعة سلفا .

من أول وهلة يشعر الانسان وهم يقولون له :

— من فضلك !

انهم يقولون فى الحقيقة :

— من فضلى !

اما أرجوك ، فمعناها على لسانهم آمرك ! فيالها من تربية جميلة ويا له من أدب رائع . ذلك الذى لا يحقق الا قلب مدلولات الألفاظ على ألسنتهم لأنهم لا يستطيعون أن يتكلموا الا بسلطان !.

أما أنا فانى احاذر أن يكون اميل متعجرفا أشد من محاذرتى أن يغدو فظا فى أسلوب كلامه . وانى لأوثر ألف مرة أن يقول ببساطة وبرجاء قلبى:

— أفعل هذا .

على أن يقول بأمر وغطرسة :

— أتوسل اليك !

فليس المهم فى نظرى هو لفظ الطلب ، بل الشعور الذى يصاحب اللفظ وهناك دائما حد وسط بين التفريط والافراط . فأنا أرفض التطرف فى التشدد كما أرفض التطرف فى التهاون . ومن يترك للأطفال الحبل على الغارب يعرض صحتهم بل حياتهم للخطر . وكذلك من يحيطهم بصنوف الحذر ليمنع عنهم كل أذى أو توعك ، انما يعدهم لحياة كلها ضعف وفرط حساسية . فانك لن تلازم طفلك وهو رجل كى تحميه من الظروف والحوادث . لذا يجب أن تعده لملاقاتها .

وانى أنصح اذا لم تصب الطبيعة طفلك بأذى فى طفولته ، أن تعمل على تعريضه لشىء من ذلك بطريقة صناعية . وقد تقول لى انى أقع فيما وقع

فيه الآباء الشرار الذين لمتهم أشد اللوم لتضحيتهم بسعادة أطفالهم توقعا لمستقبل بعيد ، ربما لن يعيشوا ليبلغوه أبدا .

وليس الأمر كذلك .لأن الحرية التى أتيحها لتلميذى ستعوضه تعويضا كريما عن المنغصات الخفيفة التى سأتركه يتعرض لها .وكم اتفق لى أن أرى أطفالا صغارا يلعبون فى الثلج وقد ازرقت أيديهم وعجزوا عن تحريك أناملهم .وليس هناك ما يمنعهم من الذهاب لالتماس التدفئة .ولكنهم لا يفعلون شيئا من ذلك .ولو أكرهناهم عليه لشعروا بضيق من هـــذا الضغط يزيد ألف مرة على مايجدونه من قسوة البرد .

فما وجه خوفكم اذن ؟أتخافون أن أشقى الطفل بتعريضه لشىء من المتاعب التى يريد بطيب خاطر أن يعانيها ؟انى أسعى لخـــيره فى اللحظة الراهنة اذ أتركه حرا . وأسعى لخيره فى المستقبل اذ أسلحه ضد المتاعب التى يجب أن يتحملها .ولو كان له الخيار أن يكون تلميذى أو تلميذكم، أتظنونه يتردد فى الاختيار لحظة ؟

أتظنون أن هناك سعادة حقيقية ممكنه لأى مخلوق خارج نطـــاق تكوينه الطبيعى ؟ أليست تنحية الانسان عن جميع متاعب جنسه البشرى بمثابة اخراج للمرء من طبيعة تكوينه ؟ .

انى أؤكد أنه لا سبيل لتذوق الخير العظيم الا اذا عرفنا جانبـــا من الشرور الهينة .هذه هى طبيعة الانسان .فاذا كان الجسد على أحسن حال ،فسدت الروح .والشخص الذى لايعرف الألم لايمكن أن يعرف الحنان الانسانى ولا عذوبة الرحمة والشفقة .لأن قلبه لن يتحرك لشىء. ولن يكون اجتماعيا . بل سيكون بين نظرائه وحشا أو مسخا .

أتعلم ما هى أضمن وسيلة لاشقاء طفلك ؟أن تعوده الحصول على كل شىء . فرغباته ستزداد باستمرار بسهولة الترضية . وعاجلا أو آجلا ستجد نفسك عاجزا رغم أنفك عن تنفيذ رغبته .فيصدمه هذا الرفض

الذى لم يتعوده منك ويؤلمه أكثر من الألم الحقيقى للحرمان من رغبته.

انه قد يبدأ بالرغبة فى الحصول على عصاك التى تمسك بها .ثم يطلب منك ساعتك ،وبعدها سيطلب العصفور الذى يطير فى السماء .وان حصل عليه سيطلب النجم الذى يراه يلمع فى القبــة الزرقاء .سيشتهى بالاختصار كل ما تقع عليه عينه . ولن تستطيع تلبية رغباته كلها ما لم تكن الها .

ومن طبع الانسان أن يعتبر كل ما فى استطاعته وكأنه ملكه ، والطفل الذى لا يشتهى شيئا الا حصــل عليه ،سيخيل اليــه أنه مالك الكون . وسينظر الى جميع الناس وكأنهم عبيده . فاذا اضطر أحد الى رفض أى مطلب له ،سيعتبر ذلك الرفض عصيانا لسلطانه .ولن يصدق الاسباب التى نقدمها له لأنه فى سن لاتزن الأمور بميزان العقل والمنطق .فيعتقد أن كل تلك الأسباب تعلات أو معاذير . ويفترض سوء النية فى الجميع . ويشعر بالظلم والغبن شعورا باطلا وهميا ،ولكنه سيورثه الحدة والحقد.

ان الطفل الذى يشعر بالغيظ والحقد وبشهوات لاترتوى لايمكن بأى حال أن يكون سعيدا .وكيف يكون سعيدا ؟انه طاغية ،والطاغية المستبد هو أذل العبيد وأشقى المخلوقات فى آن واحد .

وقد رأيت بنفسى أطفالا تربوا على هذه الصورة .كانوا يطلبون أحيانا أن تقلب لهم البيوت ،أو توضع فى أيديهم العصافير الطائرة ،أو الديوك النحاسية التى فوق قمم الأبراج ،أو أن تقف فرقة عسكرية عابرة ليسمعوا موسيقاها مدة أطول .فاذا لم تستجب مطــالبهم ملأوا الأرض والسماء صراخا وأبوا أن يصغوا لأى ايضاح أو اعتذار .

وكان الجميع من حولهم يبادرون الى ترضيتهم.فيزدادون تعنتا .وتكون حياتهم سلسلة متتابعة الحلقات من المشاكل والألم .والغريب أن شــعور هؤلاء الأطفال هو التحسر على أنفسهم .فهل يعتبر هؤلاء سعداء ؟

ان الضعف اذا اقترن بالتسلط لا يلدان الا الجنون والشقاء ،فالطفل المدلل الذى يضرب المائدة انتقاما منها أو يجلد الحائط ،لن يستريح فى كبره الا اذا استمتع بكفايته من ضرب الناس أو جلدهم .

واذا كانت أفكار التسلط والطغيان تجعل الناس أشقياء منذ طفولتهم، فماذا يكون حالهم حين يكبرون وتأخذ صلاتهم بسواهم فى التشعب والتعقد والتعدد ؟ انهم سيشعرون بعد أن تعودوا انحناء الجميع أمامهم، بأن العالم كله صار يقاومهم ،فيتحطمون تحت ثقل الكون الذين خالوا أنه لا يتحرك الا طوع مشيئتهم .

ان هذا الغرور وهذه الوقاحة وهذا الحمق لن تجر عليهم الا الازدراء والسخرية والاذلال . وسرعان ما يدركون أنهم لايعرفون قدر أنفسهم ولا مدى قوتهم الحقيقية . واذ يرون أنهم لا يستطيعون كل شيء يظنون أنهم لا يستطيعون شيئا ، فيمسوا جبناء ، عديمى الثقة فى أنفسهم، ويتبدد الاحساس بالسيطرة احساسا بالذل والمهانة والعجز والهوان .

فلنرجع الى القاعدة الأولية .ان الطبيعة قد جعلت الأطفال على صورة تتطلب أن نحبهم ونساعدهم .ولكن أتراها برتهم على صورة تجعلهم مرهوبين مطاعين ؟

هل منحتهم الطبيعة مؤهلات السيطرة ،من جهامة الوجه وقسوة النظرة ،وخشونة الصوت وجهارته ،حتى نخشاهم ونخضع لسلطانهم ؟.

انى أفهم أن ترتعد الحيوانات ذعرا من زئير الاسد ،وأن ترتعد فرقا من لبده .ولكن ليس أدعى للسخرية والضحك من منظر هيئة من القضاة، ورئيسهم فى مقدمتهم ،وعليهم مسوح التشريفة ،وقد خروا ساجدين أمام طفل فى مهده ، وراحوا يخطبون وده متملقين اياه بالخطب الرنانة ،وهو لا يجيبهم الا بالصراخ ورذاذ اللعاب ! .

واذا نظرنا الى الطفولة في حد ذاتها ،فهل نجد في الدنيا مخلوقا أضعف ، أو أشقى ، أو أعجز أو أقل حيلة من الطفل وهو تحت رحمة كل من يحيطون به ،أشد مايكون حاجة الى الشفقة والعناية والرعاية والحماية ؟.

أليس واضحا لكل ذى عينين أن الطفل يطلع على الدنيا بوجه لطيف رقيق ،وصورة محببة تستهوى قلب كل من يقترب منه وتستدر عطفه عليه ،فيرق له ويهش ويقدم على مساعدته ؟

أى شىء اذن أبعد عن العقل ،وأمعن فى الخطل ،من أن ترى طفلا متغطرسا متحكما متمردا ،يأمر وينهى فى كل من حوله ،يتخذ فى غير حياء سمت المولى المتسلط ،ومع من ؟مع الذين لو تخلوا عنه لهلك لا محالة ! .

ومن جهة أخرى ،من ذا الذى لا يرى أن ضعف الطفولة الأولى يكبل الأطفال من وجوه كثيرة ؟ أفليس من الهمجية اذن أن نضيف الى تلك الوجوه الفعلية وجها جديدا هو الخضوع لنزواتنا .. بأن نحرمهم من حريتهم الطبيعية الضئيلة ، وهم عاجزون عن اساءة استعمالها ،فضلا عن أن ما نحرمهم منه ليس فيه نفع لنا ولا لهم ..؟

ولئن كانت غطرسة الأطفال وتحكمهم وطغيانهم أدعى الاشياء للضحك وأشدها سخافة ،فما من شىء أدعى للاشفاق والرحمة والرثاء ،من طفل تائف .وما دامت العبودية المدنية والاجتماعية تبدأ مع سن الرشد ، فلماذا نتعجل البلاء بأن نرهق الطفل منذ حداثته بالعبودية الشخصية والرق الذاتى ؟ .

أليس من الخير أن نجعل فترة من العمر معفاة من نير العبودية ؟ ألا يكفى أن هذا النير ليس مفروضا علينا من الطبيعة ؟ .

فلنترك للطفولة ممارسة الحرية الطبيعية ،تلك الحرية التي تبعد الأطفال ولو الى حين عن الرذائل التي نصاب بهـــا حتما تحت نير العبـــودية . وليتفضل أولئك المؤدبون القساة وأولئك الآباء الخانعون لأطفالهم ، وليأتوني باعتراضاتهم على آرائي ،ولكن أوصيهم قبـــل أن يختـــالوا بحججهم الواهية التافهـــة وأساليبهم السقيمة ،أن يتتلمـــذوا قليلا على الطبيعة الحكيمة ..

لا تجادلوا الأطفال

وأعود الى التطبيق العملى .فأذكر بما قلته آنفا من أن الطفل لا يجوز أن يحصل على شيء لأنه يريده ، بل لأنه فى حاجة اليه . ولكن يجب أن نراعى أنه اذا كان الألم أحيانا ضرورة لابد منها للحيـاة ، فان اللذة أو السرور قد تكون أحيانا حاجةحيوية .وما من رغبة للأطفال يمتنع علينا تلبيتها الا رغبتهم فى فرض سلطانهم .ويترتب على هذا أننا ينبغى أن نفطن جيدا حينما يطلب الطفل شيئا الى الباعث الذى يحمله على طلبه . فان كان الطلب لحاجة أو للذة حقيقية فلنبذل وسعنا لاجابته .أما اذا كان الطلب عن نزوة أو لمجرد التحكم وفرض الرأى ،فيجب أن نرفضه دائما.

وكذلك يجب أن نحذر من أن يقوم الطفل بأى عمل لمجرد الطاعة، ولكن لضرورة ذلك العمل فحسب . وهكذا تمحى من قاموسه ألفاظ الطاعة وألفاظ الواجب والالتزام . وتثبت فى مكانها من قاموسه ألفاظ القوة والضرورة واللزوم والعجز والاضطرار .

وقبل سن الرشد لا توجد معان لهذه المقولات الاخلاقية ولا للعلاقات الاجتماعية ، ولهذا يجب تحاشى استخدام هذه الألفاظ التى تعبر عنها ما وسعنا ذلك ،خوفا من أن يقرن الطفل تلك الألفاظ بمدلولات خاطئة قد تعجز عن القضاء عليها فيما بعد .

ان أول فكرة خاطئة تتسرب الى رأس الطفل ستكون هى جرثومة الخطأ والشر والعيب . فيجب الحذر كل الحذر من تلك الخطوة الأولى. واعملوا على الا يفطن فيما حوله من جميع النواحى الا لما هو بدنى أو مادي . أما اذا أخذتم فى التحدث اليه عن أمور غير مادية .فثقوا أنه لن

يلقى بالا الى ما تقولون ،أو سيفعل ما هو أسوأ ،فيكون في ذهنه للعالم الاخلاقي والروحي الذى تتحدثون عنه مفهومات خرافية لن تستطيعوا محوها من ذهنه مدى الحياة .

ان مجادلة الأطفال هي مبدأ لوك الأساسي . وهو المبدأ الشائع في هذه الأيام .ولكن رواجه لا يبدو لى حافزا على الثقة به ولم أر فى حياتي شخصيا أسخف من الأطفال الذين أكثروا من الجدل معهم .فان العقل هو ، من بين ملكات الانسان ، جماع جميع الملكات الأخرى .وهو أيضا أبطأ تلك الملكات وأصعبها نموا .فكيف يمكن أن نستخدمه لتنمية الملكات الأخرى السابقة عليه فى النشأة وفى النضوج ؟

ان معجزة أى تربية فاضلة هي تكوين شخص عاقل .فكيف يمكن أن يزعم الزاعمون أنهم يربون الطفل بالعقل الذى لا يتم للرجل الا بعناء ؟ان ذلك لهو الابتداء بالنهايات ،أو الاقدام على صناعة الآلة من نتاجها !

فلو أن الأطفال ذوو ادراك وعقل حقا ، لما كانوا بحاجة الى تربية .ثم اننا اذا خاطبناهم منذ صغرهم بلغة لايفهمونها ،تعودوا التعامل بالألفاظ الجوفاء من غير تفطن الى مدلولاتها ،ولخالوا أنهم حكماء مثل أساتذتهم، ولشجعهم ذلك على الشقاق والتمرد .ولن يمكن الحصول منهم على شيء بعد ذلك الا اذا أرضينا غرورهم أو قرنا الجدل بالتخويف أو الاطراء .

واليكم صورة لما يمكن أن تنتهى اليه جميع دروس الأخلاق التى تلقى أو تلقن للأطفال .

الاستاذ

— يجب ألا تصنع هذا .

التلميذ

— ولماذا يجب ألا أصنعه ؟

الاستاذ

— لأنه عيب أن تفعله .

التلميذ

— عيب ؟ وما هو العيب ؟

الاستاذ

— هو ما يحرم عليك عمله .

التلميذ

— وما الضرر من عمل ما يحرم على عمله ؟

الاستاذ

— انك تعاقب للعصيان .

التلميذ

— سأفعله بحيث لا يعلم أحد به .

الاستاذ

— سيراقبونك .

التلميذ

— سأتخفى .

الاستاذ

— سيسألونك .

التلميذ

— سأكذب .

الاستاذ

— لا يجوز أن تكذب .

التلميذ

— ولماذا لا يجوز أن أكذب ؟ .

الاستاذ

— لأنه من العيب أن تكذب .. وهلم جرا .

* * *

وهكذا يدور الجدل فى حلقة مفرغة .ان خرجت منها لم يستطع الطفل أن يفهمك .وانى مشتاق أن أعرف ماذا يمكن أن يوضع بدلا من هـذا الحوار .وأنا واثق أن لوك نفسه كان حريا أن يضيق ويشعر بالاحراج من هذا الجدل .والحقيقة أن معرفة الخير والشر ،والاسباب التى تقوم عليها الواجبات الاخلاقية للانسان ،ليست مطلقا من شأن الطفل .

ان الطبيعة تريد أن يكون الأطفال أطفالا قبل أن يصبحوا رجالا .فان كنا نريد أن نقلب هذا الوضع .فسوف ننتج ثمارا قبل أوانها ، ليس فيها نضوج ولا نكهة ،ولا تلبث هذه الثمار الفجة أن يدب اليها الفساد، نحصل على علماء شبان هم فى الواقع أطفال مسنون .وللطفولة أساليبها فى النظر والتفكير والاحساس ،لايمكن الاستعاضة عنها .فمن الخرف والعنت أن نحاول استبدال وسائلنا بتلك الوسائل .وقد يكون أقرب الى نفسى أن أطالب للطفل بفراهة فى الطول تبلغ خمسة أقدام ،من أن أطلب له عقلا جدلا فى سن العاشرة .ثم ماذا يجديه العقل الجدل فى تلك السن ؟ ان العقل هو فى الواقع لجام للقوى والملكات .والطفل لا حاجة به الى هذا اللجام .

انك اذ تحاول أن تقنع تلاميذك بواجب الطاعة ،تقرن هذا الاقنـاع المزعوم بالقوة وبالوعيد ،أو بما هو شر منهما ، ألا وهو التزلف والوعود. وهكذا يجد الأطفال أنفسهم اما منقادين بالمطامع والمنافع أو مكرهين بالقوة والضغط ،فيتصنعون الاقتناع بالفعل والمنطق .فهم فى الحقيقة يرون أن الطاعة أجدى عليهم ،وأن العصيان أضر بهم .ولكن مادمت لا تطالبهم الا بشيء كريه الى نفوسهم ،فانهم على كل حال سيجدون غضاضـة فى

تنفيذ رغبات الغير باستمرار ،وسيعمدون الى الاستخفاء كي ينفذوا رغباتهم ،مقتنعين بأنهم أحسنوا صنعا ما دام أحد لا يدرى ماذا فعلوا ويكونون أيضا مستعدين للاقرار بأنهم أخطأوا اذا ضبطهم أحد ،خوفا من التعرض لأذى أكبر .

ان منطق الواجب لا يلائم سنهم .وكل ماهناك أن الخوف من العقاب والأمل فى الصفح ،والمفاجأة ،والعجز عن الاجابة ،كل ذلك ينتزع منهم الاعترافات المطلوبة . فيظن المرء أنه أقنعهم ، مع أنه ضايقهم ، وأخافهم .

وماذا يترتب على ذلك ؟ .

يترتب عليه أولا ،انك اذا فرضت عليهم واجبا لا يميلون اليه ،سيشعرون بالضيق من طغيانك ،وينصرفون عن محبتك .بل وستعلمهم أيضا الرياء والخداع ،والكذب ،كى ينتزعوا منك المكافأة أو يتهربوا من العقاب.ومتى تعلموا أو تعودوا تمويه دوافعهم الخفية بدوافع ظاهرية ، مهدت لهم الوسيلة بنفسك كى يستغفلوك دائما ،ويخفوا عنك حقيقة اخلاقهم وطباعهم ،معتمدين على قدرتهم على التخلص فى الوقت المناسب بكلمات جوفاء .

وقد يقال ان القوانين مع أنها ملزمة بذاتها للضمير ، الا أنها تستخدم كذلك للضغط والرهبة مع الرجال البالغين ، وأنا مسلم بهذا . ولكن من هم هؤلاء الرجال ؟ما هم الا أطفال أفسدتهم التربية الخرقاء !وهذا الافساد الذى يجعل الطفل حين يكبر مناهضا للقانون بأخلاقه وطباعه ، هو الذى أنادى بوجوب توقيه . ولذا أقول لكم استخدموا القوة مع الأطفال والعقل مع الرجال ،فهذا هو نظام الطبيعة وترتيبها .والحكيم ليس بحاجة الى قوانين .

عاملوا التلميذ بما يوافق عمره .وضعوه أولا فى مكانه الطبيعى ، ولا تحاولوا اخراجه منه ، ولا تسمحوا له بالخروج منه .

وقبل أن يعرف ما هي الحكمة ،سيمارس التلميذ أهم درس من دروسها .لا تأمروه مطلقا بشيء مهما كان .ولا تدعوه حتى أن يتصور أنكم تزعمون لأنفسكم أى سلطان عليه .فليعلم فحسب أنه ضعيف وانكم أقوياء . وانه بحكم ذلك الوضع تحت رحمتكم بالضرورة .ليعلم هذا وليتعلمه وليشعر به .نعم فليحس منذ وقت مبكر بوطأة نير الطبيعة الثقيل الذى تفرضه الطبيعة على الانسان ،وهو نير الضرورة الذىلابد أن ينوء به كل منا .وليشهد تلك الضرورة فى الأشياء ، لا فى بدوات الرجال على الاطلاق . وليكن اللجام الذى يحتجز هو القوة لا السلطة. على أن الطفل يعتبر كل ارادة مناهضة لارادته نزوة ،اذا لم يعرف لها سببا .

أما ما يجب أن يمتنع عن اتيانه ، فلا تحرمه عليه بالكلام ،بل امنعه من عمله بغير ايضاح ، وبغير مجادلة . وما تريد أن تسمح له به اسمح له به عند أول طلب منغير الحاح أو توسل . بل وعلى الأخص من غيرشروط .

اذا سمحت فعن طيب خاطر ،واذا رفضت فعلى مضض .ولكن اجعل رفضك دائما قاطعا لا رجعة فيه .ولا تتزحزح أمام توسلاته أو تهديداته. ولتكن كلمة «لا» سورا من الفولاذ تبدد جهود الطفل دون التأثير فيه ، وبهذا لن يحاول بعدها أن يتصدى لتغيير تلك الكلمة .

انك بهذا تجعله انسانا صبورا ،مستقر النفس ،هادئا ،حتى ولو لم يحصل على ما كان راغبا فيه . فمن طبيعة الانسان أن يتجلد صابرا لضرورات الأشياء ،وللضرورة أحكامها النافذة كما يقولون ،ولكن ليس من طبيعة الانسان أن يتجلد صابرا لتحكم ارادة الغير السيئة فيه .

ان عبارة مثل :

ــ لقد نضب هذا الشيء ولم يعد عندنا منه .

لا يمكن أنتدفع طفلا سويا للتمرد الا اذا اعتقد أنها أكذوبة . ثم انه

لا مجال هنا لحل وسط .فاما ألا تطالبه بشيء مطلقا ، واما أن تحمله على الطاعة التامة منذ البداية . وأسوأ تربية على الاطلاق هى أن تترك التلميذ متأرجحا بين ارادته وارادتك ،وبين أهوائه وأهوائك ،وأن ينشب النزاع بينكما باستمرار على من منكما يكون السيد المطاع . فانى أفضل على ذلك ألف مرة أن يكون هو السيد فى جميع الاحوال .

لا ينبغى أن نلقن التلميذ دروسا لفظية .فالتجربة وحدها هى التى يجب أن تتولى تعليمه وتأديبه .فالتربية الأولى ينبغى اذا أن تكون تربية سلبية خالصة .ولا يجب أن يفوتنا أمر مراقبة طبيعة الطفل وسلوكه كى نكشف بدقة عن المزاج الخاص للتلميذ .

ولما كانت تربية اميل تتم بعيدا عن طغمة الخدم ،فسوف لا يكتسب عادات وبيلة . ومع هذا فليس من الممكن ابعاده ابعادا تاما عن القدوة السيئة .ولكن تعرضه للقدوة السيئة أحيانا ليس شرا محضا . اذ يكفى أن نجعل تلك القدوة تبدو له مقيتة ومنفرة .

ان أولواجباتنا هى واجباتنا نحو أنفسنا واحساساتنا الأولية تتركز فى ذواتنا ، وحركاتنا الطبيعية تتجه أولا الى حفظنا وهنائنا وسلامتنا .

وعلى ذلك يكون أول شعور بالعدل ليس شعورنا بما يجب علينا بل آتيا من شعورنا بما يجب لنا .وانها لاحدى تخبطات التعليم الشائع والتربية السائدة أن يكلموا الأطفال أولا عن واجباتهم ولا يحدثوهم مطلقا عن حقوقهم .فهم بهذا يبدأون بقول عكس ما ينبغى ،ولهذا لا يستطيع الأطفال أن يفهموا ما يقال لهم . فهم لا يفهمون ما لا يعنيهم ويثير اهتمامهم .

ولو كان الأمر بيدى أنا لحدثت نفسى قائلا :

— ان الطفل لا يهاجم الناس .ولكنه يهاجم الأشياء .وسرعان مايتعلم بالتجربة أن يحترم كل من هو أكبر منه سنا وقوة.ولكن الأشياء لاتستطيع الدفاع عن نفسها .فأول فكرة يجب تلقينها له ليست الحرية بل الملكية . ولكى يستطيع ادراك هذه الفكرة ،يجب أن يكون لديه شىء يملكه لنفسه خاصة .

وليس المقصود بتمليك الطفل هنا أن نعين له أثاثا ولعبا . فهذا لا يعنى شيئا لديه . فانه مع استعماله لهذه الأشياء لايدرى لماذا ولا كيف

صارت ملكا له .فان قلنا له آنها ملك له لأنها أعطيت له ،فليس فى ذلك مزيد من الايضاح لأن من يعطى شيئا يجب قبل هذا أن يملك الشيء . فكأن من أعطاه الشيء كان يملكه من قبله .ومبدأ الملكية بالذات هو ما يراد توضيحه له . فضلا عن أن الهبة مواضعة اصطلح عليها المجتمع ، والطفل ليس فى سن تسمح له بعد بفهم ما هى المواضعات .

وأرجو من القراء أن يلاحظوا فى هذا المثل بالذات وفى مائة ألف مسألة مشابهة لهذه ، كيف أن رأس الطفل قد يحشى حشوا من الألفاظ التى لا معنى لها اطلاقا لديه ، ثم يظن مع ذلك أننا أحسنا تثقيفه .

فيجب اذن الرجوع الى الأصل فى الملكية .فهناك سنجد الفكرة الأولى التى نبتت منها الملكية .وما دام الطفل قد عاش فى الريف ،فلابد أنه سيعرف ان لم يكن يعرف فعلا معلومات عن الأعمال الزراعية . فليس يلزم للاحاطة بهذه المعلومات الا الفراغ ،وعينان .والطفل له هذا كله .ومن شأن الانسان ولا سيما فى مرحلة الطفولة أن يميل الى الخلق والتقليد والانتاج ،والاعراب بذلك عن قدرته ونشاطه .فمن المتوقع أن الطفل حين يرى من يزرعون الحديقة وهم يبذرون ويتعهدون الخضراوات ،أن يرغب فى زراعة جزء من الحديقة بنفسه .

وعلى أساس المبادىء التى بينتها آنفا سوف لا أعارض هـذا الميـل فيه ، بل بالعكس سأشجعه ، وسأقاسمه هوايته وأعمل معه ، لا للذته هو بل للذتى أنا .أو على الأقل هذا ما سأجعله يعتقده .فأصبح معاونه فى فلاحة البستان وأقلب معه الأرض بالفأس حين تعجز ذراعه عن ذلك . ثم يزرع حبة فول .ويتعلم معنى الملكية بهذا العمل .ولا شك ان احساسه بملكية هذه النبتة أقدس وأشد احتراما عنده من احســـاس المكتشفين بملكية الاراضى المكتشفة لدولهم لمجرد قيام المكتشفين بغرس أعلام تلك الدول فى تربتها .

وطبعا سيعود الطفل لرى الفول ،وكلما رآه يرتفـع تملكه السرور العظيم .فأزيد من سروره بأن أقول له :

— هذا ملكك .

وأشرح لهعندئذ لفظ الملكية ،وانهثمرة لما بذله منوقت ومن عملومن جهد ،أى أنه ثمرة لما بذله من نفسه فىانتاج ذلك الشيء .ففي هـذه البقعة من الأرض جزء من نفسه يحق له أن يطالب به ضد كائن من كان، كما يحق له أن يسحب ذراعه من يد رجل آخر يريد الاحتفاظ به رغم ارادته .

وذات يوم يأتى اميل مسرعا متلهفا والرشاشة فىيده.ولكن ياللمصيبة! لقد اقتلعت جميع نباتات الفول ،وقلبت الأرض ظهرا لبطن ،ولميعد أحد يعرف معالم الموضع .

— آه !أين ذهب عملى وانتاجى وثمرة رعايتى وعرقى ؟من الذى سلبنى ملكى ؟من أخذ فولى ؟

ان قلبه الصغير ثائر .وهذا أول احساس لهبالظلم يرسب فيه مرارته الأسيفة .وها هىالدموع تنهمر مدرارا ،والطفل المحزونيملأ الجو بأنينه وصراخه . فأشاركه فىألمه واستنكاره .وأبحث وأستخبر وأحقق .وأخيرا أكتشف أن البستانى هو الذى فعل هذه الفعلة .فأستدعيه .

وعندما يعرف البستانى الموضوع ، يجأر بالشكوى أكثر منا :

— ما هذا أيها السادة ! هل أنتم الذين أفسدتم عملى ؟لقـد كنت زرعت فى هذا المكان شماما مالطيا لم أحصل على بذرته الا بعناء شديد وكنت أحرص عليها كأنها كنز لا يعوض ،راجيا أن أتحفكمبثمارها عندما تنضج .ولكنكم فى سبيل زراعة هذا الفول الحقير ،أتلفتم زراعتى .ولن أستطيع تعويضها .انكم آذيتمونى أذى لا يمكن اصلاحه ،بل وحرمتم أنفسكم من فاكهة شهية .

جان جاك

— اسمح لى يا عزيزى روبير أن أقول لك انك وضعت هنا عملك وجهدك وتعبك .وأنا مقتنع اننا أخطأنا حين أفسدنا عملك .ولكننا سنأتيك ببذرة أخرى من ذلك الشمام .وسوف لا نزرع بعد هذا أرضا قبل أن نعرف هل وضع أحد يده عليها قبلنا أم لا .

روبير

— اذن أيها السادة يحق لكم أن تركنوا للراحة ،لأنه لم تعد فى الحديقة قطعة أرض خالية من زراعة .وجميع الأراضي التى ترونها مشغولة بالزارعين .

اميل

— ياسيدى روبير . هل تضيع عليكم بذور كثيرة من الشمام ؟ .

روبير

— عفوك أيها الشاب الصغير .ولكننا لا نرى هنا كثيرين من السادة الصغار الذين يفعلون ما فعلت .فلا أحد هنا يمس حديقة جاره . وكل واحد يحترم عمل الآخرين حتى يظل عمله مصونا فى أمان .

اميل

— ولكن أنا ليس عندى حديقة .

روبير

— وما أهمية ذلك ؟اذا أفسدت حديقتى فسوف لا أسمح لك بالتنزه فيها . لأنى كما ترى لا أحب أن يضيع تعبى سدى .

جان جاك

— آلا يمكن أن نقترح على روبير تسوية مناسبة ؟لماذا لا يمنحنى أنا وأنت يا اميل ركنا من حديقته نزرعه على أن يكون له نصف المحصول ؟.

— أوافق بلا تحفظ .ولكن تذكروا أننى سأحرث فولكم اذا مسستم شمامى . ليكن هذا مفهوما .

* * *

هكذا تكون محاولة تفهيم الأطفال عمليا المعلومات الأولية .وبهذا سيرى كيف تنتهى فكرة الملكية بطبيعتها الى حق أول من شغل الارض بعمله . وهذا معنى واضح بسيط ، وفى متناول الطفل دائما . وليس بين هذا المعنى وبين ادراك حق الملكية ونظرية التبادل التجارى الا خطوة واحدة ،وبعدها يجب الوقوف عند ذلك الحد فى تعريف الطفل بالملكية.

وواضح أيضا أن الشرح الذى بينته هنا فى سطور ربما يستغرق تنفيذه العملى سنة من الزمن . لأن المعانى الاخلاقية والافكار الادبية والمعنوية يجب تكوينها وتنميتها ببطء شديد جدا مع التثبت من رسوخ كل خطوة .

أيها المعلمون الشبان ! أرجوكم أن تفكروا فى هذا المثل .وتذكروا أن جميع دروسكم من جميع النواحى يجب أن تكون بأعمال لا بأقوال .لأن الأطفال ينسون بسهولة ما قالوه وما يقال لهم .ولكنهم لا ينسون بسهولة ما عملوه وما عمل بهم .

وهناك مسائل مماثلة يجب الاهتمام باعطائها للطفل قبل هذه المسألة أو بعدها على حسب التقدم الطبيعى للطفل ، ومدى هدوئه أو حيويته . فهذه العوامل الطبيعية هى التى تبكر بحاجته الى هذه المعلومات أو تؤخرها . ولكن حتى لا نكون قد أغفلنا أى شىء هام فى هذه الأمور الصعبة ،سنقدم مثالا آخر .

لنفرض أن طفلك مشاكس يفسد كل ما يمسه بيده .لا تغضب منه .بل ضع بعيدا عن متناول يده كل ما يمكن أن يفسده .وان كان يحطم الأثاث

الذى يستخدمه فلا تبادر الى اعطائه أثاثا جديدا . بل دعه يحس بضرر الحرمان منه .وان كان يحطم نوافذ حجرة نومه الزجاجيــة ،فدع الريح تهب عليه ليلا ونهارا غير مكترث بما يصيبه من نزلات البرد ، لأنه من الخير ألف مرة أن ينشأ مزكوما من أن ينشأ مجنونا أو معتوها .

لا تتذمر مطلقا من المضايقات والمقلقات التى يسببها لك ، ولكن اجعله هو يشعر بآثارها أكثر منك ، وأخيرا أصلح زجاج النافذة من غير أن تقول كلمة واحدة فى الموضوع . فان عاد الى تحطيمها ، فقل له بجفاء ولكن بلا انفعال :

— النوافذ ملكى أنا .فقد أنشأتها بعنايتى وجهودى .وأريد أنأصون سلامتها .

ثم بعد ذلك خذه بهدوء واحبسه فى الظلام فى مكان ليست به نوافذ. وبطبيعة الحال سيفاجأ بتلك التجربة الجديدة ويبدأ فىالصياحوالصراخ كأنه زوبعة .فلا تدع أحدا يظهر أنه يسمعه .وسرعان ما يملويغير لهجته. ويأخذ فى البكاء والتحسر على نفسه والأنين. فاجعل خادما يذهب اليه . فينتهز المتمرد الفرصة ويتوسل اليه أن يطلق سراحه وينقذه من الحبس. وعلى الخادم الا يتعلل بأى عذر ، بل يقول له صراحة وبايجاز :

— أنا كذلك عندى زجاج فى نافذتى يهمنى أن يبقى سليما .

ثم يتركه وينصرف .وبعد أن يقضى الطفل بضع ساعات ينهكه فيها الملل ويتذكر اثرها طويلا ،يقترح عليه أحد الخدم أنيعرض عليكالاتفاق على معاهدة تطلق بموجبها سراحه ،على أن يتعهد بعــدم كسر الزجاج . وطبعا سينتهز هذه الفرصة ويتوسل اليك أن تقابله . فاذهب اليه وليقدم اليك اقتراحه وعليك أن تقبله فورا وتقول له :

— هذا تفكير سليم .وسنكسب منه كلانا .لمــاذا لم تفكر فى تلك الفكرة الجميلة من قبل ؟ .

ولا تطلب منه أيمانا مغلظة ولا توكيدات لوعده ، بل قبله بسرور وخذه في الحال الى حجرته ،واعتبر ذلك الاتفاق مقدسا غير قابل للنقض كأنه أقسم عليه أغلظ الايمان .

وماذا تظن أنه سيفيد من سلوكك هذا ؟؟ انه سيدرك قيمة التعهدات ومدى منفعتها .أليست هذه التعهدات نقلت حالته من النقيض الى النقيض ؟

وأخالني مخطئا جدا لو أن طفلا واحدا على وجه الأرض كلها ،بشرط ألا يكون أفسده التدليل من قبل . يمكن بعد مثل تلك التجربة أن يقدم على كسر زجاج نافذة عمدا .

تأملوا تسلسل هذا الاسلوب في المعاملة .

* * *

ولا أحب أن أترك هذا الموضع من غير أن أنبه الى مسألة هامة جدا . لا تسمحوا مطلقا للطفل أن يعامل الكبار كأنهم أقل منه أو أنداده ،فاذا تجاسر على ضرب أحدهم جادا ، حتى ولو كان خادمه الخاص ، فاحرص على أن يرد اليه الصاع صاعين ، بحيث يتوب عن هذا الفعل ولا تحدثه نفسه بالرجوع اليه .

وقد رأيت بعيني مربيات طائشات يستثرن غضب الأطفال ،ويحفزنهم على ضربهن ، ويتركنهم يضربونهن ،ضاحكات من لكماتهم الضعيفة ،غير مدركات أن هؤلاء الأطفال يكونون عندئذ قتلة سفاحين من حيث النية والطوية ،وان من يضرب الناس وهو صغير ،يقدم على قتلهم وهو كبير.

* * *

وها نحن أولاء قد وصلنا الى دنيا الاخلاق .وبمعنى آخر ها هو الباب أضحى مفتوحا أمام الرذيلة .فمع المواضعات والواجبات تولد الخديعة وتولد الاكذوبة . ومتى استطاع المرء أن يعمل ما يجب الا يعمله ، فسيسعى الى اخفاء ما لم يكن ينبغي أن يفعله . ومتى أغرت مصلحة المرء

أن يقطع على نفسه وعدا ،فمصلحة أكبر من الأولى يمكن أن تغريه بالحنث بوعده .ولن يكربه العقاب على الحنث ،فهناك ملاذ طبيعى من العقاب ، وهو التستر والكذب .

وما دمنا لم نستطع التوقى من الرذيلة قبل وقوعها ، فها نحن قد وصلنا الى درك العقاب عليها بعد حدوثها .وهذه هى مأساة الحياة البشرية وأنواع نكباتها التى تبدأ كلها من هذا الخطأ الأول ،خطأ ترك الرذيلة تتسرب الى الطفل .

وأظننى قلت مافيه الكفاية للافصاح عن دعوتى ألا يصب على الأطفال عقاب من حيث هو عقاب ، بل يجب أن يحدث العقاب لهم كما لو كان نتيجة طبيعية لسوء فعلهم . وبذلك يجب ألا تنددوا بالكذب ، ولا أن تعاقبوهم لأنهم كذبوا ، بل ترتبوا الأمور بحيث ان جميع الآثار السيئة للكذب تتجمع فوق رؤوسهم ،كأن لا يصدقهم أحد حين يقولون نبأ ،وأن يتهموا بذنوب لم يقترفوها وان دافعوا عن أنفسهم بحرارة . ولكن لنبين أولا ما هو الكذب عند الطفل ...

هناك نوعان من الكذب : كذب ينصب على الواقع ،أو على ماوقع فعلا .وكذب ينصب على النية ،أو على ما سيقع مستقبلا . والنوع الأول هو أن ينكر الطفل عملا قام حقا ،أو يدعى عملا لم يقم به حقا .أو بعبارة أخرى أن يقول الطفل خلاف الواقع قصدا وعن علم ودراية .والنوع الثاني هو أن يعد الطفل بما فى نيته ألا يقوم به ، أو بعبارة أخرى أن يظهر الطفل خلاف نيته .وقد يجتمع النوعان أحيانا فى عبارة واحدة ،كأن يتهم الطفل بخطأ معين ،فينفى أنه فعله ويدافع عن نفسه بانه برىء شريف . ولكن الذى يعنينى الآن هو الفرق بين النوعين .

ان من يحس بحاجته الى مساعدة الآخرين له ،ويشعر دائما بحسن نيتهم نحوه ،لامصلحة له فى خداعهم .بل بالعكس لديه كل المصلحة فى

أن يروا أموره كما هي ، حتى لا يخطئوا خطأ يسيء اليه . فواضح اذن أن الكذب الفعلي برواية خلاف الواقع ليس طبيعيا في الأطفال .ولكن قانون الطاعة هو الذي يثمر الكذب بالضرورة .ذلك ان الطاعة مؤلمة ،فيعمد الطفل الى التحلل منها في الخفـاء قدر استطاعتـه .ثم يغلب المصلحة العاجلة الحاضرة في التهرب من العقاب ،على مصلحته الباقية أو البعيدة المدى في قول الحقيقة .

اما اذا كانت تربيتك له طبيعيةوحرة ،فلماذا اذن يكذب .وماذا يحتاج أن يخفيه عنك ؟انك لا تؤنبه ، ولا تعاقبه ولا ترغمه على شيء .فلماذا لا يقول لك كل ما فعله بكل بساطة ، كما يرويه لصديق من سنه ؟ انه لا يرى خطرا في رواية الأمر لك على وجه دون الآخر ...

اما الكذب بالنية ،أو الختل ،فليس طبيعيا أيضا .لأن الوعود بالعمل أو بالامتناع ان هي الا مواضعات خارجة عن نطاق الطبيعة ،ومقيدة للحرية . ثم ان كل وعود الأطفال باطلة من تلقاء نفسها ، ذلك أن نظرهم القاصر لا يمكن أن يتجاوز نطاق الحاضر . وهم حين يقطعون وعودا على أنفسهم لا يعرفون ما همفاعلون .ولهذا فهم لايعتبرون كاذبين حين يعدون بشيء ،لأنهم لايفكرون الا في الخلاص من الموقف الحرج حاليا . وكل وسيلة لا علاقة لها بالوقت الحاضر ليست لها قيمة فينظرهم .فهم حين يعدون بشيء يتعلق بالمستقبل ،يعدون بشيء معدوم ،أو بلا شيء .لأن مخيلتهم القاصرة لا تستطيع أن تمد وجودهم الى زمانين مختلفين .ولو أنهم وجدوا وسيلة النجاة من الضرب أو الحصول على قطعة حلوى هي الوعد بالقاء أنفسهم من النافذة غدا ،لما ترددوا في الوعد بذلك .ولذا عندما يصر الآباء والاساتذة القساة على أن ينفذ الأطفال وعودهم ،فلا يكون ذلك بسبب الوعد ،بل لأن تلك الافعال كانيجبأن يفعلوها على ذلكالنحو ،حتىولو لميسبق منهم فيها وعد .

ويترتب على ما سبق أن كذب الأطفال انما هو ثمرة أساليب الاساتذة، التى تعلمهم الكذب من حيث يراد تعليمهم الصدق . وللهفتهم على تعليم تلاميذهم وتكميلهم بالفضائل ،يصبون عليهم مواعظ وأمثالا لا أساس لها عند الطفل من الادراك أو التجربة ،ووصايا لا سند لها ولا مبرر ..

اما أنا ، فليست طريقتى فى التربيـة الا الممارسة العملية للحيـاة ، والدروس العملية للفضيلة ،ومرادى أن يشب تلميذى طيبا فاضلا ومتعلما. ولذا لا أطالبه مطلقا بالصدق ، حتى لا يضطر الى اخفاء الحقيقة ، ولا أطالبه أن يعدنى بعمل شيء ، خوفا من أن يحنث بوعده . واذا حدث فى غيابى أى خطأ أجهل فاعله ، فسأتحرج أن أسأل اميل :

— أهو أنت ؟.

فليس لسؤالى هذا فائدة الا أن أعلمه الانكار . وما من سؤال أشد ثقلا من هذا السؤال ولا سيما حين يكون الطفل مذنبا .لأنه سيدرك فورا انك تعلم أنه الفاعل ،وانك بهذا السؤال انما تنصب له فخا .وهذا وحده كاف لتغيير قلبه عليك واذا لم يبد عليك أنك تعرف الفاعل،فسيقول فى نفسه « ولماذا أطلعه على خطئى مادمت أستطيع كتمانه عنه ؟ » وهذا أول اغراء له بالكذب .

وحينما تضطرنى طبيعته الشموس أن أعقد معه اتفاقا ، سأعد خطتى بحيث يصدر الاقتراح منه هو دائما .لامني اطلاقا .لأنه عندئذ سيكون صاحب مصلحة في البر بوعده .واذا حدث أن حنث ،سيشعر أن ذلك جر عليه آثارا طبيعية لخطئه ، لا انتقاما جائرا من مربيه .

ولكنى لا أظننى سأضطر الى مثل تلك الاجراءات القاسية ، لانى أعتقد أن اميل لن يتعلم ما الكذب الا فى وقت متأخر جدا . وانه حين يعرف ما هو سيتعجب جدا ، لأنه سوف لايتصور ماذا يمكن أن يجنى

المرء من الكذب . فمن الواضح أنني كلما أشعرته باستقلاله ، قضيت على كل مصلحة له في الكذب .

وحينما لا يكون الانسان في عجلة من امره للتعليم ،لايكون كذلك في عجلة من أمره للالزام والمطالبة والفرض ،بل يتمهل المرء حتى لايفرض على تلميذه شيئا في غير أوانه .وهكذا يتكون التلميذ من غير أن يفسد كيانه .ولكن عندما يكون المؤدب طائشا ،يتسرع ويتعجل ،ويطالب تلميذه كل آن بوعد جديد ، بلا تمييز ، ولا تخير ، ولا اعتدال ، فيتضايق الطفل من كل هذه الوعود ، ويهملها أو ينساها حقيقة ، بل ولعله يزدريها لما تبدو له بها من شكلية جوفاء ، فيتلهى بالوعد كي يخلفه ، وبالعهد كي ينقضه . فان أردتم للطفل أن يكون أمينا على وعــوده بارا بها ، فلا تفرطوا في اقتضائه الوعود ...

* * *

وما ذكرته بصدد الكذب يمكن تطبيقه من وجوه كثيرة على الواجبات الأخرى التي لا يوصى بها الأطفال عادة الا بطريقة لاتجعل تلك الواجبات كريهة الى نفوسهم فحسب ،بل وعسيرة التنفيذ أيضا .فكأننا حين نبشرهم بالفضيلة ، نحملهم على حب الرذيلة ؛ اذ نقدم اليهم هذه الرذيلة أو تلك حين ننهاهم عنها ،فيذهب التحريم ويبقى التعريف .

اننا مثلا حين نريد منهم أن يكونوا أتقياء ،نأخذهم ليضجروا ويسأموا في الكنائس ، وهم يهمهمون بأدعية وصلوات ، فتتوق أنفسهم طبعا الى سعادة الانقطاع عن التوجه لله بالصلوات ! .

وحين نريد أن نعلمهم الصدقة ، نجعلهم يتولون عنا اعطاء الصدقات للفقراء ،كأننا نأنف أن نقوم بهذا العمل بأنفسنا .وليس الواجب أن يعطى التلميذ الصدقة بل الاستاذ .ومهما كان تعلقه بتلميذه ،يجب الا يسمح له بذلك ، لأنه يجب أن يفهم أنه وهو في تلك السن ليس جديرا بعــد

بهذا الشرف .فالصدقة عمل يقوم به شخص يعرف جيدا قيمة ما يعطيه ، ومعنى حاجة أخيه المحتاج الى ذلك العطاء .والطفل لايعرف شيئا من هذا كله بعد ، فليس له فضل فى اعطاء الصدقة ، وهو اذ يعطيها يعطيها بغير معناها السامى وخيريتها .بل لعله يعطيها وهو يشعر بالخجل من العطاء ، لأنه ربما ظن من تكليفك اياه دواما بذلك أن الأطفال وحدهم هم الذين يتصدقون ، اما الكبار فلا ..

ونلاحظ أن الطفل عادة يكلف باعطاء أشياء لايفقه قيمتها .فما النقود لديه الا قطع من المعدن موضوعة فى جيبه ، وليست لها فائدة فى نظره الا أنها تملأ فراغ جيبه .وأنا واثق أن الطفل قد يعطى مائة جنيه ولا يفرط فى قطعة حلوى .فحاولوا أن تجعلوا هذا السخى فى عطائه يعطى أشياء عزيزة على نفسه ، أثيرة عنده ، لايحب فراقها ، مثل ألعابه ، وحلواه ، وما يتفكه به أو يتخلل الوجبات من طرف الطعام ،وعندئذ سنرى مبلغ كرمه الحقيقى من كرمه المزعوم (١) .

ولاحظت أيضا أنهم يردون بسرعة الى الطفل ما أعطاه ،فيتعود الا يعطى الا ماهو واثق من رده اليه ، أو رد مثله اليه . ولم أر أطفالا يسخون بما فى أيديهم الا هذين الضربين من السخاء :اما باعطاء ما لا حاجة بهم اليه ،أو ما يعلمون أنه مردود اليهم ..فالواجب أن ننظر فى هذه الاخلاقيات الى عادات النفس لا الى حركات اليد .وكل الفضائل التى يعلمونها للأطفال يعلمونها لهم بهذا الاسلوب .وهو أسلوب عكسى . ومع هذا يبلون حداثة الأطفال بتلك المواعظ المسئمة ! فيالها من تربية رشيدة ! .

دعوا هذا التصنع أيها الأساتذة ، وكونوا أنفسكم فضلاء صالحين ،

---

(١) ما أشبه هذا بقول الله فى كتابه الكريم : « ويطعمون الطعام على حبه » الآية

حتى تنطبع قدوتكم الفاضلة الصالحة فى أذهان تلاميذكم ، انتظارا لتسربها الى قلوبهم الغضة ...

وأنا شخصيا بدلا من أن أتسرع فأطالب تلميذى باعطاء الصدقات ، أفضل أن أقوم أنا بالتصدق على مرأى منه ، بل وسأمنعه من تقليدى فى هذا المضمار ، باعتبار هذا العمل شرفا لا يناسب سنه . لأنه يجب الا ينظر الى واجبات الرجال كما لو كانت واجبات أطفال .

ولكن طبعا حين يرانى أتصدق ويسألنى لماذا أساعد هؤلاء الفقراء ، قد أجيبه — اذا قدرت أنه سيفهم كلامى — قائلا :

— المسألة يا صديقى ، انه مادام الفقراء قد سمحوا بأن يكون هناك أغنياء ، فقد وعد الأغنياء أن يطعموا كل من لا يجدون القوت ولا يستطيعون التعيش من أملاكهم أو ثمرة عملهم .

فان سألنى اميل :

— وهل وعدت أنت أيضا بذلك ؟

سأقول له :

— بغير شك ، فأنا لست صاحب ما فى يدى من مال ، الا بهذا الشرط الذى تتعلق به كل ملكية !.

وبعد مثل هذا الحوار ، اذا استوعبه الطفل جيدا ، سيبرز للوجود اميل آخر ، يهتم بتقليدى فى الاحسان قياما بواجب الاغنياء . ولن يكون ذلك بدافع التفاخر ، بل ربما تخفى كى يقدم الاحسان . ومع أن ذلك يعتبر فى سنه خداعا الا أنه الخداع الوحيد الذى أغتفره له .

وأنا أعلم أن كل فضيلة تقوم على التقليد انما هى فضيلة قرود . وما من عمل طيب يعتبر طيبا من وجهة نظر اخلاقية الا اذا قام الانسان به لذاته ، وعن وعى به ، لا لأن الآخرين يقومون به . ولكن فى تلك السن التى لا يعى القلب فيها شيئا ، ولم يحس بعد بشىء ، يحسن أن نجعل الأطفال

يقلدون ما نريدهم أن يتعودوه ،الى أن يأتي الوقت الذى يميزون فيه الخبيث من الطيب ،ويفرقون بين الاشياء ومشبهاتها ،ويقدمون على الاعمال الخيرية حبا للخير ذاته .

ان الانسان مقلد ،وكذلك الحيوان مقلد ،وحب التقليد جعلته الطبيعة فى حدوده شيئا طيبا ،ولكنه يفسد فى المجتمع ويصبح شرا ورذيلة . فالقرد مثلا يقلد الانسان الذى يخشاه ،ولا يقلد الحيوانات التي يحتقرها. لأنه يرى أن ما يفعله كائن أفضل منه لابد أن يكون خيرا . اما نحن معاشر الناس ،فان المهرج منا يقلد كل ما هو جميل ليمسخه ويجعله هزأة .وحتى اذا قلد الواحد منهم شيئا يكن له الاعجاب ،قلده بفساد ذوق ،لأنه تقليد مبعثه التظاهر واستجداء التصفيق ، وليس مبعثه حب الكمال واكتساب الحكمة والفضل .

ان أساس التقليد عندنا صدوره عن الرغبة فى الخروج من الذات ،أى الرغبة فى التظاهر والتصنع .اما أنا ،فان قيض لى أن أنجح فى عزيمتى ، فلن ينطوى اميل على تلك الرغبة .

ان غالبية قواعدنا الاخلاقية مبنية على تناقض .والوصية الوحيدة التى تناسب الأطفال من كل الوجوه هى « الا يسيئوا الى أحد » .. فان جميع الناس يفعلون الخير أحيانا ،ولكن القليلين منهم جدا هم الذين لا يسيئون الى أحد مطلقا .وهؤلاء وحدهم هم الفضلاء بمعنى الكلمة.

دراسة اللغات
ومدى جدواها للطفل

لدى الامهات اتجاه الى المبالغة فى تقدير ذكاء أطفالهن .فى حين أن الأطفال في الأغلب الأعم طائشون ،وذلاقتهم سطحية . ولا يفهمون شيئا الا اذا كانت له صلة مباشرة باهتماماتهم ولمصلحتهم .وفيما عدا هذا لا تكون للافكار أية قيمة لديهم ، ولا يعون منها الا ألفاظا .

أجل هناك استثناءات كبيرة . فمن الأطفال من سخت عليهم الطبيعة كثيرا بحيث تجعلهم فوق المستوى العادى للأطفال بكثير .وكما أن هناك رجالا لا يتجاوزون مطلقا مرحلة الطفولة ، هناك أيضا رجال يمكن أن يقال انهم لم يعرفوا الطفولة يوما ما ، بل كانوا رجالا منذ البداية . ووجه الصعوبة أن هذه الحالات نادرة جدا ،ومن العسير جدا أن تتبينها فى تلك السن . ولكن كل أم تسمع عن نبوغ طفل ، تعتقد أن ابنها فى عداد أولئك العباقرة .وتحسب علائم النمو المعتادة آيات على النبوغ الخارق . مع أن طلاقة لسان الأطفال وبساطتهم وجهلهم العرف والمواضعات مما ييسر لهم الاتيان بكلمة بارعة بين حين وآخر ، وسط ثرثرتهم الكثيرة. فليس ذلك غريبا مطلقا ، ولا خارقا للمألوف . فمثلهم كمثل المنجمين الذين قال عنهم هنرى الرابع :

— انهم يكذبون كثيرا جدا ،فلا عجب أن يصيبوا كبد الحقيقة ذات مرة ، اعتباطا .

ان أروع الأفكار قد تصدر عن ذهن الطفل ، وأحكم الأقوال قد تتساقط من فمه ، ولكن كما تقع أثمن الماسات فى يده ، فلا هو

يعرف قدرها ،ولاهو يملكها .وانما هي صدفة ،أو العوبة .انأقوال الطفل لا تعني لديه ما تعنيه لدينا .والمعاني التي ترتبط بها عنده غير المعاني التي ترتبط بها عندنا . فأفكاره — انكانت له أفكار — لانظام لها ولا ارتباط بينها . فلا ثبات فيها ولا وضوح . فان كنت تعتقد أن طفلك نابغة فراقبه. انك قد تكتشف فيه بين الحين والحين نشاطا ذهنيا عظيما ووضوحا خارقا للعادة .

ولكن ستجد حتما أنه فى أغلب الأحيان بطيء التفكير ، جامد الذهن، كأنه يهيم فى الضباب . حتى انك لا تتردد فى نعته بالعته أو الغباء ، كما نعته من قبل بالعبقرية .ولكنك مخطيء في الحالتين ،فما هو الا طفل. ومثله كمثل فرخ النسر ،قد يحلق عاليا برهة وجيزة ،ولكن ليرتد سريعا الى هدوء الوكر وركوده .

عامل طفلك اذن على حسب سنه رغم جميع المظاهر ، واياك وارهاق قواه بما يجاوز طاقته . فان أظهر رغبة فى النشاط الذهني، فاترك له مطلق الحرية ،ولكن لا تدفعه الى ذلك دفعا .ومتى أبدى رغبته في التوقف عن نشاطه الذهني المبكر ، فدعه وشأنه ، فان البذور الأولى لذلك النشاط قد تختمر وتثمر فيما بعد ذلك بسنوات . أما الآن فانك تقتلها بالافتعال أو الاكراه .

كثيرون من الأطفال الاغبياء يصبحون مع الزمن رجالا أسوياء .ولست أعرف قاعدة أثبت وأصدق من هذه . وانه من أصعب الأمور حقا أن نميز بين الغباء الحقيقي والغباء الظاهرى الذى يدل على قوة الطبع والشخصية. وقد يبدو لأول وهلة أن هناك تناقضا فى اتفاق الضدين فى مظهر واحد . ولكن هذه هى الحقيقة .ففى الطفولة لا تكون لدى الطفل الا أفكار جوفاء مشوشة ، فكل الفرق بين العبقرى وسواه من الناس ، أن العبقرى يرفض تقبل تلك الأفكار ، ولا يتعامل ذهنه بها ، فيبدو كالأبله أو الغبي،

انتظارا لاكتمال قدرته على تكوين الأفكار السليمة الصائبة . وهكذا يتشابه فى البداية العبقرى والأبله . كلاهما عاجز ، لأن الأبله لا يصلح للتفكير ، والعبقرى يرى ذلك التفكير الفج غير صالح له .

فلا سبيل للتمييز بينهما الا بطريق الصدفة التى قد تتيح للعبقرى فكرة يحسن ادراكها ، فى حين يعجز الأبله عن ذلك . ومن يحكمون على الأطفال بهذه السرعة حريون أن يقعوا فى الخطأ الجسيم ، وأنا شخصيا أعرف رجلا فاضلا هو الأبيه دى كوندياك ، الذى أقدر صداقته وأعدها شرفا عظيما لى . وأعلم أن هذا الشخص كان يعتبر فى نظر أسرته طفلا أبله ! واذا به فجأة يلمع اسمه بين أسماء الفلاسفة ، ولا ريب عندى فى أن الخلود سيحفظ اسمه بين أسماء أعظم المفكرين وأعمق الفلاسفة الميتافيزيقيين فى زمانه .

لذا أنصح ألا تتسرعوا بالحكم للطفل أو عليه . ودعوا الحالات الخارقة تثبت نفسها بنفسها ، وتفحصوا جيدا خصائصها قبل أن تتخذوا لها مناهج خاصة غير المناهج المتبعة فى تربية الأطفال العاديين . وامنح الطبيعة الفرصة كى تعمل عملها بهدوء تام ، ولا تفسدها بتدخلك المتسرع .

انك قد تحتج بأنك تعرف قيمة الوقت وتخشى أن تضيعه هدرا . ولكنك تتناسى أنك تهدر الوقت بتدخلك واساءتك استعماله ، أكثر مما تهدره بعدم التدخل وتركه يمر وأنت ساكن . وان الطفل الذى أسىء تعليمه أبعد عن الرشد والفضيلة مما لو لم يتعلم شيئا على الاطلاق .

انك تخشى أن يقضى السنين الأولى من حياته لا يعمل شيئا . على رسلك ! ألا تعتبر المرح والسعادة شيئا مذكورا ؟ أليس القفز والنط طول النهار شيئا مذكورا ؟ ان أفلاطون ، فى جمهوريته العتيدة ، على ما فيه من صرامة ، لا يعلم الأطفال الا عن طريق المهرجانات والألعاب والأغانى والمسرات والملاهى . وكأنما غايته القصوى أن يعلمهم السعادة .

وماذا عساك تقول في رجل يأبى أن ينام حتى لا يهدر هباء جزءا من عمره ؟ اخالك قائلا فيه انه مجنون أو مخبول . فهو بذلك يهدر عمره كله ، لأنه يفسد على نفسه استمتاعه بحياته ، ويغتصب من نفسه عنصرا هاما من عناصر الحياة نفسها ،فان الامتناع عن النــوم ليس الا تعجيلا للموت .

تذكر هذا جيدا ،وتذكر أيضا أن الطفولة التى تبتسر ملاهيها كالحياة التى تذاد عن النعاس . فالطفولة هى نعاس العقل .

اما سهولة التعلم عند الأطفال ، فخدعة كبرى تضلل عقولنا . ان هذه السهولة هى الدليل فى حد ذاتها على أن الطفل لا يتعلم حقا . فعقله المصقول اللامع الغض ، يعكس كل ما تلقنه له كما تعكس المرآة صور الأشياء بسطحها من غير أن تغوص فى أعماقها . كذلك الطفــل يتذكر الألفاظ جيدا ويعيدها بحذافيرها ، فيفهمها السامع الكبير ، فى حين أن الطفل وهو يقولها ويعيدها لا يفقه معناها .

ومع أن الذاكرة مباينة للعقل ،فهما ملكتان مختلفتان ،الا أن احداهما لا تنمو مستقلة عن الاخرى تمام الاستقلال .وقبل سن التعقل يتلقى الطفل صورا لا أفكارا . واليك الفرق الفاصل بين الصور والأفكار : ان الصور ما هى الا الاشكال الخارجية للاشياء ،اما الافكار فمعلومات عن تلك الأشياء تتعلق بعلاقاتها فيما بينها . وحين نتذكر الصــورة قد تتذكرها قائمة برأسها فى الذهن . اما الفكرة فلاتكون الا مرتبطة بسواها من الأفكار . ولذا حين نخال الصور لانكون الا متصورين . اما حين نفكر فاننا نقارن ونربط ونميز . الصور احساسات ، والاحساسات سلبية . اما أفكارنا فثمرة عملية التفكير أو التعقل أو الاستدلال الايجابية .

واني أعتقد أن الأطفال ،ماداموا عاجزين عن التمييز والحكم العقلى، فهم أيضا لا ذاكرة بمعنى الكلمة لديهم .فهم يعون فى ذاكرتهم أصواتا

وأشكالا واحساسات .اما المعاني والافكار فقلما يعونها في ذاكرتهم . وأندر من هذا أيضا وعيهم للعلاقات والارتباطات .ومتى غيرت قليلا من وضع أي شيء لم يستطيعوا تذكره .والتذكر بغير تعقل لا قيمة له ،لأنهم سيضطرون حينما يكبرون أن يعيدوا درس ما تلقنوه وهم أطفال .

ولست أزعم أن الأطفال لا تفكير لديهم اطلاقا ،بل كل مرادى أن أقول ان الأطفال يحسنون التفكير فى أمور محدودة جدا ، هى التى تتصل باحساساتهم واهتماماتهم الفعلية الراهنة . بيد أن الناس ينخدعون بهذا ، فلا يحسنون تقدير مدى قدرة الأطفال الحقيقية على التفكير ،فينسبون اليهم مدارك ومعارف ليست لهم فى الواقع . ويحملونهم على التفكير فى موضوعات لا يستطيعون فهمها ،أو يحاولون استرعاء انتباههم الى أشياء لا تهمهم اطلاقا ،مثل مستقبلهم وسعادتهم فى أيام شبابهم والمهنة التى يمارسونها .وهى أمور لا معنى لها اطلاقا لدى كائنات مجردة من بعد النظر تماما . ومع هذا نجد كل الدراسات التى تفرض على هؤلاء المساكين تنصب على أمور كهذه بعيدة كل البعد عن عقولهم .فلا عجب الا يعيروها التفاتا مذكورا ..

وقد يدهشكم أنى أعتبر دراسة اللغات من بين تلك المواد التى لا نفع فيها للطفل .ولكن تذكروا أنى لا أتكلم الا عن دراسات فترة الطفولة الأولى .ومهما قيل فى هذا الشأن ، لا أعتقد أنه الى سن الثانية عشرة أو الخامسة عشرة يمكن لأى طفل أن يتعلم لغتين تعليما حقيقيا .اللهم الا اذا كان عبقريا .

ولو كانت دراسة اللغات عبارة عن تعلم الكلمات ليس الا ،أى تعلم أشكال أو أصوات تعبر عن الاشكال ،لقلت ان هذه الدراسة تلائم الأطفال .ولكن أى لغة اذا غيرنا من حروفها قليلا ،تغيرت المعانى التى تعبر عنها .ولكل لغة صورها الذهنية الخاصة بها ،فى حين أن العقل

وحده هو المشترك بين جميع اللغات .والاختلافات بين اللغاتفى الصور الذهنية للتعبير ،وفي المصطلحات والاستعارات والتوريات ،اما أن تكون نتيجة للطابع القومى ،أو سببا فيه في بعض الاحيان .والدليل على ذلك أن كل أمة تحت الشمس تتغير لغتها بتغير عاداتها وسلوكها وظروفها ،تثبت بثبات تلك وتتحول بتحولها .

ومن هذه الصور الذهنية المتباينة يتيح الاستعمال صورة واحدة للطفل. ويحتفظ بهذه الصورة الى سن التعقل . ولا تكون للكلمة صورتان فى وقت واحد الا حينما يتمكن الطفل من المضاهاة والمقارنة بين الأفكار والمعاني . وكيف يتأتى ذلك له وهو بعد فى طور التصور ؟ .

ان الشيء الواحد يمكن أن يكون له عند الطفل ألف رمز مختلف . ولكن الفكرة الواحدة لا يمكن أن يكون لها عنده الا صورة واحدة .ولهذا لا يستطيع أن يتكلم الا لغة واحدة ..

وقد يقال لى انه يتعلم فعلا عدة لغات . ولكنى أجحد هذا وأنكره . فقد رأيت أولئك النوابغ الصغار الذين يقال انهم يتكلمون خمس لغات أو ستا . ولكنى سمعتهم يتكلمون اللغة الألمانية وحدها ، تارة بألفاظ لاتينية، وتارة بألفاظ فرنسية ، وتارة بألفاظ ايطالية . كأنى بهم يستخدمون عدة قواميس . ولكنهم لا يتكلمون اطلاقا الا لغة واحدة هى الألمانية . وبعبارة أخرى ، لن تكون اللغات الأجنبية الا مترادفات لفظية للغة القومية التى تظل لغة الطفل الوحيدة .

وانى أؤكد أن الرموز لا قيمة لتعلمها أصلا ، فى أى نوع من أنواع الدراسة ،من غير المعاني والافكار التى تدل عليها تلك الرموز .ومع هذا يربطون الطفل الى تلك الرموز ،ويعجزون عن تفهيمه أى شيء من مدلولاتها . فحين يعلمونه وصف الارض ،لا يعلمونه فى الحقيقة الا رسم الخرائط وأسماء البلدان والانهار والاقاليم ،وهو لا يعى لها وجودا الا

أشكالا على الورق .ولا أظن الطفل بعد سنتين من تلك الدراسة في الفلك والجغرافيا الطبيعية يستطيع أن يهتدى الى الطريق وحده من باريس الى سان دنى ! بل ولا أظن الواحد منهم يستطيع ،بناء على خريطة لحديقة أبيه ،أن يستدل على طريقه بين مماشيها المتعرجة !مع أنهم يعرفون جيدا أسماء بكين وأصفهان وأذربيجان والمكسيك وكافة أقاليم الأرض ، وكواكب السماء ،فتخالهم بهذه الشقشقة اللفظية من فطاحل العلماء !.

انى أنادى بأن نشغل الأطفال بدراسات لاتحتاج الا الى النظر بالعين ، لو أن لهذه الدراسات وجودا ،ولكنني فيما أعلم لا أعتقد أن مثل هذه الدراسات وجدت حتى الآن ..

دراسة التاريخ والأساطير
ومدى جدواها للطفل

وانه لخطأ سخيف أن يفرض على الأطفال دراسة التاريخ ،على زعم أن التاريخ فى متناول ادراكهم ،لأنه ليس الا مجموعة من الوقائع والحوادث .ولكن ما الذى يعنونه بكلمة الحوادث ؟هل يعتقدون أن العلاقات التى تعين الحوادث التاريخية سهلة الادراك ،وأن الافكار التى تتكون عن هذه الحوادث يسهل تكونها فى ذهن الطفل حقا ؟ وهل يعتقدون أن المعرفة الحقيقية للحوادث يمكن أن تنفصل عن معرفة أسبابها ومعرفة نتائجها ؟وان كنتم حقا لا ترون فى أفعال الناس الا الحركات الخارجية المادية الصرفة ،ففيم دراستكم للتاريخ ؟ انه اذن يكون خاليا من كل موضوع للدرس ،ومن كل فائدة ،ومن كل متعة أيضا .اما ان كنتم تقدرون أعمال الناس على ضوء علاقاتهم الأدبية ، فعليكم أن تفهموا هذه العلاقات لتلاميذكم ،وعندئذ سترون هل يلائم التاريخ عمرهم أم لا.

وتذكروا ايها القراء أن الذى يخاطبكم ليس عالما ولا فيلسوفا ،وانما هو رجل من عامة الناس ،محب للحقيقة ،غير متحيز ولا متحزب .فرد مفرد ، عصمته قلة معاشرته للناس من التشرب بمزاعمهم .وأفكارى قائمة على الواقع أكثر من قيامها على المبادىء .وأحسبنى لا أقربها الى أنظاركم بشىء أجدى من أمثلة تبين وجهة نظرى .

ذهبت ذات مرة لقضاء بضعة أيام فى الريف لدى أم فاضلة معنية بأطفالها مهتمة بتربيتهم .وحضرت ذات صباح دروس أكبر هؤلاء الأطفال،

وكان مؤدبه قد أطلعه على التاريخ القديم .فتناول فى هذا الصباح على سبيل الاعادة تاريخ الاسكندر الأكبر ،وتعرض لواقعة طبيبه وصديقه فيليب ،التى رسمها الرسامون ، ولاشك أنها تستحق ذلك العناء والتسجيل .وفحوى القصة أن الاسكندر وصلته وهو مريض رسالة من بارميتون تؤكد له أن فيليب ،صديقه وطبيبه ،تلقى رشوة من دار كسرى الفرس كى يدس له السم فى الدواء .فلما قرأ الاسكندر الرسالة ،بسط يده بها الى فيليب ،وبيده الاخرى تجرع الدواء الذى كان فيليب قد أعده له بيديه ..

وعلق المؤدب على سلوك الاسكندر تعليقا لم يرق لى اطلاقا ،بيد أنى تحرجت من مناقشته فيه حتى لا أحط من قدره فى نظر تلميذه .وعلى المائدة أخذ الطفل يثرثر — على الطريقة الفرنسية — مدفوعا بحيويته ورغبته فى استدرار التصفيق ، فنثر من فمه ألف عبارة تافهة ،كانت تتفق له من بينها كلمة موفقة تنسى سائر سخافاته .. وورد على لسانه موضوع الاسكندر والطبيب فيليب ،فرواه بدقة بالغة ورشاقة عظيمة .وسر قلب الأم وانهالت عليه المدائح ، ثم بدأت التعليقات على الحادثة نفسها ، فاذا معظم الحاضرين ينحون باللائمة على الاسكندر لتهوره .وأعجب آقلهم بحزمه وثباته ، مؤيدين فى ذلك رأى الأستاذ المؤدب . فأدركت على الفور أنه لا أحد من الحاضرين فطن الى المغزى الحقيقى للمسألة . فقلت لهم رأيى ، وهو أن ما يظنونه حزما من جانب الاسكندر ليس فى الواقع الا تزيدا أو مبالغة أو تطرفا .. فأجمعوا كلهم على أنه تطرف حقا .

وأوشكت أن أستطرد وقد تحمست للمناقشة ،واذا بسيدة كانت بجوارى ولم تكن قد فتحت فمها بكلمة واحدة طول الوقت ، تميل فوق كتفى وتهمس فى أذنى :

— أسكت يا جان جاك .انهم لن يفهموك .

ونظرت اليها ، وذهلت ، وسكت .

وبعد الغداء ، خطر لى أن عالمنا الصغير لم يفقه شيئا من حقيقة مغزى القصة التى أحسن سردها ،فتناولت يده ،وطفت معه ببعض أركان الحديقة ،وأخذت أستجوبه على هواى .فاكتشفت أنه شديد الاعجاب ببسالة الاسكندر التىأثنوا عليها ،ولكن أتدرون أين كانت هذه الشجاعة فى نظره ؟ فى اقدام الاسكندر على تناول الدواء جرعة واحدة ،مع أن كل دواء لابد ــ فى اعتقاده ــ أن يكون كريه الطعم !وكان الطفل المسكين مريضا وأجبروه منذ أسبوعين على تناول دواء لقى من تجرعه مضاضة شديدة .. ولا أنكر أن قدوة الاسكندر أجدت عليه ،فعزم على تناول الدواء فى المرة التالية ببسالة تصل الى حد البطولة ،تشبها بالاسكندر . وبطبيعة الحال لم أدخل معه فى تفسيرات لن يفهمها ،وثبته فى عزمه ، ورجعت الى البيت وأنا أضحك فى سريرتى من حصافة الآباء والأساتذة الذين يخالون أنهم يعلمون أطفالهم التاريخ ..

من السهل طبعا أن نضع على ألسنتهم ألفاظا ضخمة مثل الملوك والامبراطوريات والحروب والغزوات والثورات والقوانين .ولكن متى تعلق الأمر باعطاء هذه الألفاظ معانى واضحة دقيقة ، فهنا المطلب العسير.

ولعل بعض القراء الذين أسخطتهم كلمة جارتى « أسكت ياجان جاك » ، يتساءلون ما وجه الجمال الحقيقى فى فعلة الاسكندر فيما أرى.ويحكم! وهل هذا بحاجة الى بيان ؟ وان كانوا بحاجة الى بيانه فهل يدركونه حق الادراك ؟جمال فعلة الاسكندر كله فى أنه كان يؤمن بالفضيلة ايمانا جعله يجازف فى سبيله برأسه ،بحياته .لأن نفسه العظيمة كانت مجبولة على ذلك الايمان . فكان تجرعه لذلك السم اعلانا مدويا لذلك الايمان . وما من بشر أعلن ايمانه بالفضيلة باسمى من ذلك الاعلان وأجل. ومن زعم بين المحدثين شبيها للاسكندر ،فليدلنى عليه فى مثل تلك السجية .

وما دام لا وجود لعلم يقوم على الألفاظ ،فلا وجود لدراسة تصلح للأطفال .وما داموا عاطلين من الافكار بمعنى الكلمة ،فلا ذاكرة لهم بمعنى الكلمة أيضا .فانى لا أعتبر ذاكرة حقيقية تلك التى لاتحفظ الا احساسات .

ما جدوى أن نسجل فى رؤوسهم رموزا لاتعنى فى نظرهم شيئا ؟ ألن يتعلموا الرموز حين يتعلمون مدلولاتها ؟فلماذا اذن نرهقهم بتعلم الشيء الواحد مرتين ؟هذا فضلا عما نلهمهم من الخطل الخطير حين نوهمهم أن تلك الألفاظ التى لا معنى لها عندهم علم وما هى بعلم ! .

ان أول لفظ يتعلمه الطفل من أفواه الناس من غير معنى عنده أو منفعة، فيه القضاء على قوة التمييز عنده ، فتظل الألفاظ تزيغ بصره طويلا ، قبل أن يتمكن من تلافى هذا النقص ! .

كلا ! لئن كانت الطبيعة قد منحت مخ الطفل هذه المرونة التى تجعله قابلا لجميع التأثيرات ،فليس ذلك كى ننقش فى صفحته أسماء الملوك والتواريخ وألفاظ الفلك والجغرافيا وسائر تلك الألفاظ التى لا معنى لها اطلاقا فى سنه ،بل ولا جدوى منها فى أى سن !والتى تكبل بها طفولته تكبيلا مسئما عقيما ، وانما لكى ننقش فيها منذ البكور بحروف لاتمحى جميع المعارف اللازمة لسعادته والتى تضيء له يوما ما طريق الواجب ، وترشده سائر أيام عمره الى استخدام ملكاته .

وحتى ان لم يدرس الطفل فى الكتب ،لاتظل ذاكرته خامدة ،فكل ما يراه ويسمعه يثير انتباهه ،وينطبع فى ذاكرته .فيسجل لديه أفعال الناس وأقوالهم . فكل ما يحيط به كتاب يغترف منه من غير أن يدرى ، انتظارا لوقت يستطيع فيه الافادة بعقله مما وعى بحافظته .

اذن فالواجب الأول هو تخير الأشياء التى تتأثر بها حافظته ،والاشخاص الذين يخالطهم ، واقصاء ما لا ينبغى أن يطلع عليه ، حتى يعرف

ما يجب ، ويجهل ما لا يجب ، وبذلك تتكون عنده مخزونات من المعارف التى تجدى فى تربيته مدة حداثته ، ثم فى سلوكه سائر أيام حياته .

أجل ، ان هذه الطريقة لاتنشىء لنا العباقرةالصغار ،ولا تضفى اللمعان والبروز علىجهود المربين والأساتذة ، ولكنها تكون الرجال ذوى الحصافة والبأس ،أصحاء العقول والابدان ،الذين ان فاتهم الاعجاب وهم صغار، لن يفوتهم التوقير والاحترام وهم كبار .

لن يحفظ اميل شيئا عن ظهر قلب .حتى ولا الاساطير .نعم ،حتى ولا أساطير لافونتين على ما فيها من سحر وسذاجة وجمال .ذلك أن ألفاظ الاسطورة شيء والاسطورة شيء آخر .كما أن الفـاظ التاريخ شيء ، والتاريخ شيء آخر ! .

كيف بالله يبلغ العمى بالناس أن يسموا الأساطير اخلاقيات الطفولة ، من غير أن يدركوا أن ما في الاسطورة من أكذوبة تستهوى الأطفـال بحيث يغفلون عن الحقيقة ؟ وأن ما يراد به اغراء الأطفال علىالتعلم ،هو الذى يفتنهم عن التعلم ويعوقهم عنه ؟ .

ان الاساطير قد تجدى في تعليم الكبار .اما الأطفال فلا بد لهم من الحقيقة العارية . فاذا غطيناها لهم بقناع رقيق ،لم يجشموا أنفسهم عناء اماطته ...

انهم يعلمون الأطفال جميعا أساطير لافونتين .وما من واحد من بينهم يفقهها .وحتى حينما يصلون الى ادارك مغزاها ،سيكون الأمر اوخم عقبى. لأن ذلك المغزى ملتو ،مشوب ،لايتناسب مع سنهم ،ممـا يجعله أدعى لانزلاقهم فى الرذيلة ، لا لجنوحهم الى الفضيلة .

ورب قائل ان تلك مفارقة أو مغالطة .فلننظر مدى ما فى هذا القول من صواب .انى أزعم أن الطفل لا يفقه الاساطير التى يكره على حفظها اطلاقا .فمهما بسطت تلك المعانى ،يظل القالب الشعرى فوق مستوى

الادارك ،وتظل الافكار فوق مستوى الادراك .فالقالب السوى يسهل الحفظ ،ولكنه يجعل الفهم عسيرا .فاذا الوضوح والجلاء ضحية اللذة والتنغيم . وكأننا اشترينا بالفهم سرور الايقاع .

ولا أريد أن أتعرض لتلك الاساطير التى لا أجد لها مفهوما ولا جدوى عند الأطفال ،والتي يحفظها الأطفال رغم ذلك فيما يكرهون على حفظه، بل سأتعرض لتلك الأساطير التي يبدو أن المؤلف نظمها للأطفال خصيصا..

ولست أعرف في مجموعة لافونتين كلها الا خمس أساطير أوستا تشرق بسذاجة الطفولة .ومن بينها أختار أولها ،لأنها ذات مغزى تفهمه جميع الأعمار ويحفظها الأطفال بسرور ، ولهذا فضلها المؤلف على غيرها وافتتح بها كتابه ، وانها حقا لتعتبر آيته الفنية ، لما تدخله على الأطفال من بهجة ، ولسهولة مأتاها واستظهارها عليهم . واسمحوا لى أن أتعقب هذه الاسطورة وأمتحنها في كلمات معدودات .

وهذه الاسطورة أسطورة الغراب والثعلب ..

« الاستاذ غراب ،كان فوق شجرة واقفا » .

الاستاذ ! ما معنى هذه الكلمة في حد ذاتها ؟ وما معناها حين تأتى قبل اسم من أسماء الاعلام ؟ وما معناها فى هذا المقام ؟ .

والغراب ، ما هو ؟ .

ولماذا قيل فوق شجرة واقفا ،لا واقفا فوق شجرة ؟ أليس ينبغى هنا شرح القلب والتقديم والتأخير فى الصياغة الشعرية ؟ .

« وقد امسك فى منقاره قطعة من الجبن » .

أى جبن هذا ؟جبن سويسرى أم هولندى ؟وان كان الطفل لم ير فى حياته غرابا ،فما جدوى التحدث اليه عنه ؟وكيف يدرك ان الغراب يمسك الجبن بمنقاره ؟ .

« والاستاذ ثعلب ،تحلب ريقه بالرائحة »

ومرة أخرى كلمة الاستاذ ! ولكن فى هذه المرة نجد للقب ما يبرره . فهو أستاذ فى الألاعيب .ثم يجب أن نشرح معنى كلمة ثعلب .

وكلمة «تحلب ريقه» كلمة عسيرة الفهم على الطفل ،ويجب تفسيرها له .وافهامه أنها تستخدم فى الشعر فقط .وسيسأل الطفل لماذا نقول شعرا ما لا نقوله نثرا .ولا أدرى بماذا نجيبه !

ثم ما القول فى رائحة الجبن التى وصلت من فوق الشجرة الى خياشيم الثعلب من بعيد ،فتحلب لها ريقه .أى رائحة هذه ؟ .

وهكذا دواليك الى آخر تلك الاسطورة .وكل سطر منها يحتاج لفهمه لدى الطفل الى تحليل من ورائه تحليل ،ودخول فى تفاصيل بعد تفاصيل، حتى تنقلب تلك الاسطورة موسوعة .مع أن مغزاها يقال فى خمس كلمات!.

وانى لأتساءل ، هل من الحكمة أن نعلم الأطفال فى سن السادسة أن هناك أشخاصا يعمدون الى الملق والكذب فى سبيل منافعهم ؟ كان الأولى أن نعلمهم أن هنـاك من يخدعون الأطفال ليسخروا من غرورهم . أما قطعة الجبن فقد أفسدت المغزى فى الاسـطورة .فنحن نعلمهم بهـذه الاسطورة الاعجاب ببراعة من أسقطها من فم الغراب ، أكثر من الحذر من سقوطها من فمهم ..

وأرجو أن تتعقبوا الأطفال وهم يحفظون الاساطير ،ولا شك فى أنكم ستجدونهم عند التطبيق سيعمدون الى عكس مقصـود المؤلف . فاذا بهم بدلا من النفور من العيب الذى تعالجه الاسطورة ، وقد افتتنوا بما فيها من صورة الشر . فهم فى أسطورة الغراب والثعلب سيسخرون من الغراب ، ويشمتون به ويعجبون بالثعلب البارع . فالطفل دائما يعجب بالدور الجميل فى الاسطورة ، وهو دور الماكر المنتصر. وهو اختيار طبيعى جدا ،لأنه مبنى على حب النفس والاعتزاز بها .. فياله من درس للأطفال!

وفى جميع الاساطير التى يكون فيها للاسـد دور ،يتقمص الطفـل

دور الأسـد ، لأنه ألمع الأدوار عادة . وسنراه يفعـل فعله فى جميع المناسبات التى يتاح له فيها السلطان أو التصرف فى قسمة بين أقرانه .

وهلم جرا فى جميع الاساطير الأخرى ،فكأنها أيسر سـبيل لتعنيم الطفل القسوة والطغيان والخداع والختل والبخل ،وهى عكس المقصود طبعا من تلك الاساطير ..

وانى أعد مسيو دى لافونتين أن أقرأ أساطيره وأعجب بها وبه ،لأنى أرجو الا أضل عن مغزاها الحقيقى ،اما تلميذى ،فليسمح لى الا أطلعه عليها . ما لم يكن المقصود ألا يفهم الطفل مما يدرس ويحفظ الا الربع . وأن يفهم من هذا الربع عكس المراد منه تماما ،فلا يستفيد من الخطأ ، بل يقتدى بالخساسة .

* * *

وانى اذ أعفى الأطفال من الحفظ والدرس والكتب ،أزيح عن كاهلهم أشقى ما يشقون به .فالقراءة هى غمة الطفولة الغاشـية ،وهى للأسف أكثر ما يبتلى به الأطفال .

ولا أظن اميل سيعرف ما معنى كلمة كتاب قبل سن الثانية عشرة . وقد يقال ان من الواجب تعليمه القراءة على الأقل . وأنا أوافق على هذا، وأرى أن يتعلم القراءة حين تكون القراءة مجدية له ،أما وهى لا تفيده قبل تلك السن الا السأم والضيق ، فليس هذا أوانها ! .

ولكن تدريجيا ،يمكن تعليمه القراءة بواسطة الباعث الشخصى .أى بمناسبة ما يصله من دعوات للنزهات أو للعشاء .وهى دعوات قصيرة ، يحسن أن نساعده على حل رموزها . وبذلك يتعرف الى رسم الكلمات ويتعلم بذلك الرسم والقراءة .

وعندما يجيب عن الدعوات ،أو يشكر عليها ،أو يدعو سواه ،ستكون هذه مناسبة تعليمه رسم الحروف كتابة ..

الطفـــل ذو البـــدوات

حدث أن قمت مدى بضعة أسابيع على شأن طفــل كان قد تعــود لا تنفيذ هواه فحسب ،بل وكذلك املاء ارادته على جميع من حوله . ولذا كان هذا الطفل ذا بدوات ونزوات .

ومنذ اليوم الأول حاول أن يجرب معى تلك السياسة ،ليعرف مدى قابليتى للتساهل .فنهض من فراشه في منتصف الليل .وقفز وأنا غارق فى نومى . فارتدى دثار الفرقة وأخذ ينادينى . فاستيقظت وأوقدت شمعة . ولم يكن مراده يتعدى ذلك .فبعد ربع ساعة عاوده النعاس فرقــد فى سريره راضيا عن التجربة التى قام بها .

وبعد يومين عاود الكرة ولقى من التوفيق ما لقيه فى المرة الأولى .أما أنا فلم أظهر شيئا من ضيق الصدر أو نفاد الصبر .وكل ما هناك أنى قلت عندما قبلنى لينام ، وبكل هدوء :

— يا صديقى الصغير .لا بأس بما حدث .ولكن اياك أن تعاود الكرة.

ولا شك أن هذه الكلمة أثارت فضوله . فمنذ اليوم التالى أراد أن يعرف كيف سأجسر على عصيانه .فلم يتردد فى أن يستيقظ فى الساعة عينها من منتصف الليل ، وينادينى . فسألته ماذا يريد . فقــال لى انه لايستطيع أن ينام . فقلت له :

— هذا من سوء حظك .

ثم لذت بالصمت ولم أتحرك من موضعى .فرجانى أن أوقد الشمعة. فسألته لماذا يريد الشمعة .ثم لم أتحرك من موضعى .فضايقته لهجة عدم الاكتراث التى استخدمتها معه .فجعل يتحسس طريقه بحثا عن القداحة.

وتصنع محاولة استعمالها . فلم أستطع أن أمنع نفسى من الضحك وأنا أسمعه يدق بها يده فتؤلمه . ولما يئس من النجاح فى استعمالها ، أتانى فى فراشى بالقداحة فقلت له انه لاحاجة لى بها . ثم أوليته ظهرى ورقدت على جنبى الآخر .فراح يجرى فى الحجرة على غير هدى صائحا أو متغنيا، محدثا ضجة كبيرة .ومتخبطا بجسمه بين المقاعد والمنضدة ،حريصا على أن تكون الصدمات هينة .ومع هذا كان يستغلها فى الصراخ بشدة . على أمل أن يدخل على نفسى القلق .ولكن هذا كله لم يكن له أثر .ورأيت أن الطفل رتب أموره على اثارة الغضب . ولم يخطر بباله أن يجد ذلك الهدوء والثبات .

الا أنه عقد النية على التغلب على صبرى بقوة عناده . فاستمر فى ضجته وصخبه الى درجة أثارتنى .فأدركت أنى سأفسد كل شيء بثورتى، فعولت على تجنب ذلك بخطة جديدة .ونهضت من فراشى من غير أن أقول شيئا .وذهبت أبحث عن القداحة فلم أجدها .فطلبتها منه .فأعطانى اياها وهو يكاد يقفز من الفرح لتمكنه فى نهاية الأمر من الانتصار على . فضربت القداحة وأوقدت الشمعة .ثم أخذت الصغير من يده وجررته برفق الى حجرة مجاورة محكمة النوافذ ليس فيها ما يخشى عليه من تحطيمه وتركته هناك وحده من غير الشمعة ،وأقفلت عليه الباب بالمفتاح. ثم عدت ونمت فى فراشى من غير أن أقول له كلمة واحدة .

ولا تسلنى هل كانت فى البداية ضجة هائلة . فقد كنت أتوقع ذلك طبعا . ولم يغظنى ذلك بتاتا . وأخيرا هدأت الضجة . وأصغيت فسمعته يستقر حيث هو ويهدأ . فاطمأن بالى .

وفى اليوم التالى دخلت الخزانة فى وضح النهار . فوجدت المتمرد الصغير راقدا على أريكة غارقا فى سنة من النوم . ولا شك أنه كان فى أشد الحاجة الى ذلك النوم العميق بعد كل ذلك العناء .

بيد أن الموضوع لم يقف عند ذلك الحد .فقد علمت الأم أن الطفل قضى ثلثى الليل خارج فراشه فكأنما تقوضت أركان الدنيـا وصـار الطفل من الهـالكين .ووجـد الصغير الفرصـة ملائمة للانتقـام ، فتصنع المرض .ولم يخطر بباله أن ذلك لن يجدى عليه شيئا .

ودعى الطبيب .وكان رجلا محبا للمزاح والارضاء ،وهذا من سوء حظ الأم ،لأنه أراد أن يتسلى بفزعها فراح يجسم لها مخاوفها ويضخمها. ومال على أذنى يهمس لى :

— دعنى أتصرف .وأعدك أن الطفل سوف يشفى الى أمد طويل من تلك البدوات ،وعلى الأقل من نزوة المرض .

وفعلا وصف للمريض الصغير غذاء كريها ودواء بغيضا وحتم عليـه ملازمة الفراش ملازمة دقيقة . وهذا كله مزعج للصغير غاية الازعاج . وحز فى نفسى أن أرى تلك الأم المسكينة ضحية خداع جميع من حواليها، فيما عداى أنا ، الذى كانت تبغضنى ، لأننى لا أخدعها ! .

وبعد تقريع قاس، قالت لى ان ابنها رقيق البنية ، وانه الوارث الوحيد لأسرتها ، ويجب المحافظة على حياته بالغا ما بلغ الثمن - وانها لا تحب أن يلقى الطفل معارضة من أى نوع .

وكانت تعنى بعدم معارضته أن أطيعه فى كل ما يخطر بباله .فأدركت أنه ينبغى أن أتخذ فى خطاب الأم ما اتخذته فى خطاب الطفل من لهجة ، فقلت لها بأقصى برود ممكن :

— أنا لا أدرى ياسيدتى كيف ينبغى أن يربى وريث . وأكثر من هذا انى لا أريد أن أدرى كيف يربى وريث .ويجب أن تدبرى أمورك على ذلك الاساس .

وكانوا بحاجة الى مدة أخرى ريثما يعود المربى الأصلى من اجازته ، فتولى الأب تهدئة الموقف - وكتبت الأم الى المربى تستعجل عودته .

أما الطفل ،فلما وجد أنه لن يجنى شيئا من اقلاق نومى ولا من تصنع المرض ،قرر أخيرا أن ينام من تلقاء نفسه بهدوء ،وأن يكف عن المرض.

ولا يمكن أن تتخيل أنواع البدوات والنزوات التى كان هذا الطفل يتفنن فيها لتنغيص حياة مربيه المسكين . لأن تربيته كانت تحت سمع الأم وبصرها .والأم كانت لا تحتمل أن يعصى لوريثها المدلل أمر .

فى أى لحظة من لحظات النهار يخطر للطفل أن يخرج ،كان ينبغى على المربى أن يكون متأهبا تمام الأهبة للخروج به من غير معارضة أو استمهال وكان الطفل الماكر يختار دواما الوقت الذى يرى فيه مربيه مشغولا جدا.

وأراد الطفل أن يفرض على تلك السلطة بعينها ،فينتقم من راحتى النهارية للراحة الليلية التى أجبرته أن يدعها لى . وكنت متأهبا لخطته تلك.

فأظهرت له باستمرار السرور بتنفيذ رغباته . ثم بعد ذلك عولت على أن أنتهج سياسة أخرى لشفائه من بدواته .

ولما كنت أعلم أن الأطفال لايفكرون الا فى اللحظة الحاضرة .فقد حرصت على أن أوفر له فى البيت تسليات مما أعلم أنه يحبها جدا . ومتى وجدته منغمسا فى التسلية تماما . اقترحت عليه أن نخرج للنزهة . وألح . فلا يجيبنى . فأخرج وأتركه غير مقيد به .

وفى اليوم التالى انقلب الوضع . لم يكن لديه ما يسليه فى البيت . فتضجر . أما أنا فكنت أبدو على العكس مشغولا جدا . وكان فى هذا الكفاية لكى يقرر ماذا يعمل .فلم يتأخر عن الحضور لينتزعنى من عملى كى أنطلق به فى نزهته ، فرفضت . وأصر هو . فقلت له :

— كلا .فانك حين نفذت أمس ارادتك علمتنى أن أتمسك بارادتى . وأنا لا أريد الخروج .

— وهو كذلك ! سأخرج وحدى .

— كما تشاء .

وعدت الى التشاغل بعملى . فارتدى ثيابه وهو قلق لعـدم نشاطى لارتداء ثيابى . وقبل أن يخرج أتى يحيينى . فحييته . فحاول أن يفزعنى بذكر الجهات التى سيذهب اليها ، ومن سمعه كان يظنه ينوى الذهاب الى آخر الدنيا . فلم أكترث . وتمنيت له رحلة سعيدة . فتضاعف ضيقه، بيد أنه تظاهر بالهدوء . وقال لخادمه الخاص أن يتبعه فى نزهته .

وكانت لدى الخادم أوامر سابقة ، فأجابه أنه مشغول فى تنفيذ أشياء أمرته أنا بها . وأنه يجب أن يطيعنى .ولم يتصور الطفل أنتتركه يخرج وحده وهو الذى كان يظن نفسه أهم شخصية فى البيت . ويعتقد أن السماء والارض ليست لهما مهمة أخرى سوى المحافظة عليه ! .

وبدأ يشعر بضعفه .وبأنه سيواجه وحده أناسا لا يعرفونه .وتصور المخاطر التى سيتعرض لها .الا أن العناد وحده هو الذى كان يشد أزره. فنزل السلم ببطء ومشى فى الشارع متعزيا عن المتاعب التىستصادفه . وألوان الأذى التى سيتعرض لها ،بأن ذلك كله سوف تقع جريرته على عاتقى . ولكنى كنت قد أعددت للأمر اخراجا دقيقا بموافقة والده . فما مشى فى الشارع بضع خطوات .حتى سمع عن يمين ويسـار تعليقات جارحة لشخصه تسخر منه .

— أنظر أيها الجار هذا السيد الجميـل .أين تراه يذهب هكذا وحده ؟ .

— انه يا جارتى سيضل طريقه . أرى أن أدعوه للدخول عندنا .

— احذر من ذلك يا جارى .ألا ترى أنه طفلمغضوب عليهفطردهأبوه من بيته لما يئس من استقامته وطاعته ؟ ان الأطفال العصاة يجب أن يتركوا وشأنهم مهما تعرضوا لضلال الطريق .

وبعد خطوات قليلة أخرى . التقى بشرذمة من الأطفال أبناء السبيل من عمره ،فأخذوا يغيظونه ويتندرون به .فشعر أنه فى وحدته ضعيف

لا حامى له ،ألعوبة فى يد جميع الناس .وتبين أن شارات النبـالة التى يحملها على صدره لا تكفل له الاحترام .

وزادت الأمور سوءا حين عاد الى البيت ،ليجد والده يهبط السلم . فكان على الطفل أن يفسر لأبيه أين كان ولمـاذا خرج وحـده .فتمنى المسكين لو أن الأرض ابتلعته . وأفهمه أبوه أنه عاص . وعليه فى المرة القادمة التى يغادر فيها البيت بمفرده أن يرتب عزمه كي لايعود اليه . فهو لا يقبل فى بيته العصاة والخارجين على النظام .

أما أنا فقد استقبلته بغيرتأنيب أو سخرية . ولكن ببرود وصرامة حتى لا يتبادر الى ذهنه أن المسألة كلها كانت مدبرة .وعاقبته بعدم الخروج معه فى ذلك اليوم فىساعة النزهة المعتادة .

وفى اليوم التالى حرصت أن أخرج معه ، فمر ويده فى يدى فخورا على تلك الجماعات التى هزئت منه بالأمس حين مر بها وحده . ومن المفروغ منه أنه لم يجرب بعد ذلك مطلقا ارغامى على الخروج معه .

وبهذه الوسائل ومايجرى مجراها استطعت فى غضون المـدة التى قضيتها مع ذلك الطفل أن أسيره كما أشـاء من غير مواعظ ومـن غير تحذيرات ونواه أو ضجر بدروس لانفع منها .

كنت أصمت فيكون صمتى مصدر قلق له لأنه يعلم أن خطتى العملية ستكون هى الدرس الحازم الذى يتعلم منه ما أريده أن يتعلمه .

رياضة الحواس وعلاج الخوف

ان تمرين الحواس أو رياضتها ليس مجرد استعمالها . بل هو فى الواقع تدريبها على أن تكون وسيلة صالحة للتمييز .فرياضة الحواس هى بعينها أن نتعلم كيف نحس .لأننا لا نعرف كيف نلمس أو كيف نرى أو كيف نسمع ،الا كما تعلمنا ذلك .

وهناك رياضة طبيعية ميكانيكية بحتة ،تجعل الجسم قويا من غير أن يكون لها تأثير فى التمييز .ومن ذلك السباحة ،والجرى ،والقفز ،وقذف الأحجار ؟وهـذا كله حسن .ولكن أليست لنا أعضاء سوى الأذرع والسيقان ؟ أليست لنا كذلك عيون وأليست لنا آذان ؟وهل هذه الجوارح أقل مرتبة وخطرا بالقياس الى سابقتها ؟ .

اذن ،لا تكتفوا برياضة القوة البدنية ،بل ينبغى علينا أن نعنى برياضة جميع الحواس التى توجه قوانا وتهديها .ويجب أن نستخلص من كل حاسة من حواسنا أقصى ما تستطيعه .ثم نقوم تأثير كل حاسة فى الحواس الأخرى .ولا ينبغى أن نستخدم قوة من قوانا من غير حساب دقيق للمقاومة وللمجهود .وليكن رائدنا أن يسبق تقدير الأثر استخدام الوسيلة .وعودوا الطفل ألا يبذل مطلقا جهودا قاصرة أو سطحية .ولو أنكم عودتموه أن يتوقع النتيجة الطبيعية لجميع حركاته . وأن يصحح أخطاءه بالتجربة ، ألا يكون من الواضح أن يزداد تمييزه وتزداد حصافته بازدياد خبرته .

ولنفرض أن المطلوب هو زحزحة كتلة ثقيلة من موضعها .فعلى الطفل أن يستخدم رافعة . فان تناول رافعة أطول مما ينبغى ، احتاج الى حركة أكثر مما ينبغى . وان استعمل رافعة أكثر مما ينبغى ، لم يتوافر له الجهد

الكاف لاستخدامها . فيجب أن يتعلم من التجربة اختيار الرافعة اللازمة بالذات .وهذه الحصافة ليست فوق سنه .

واذا كان المراد حمل ثقل .وأراد أن يعرف هل يستطيع ذلك أم لا من غير تجربة لرفعه . أليس الواجب أن يتعلم تقدير الأثقال بالنظر . ويجب أيضا أن يعرف كيف يقارن بين كتل متفاوتة الحجم من مادة واحدة ،وبين كتل متساوية الحجم من مواد مختلفة .وهكذا يتعلم دروسا عملية فى الوزن النوعي .

وقد رأيت بعيني شابا متعلما يأبى أن يصدق الا بعد تجربة عملية أن دلوا مملوءا بكتل ضخمة من خشب البلوط أقل ثقلا من ذلك الدلو نفسه وهو مملوء بالماء .

ولسنا مسيطرين على حد سواء على استخدام جميع حواسنا . فهناك حاسة معينة هى اللمس لا يتوقف عملها طوال مدة يقظتنا .وهذه الحاسة منتشرة فوق سطح جسمنا كله وكأنها حارس متصل حلقات الحراسة ينبهنا الى كل ما يمكن أن يؤذينا .وباستمرار الاستعمال لتلك الحاسة تتدرب عليها قبل غيرها .ولهذا نجد حاجتنا الى رياضتها أقل من حاجتنا لرياضة سائر الحواس .ومع ذلك نلاحظ أن العميان يتمتعون بحاسة لمس أقوى وأرهف مما لدينا ،ذلك أن افتقارهم للبصر جعلهم يعولون على تلك الحاسة الأولى وحدها فى معرفة الأشياء والتمييز بينها .فلماذا لانروض نحن تلك الحاسة بأن نمشي كالعميان فى الظلام ، ونعرف الأجسام التى نلمسها ونميز بين ما يحيط بنا منها ، بحيث نعمل ليلا ومن غير ضوء كل ما يعمله العميان نهارا من غير عيون ؟ .

انى أعترف أنه ما دامت الشمس مشرقة فلنا التفوق على العميان .أما فى الظلام فهم متفوقون علينا .وجميع الناس عميان نصف أعمارهم ،ولكن

العميان الحقيقيين يعرفون في جميع الأحوال كيف يتجهـون عن طريق اللمس .أما نحن فلا نجسر أن نخطو خطوة فى حلكة الليل .

وقد يقال لى ان لدينـا وسائل الاضاءة . وانى لشديد الضيق بهذه الآلات كلها التى نخضع لها فى حياتنا !ومن الذى يضمن لكم أن هـذه الآلات والأدوات ستكون ميسورة لكم أينمـا احتجتم اليها ؟ أما أنا فأفضل لاميل أن تكون له عينان على أطراف بنانه ، على أن تكون عيناه فى حانوت بائع الشموع ! .

واذا وجدت نفسك محبوسا فى بناء فى جوف الليل ، فصفق بيديك وستدرك من رنين الصوت مدى ضخامة البناء . وهل هو كبير أم صغير وهل أنت فى وسطه أو فى ركن منه .

انك حين تكون على مسافة نصف قدم من حائط ستشعر من لمس الهواء لوجهك أنك قريب من جدار .فقف فى مكانك ودر على عقبيك فى جميع الجهات .والجهة التى تهب على وجهك منها نسمة خفيفة هى الجهة المقابلة للباب أو النافذة .

وهذه الملاحظات الهينة ،وآلاف مما تجرى مجراها لايمكن تحصيلها الا فى الليل .وجميع محاولات القيام بها نهارا ستعوقها حاسة النظر .هذا مع أننا لم نستخدم اللمس المباشر والعصى كالعميان .الا أن حاسة اللمس للهواء قد تكون كافية ويجب رياضتها ليلا .

والكثير من ألعاب الليل يحقق ذلك الغرض . بل له فائدة أعظم مما يبدو لأول وهلة .فالليل مخيف بالفطرة للناس .بل وأحيانا للحيوانات ، بدليل ما تظهره من الذعر عند كسوف الشمس .وقلما تجدى الشجاعة والعقل والمعرفة الناس فى النجاة من ذلك الخوف .وقـد رأيت بعينى مفكرين من كبار العقول والفلاسفة ومحاربين لايهابون شيئا فى ضوء النهار ، يرتجفون ليلا كما ترتجف النساء من أصوات خفيف الأشجار.

ويعزو بعضهم ذلك الفزع الى أقاصيص المربيات والمراضع .وهـذا خطأ .فلذلك الخوف علة فطرية .فما هي هذه العلة ؟ .

انهـا بعينها العلة التي تجعل الأصم نفورا وتجعـل النـاس عموما متطيرين .فجهل الأشياء التي تحيط بنا أو تدور حولنا هو السبب .ولأننا تعودنا بالنظر نهارا أن نرى الأشياء عن بعد ونتوقع تأثيراتها مقدما . فحين يجن الليل لا نرى شيئا مما يحيط بنا . أليس طبيعيا اذن أن نفترض آلاف الأشياء وآلاف الحركات التي يمكن أن تؤذينا ومن المستحيل أن نضمن عدم وجودها ؟ .

اني قد أعرف أني في أمان حيث أنا موجود .ولكنني لا أوقن بذلك الا حين أبصره فعلا .فهناك دائما سبب للخوف غير موجود نهارا .

وأنا أعلم أيضا أنه من الصحيح أن جسما غريبا لا يمكن مطلقا أن يؤثر في جسمي من غير أن ينبهني لذلك صوت أو حس .ولذا تكون أذني مرهفة جدا أثناء الليل .وأقل صوت لا أميز مصدره يستثير حاسة حفظ الذات .ويجعلني أفترض أولا كل ما يقتضيه الحذر .أي أسوأ بواعث الخوف والفزع .

وحتى حينما لا أسمع أدنى صوت في الليل ،لا يكون ذلك باعثا على الاطمئنان .لأن انعدام الصوت يجعل المفاجأة أدهى وأخطر ،فلا بد لي في الليل من افتراض كل ما لا أراه بعيني .والافتراض استخدام المخيلة. وأنا لا سلطان لي على مخيلتي .فان سمعت صوتا خيل الى أن اللصوص مصدره .وان لم أسمع صوتا .فالسكون سكون الأشباح .وهذا أدعى للخوف والفزع . ولا حيلة للعقل هنا ، لأن غريزة حفظ الذات أقوى منه، ولا سبيل للتغلب على الخوف الا بالعقل وهو عاجز عن ذلك .

ومتى عرفنا علة الداء اهتدينا الى الدواء . والعادة في جميع الأمور تقتل المخيلة . ولا شيء يثير المخيلة الا ما هو خارج عن المألوف . فالأشياء

التى نراها كل يوم لا تختص بالمخيلة ،بل بالذاكرة .ولهذا يقال ان العادة عدو العاطفة .فمتى ألفنا شيئا هبطت قيمته العاطفية لدينا لخروجه من دائرة المخيلة .والمخيلة هي التى توقد بنيرانها جذوة العواطف .

فلا تحاول اذن أن تناقش بالمنطق من تريد شفاءه من رعب الظلام .بل عوده عمليا السير فيه .وثق أن جميع حجج الفلسفة لاتضارع ذلك التعود العملى .وتذكر أن الدوار لا يصيب من يصلحون السقوف الأرتوازية المنحدرة لأنهم تعودوا ذلك الموقف . وكذلك الخوف من الظلام لايصيب من تعودوا السير فى الظلمات .

وهذه فى حد ذاتها فائدة جليلة نجنيها من الألعاب الليلية . ولكنى أوصى وألح فى أن تكون هذه الألعاب الليلية غاية فى المرح والبهجة .فما من شيء أشد كآبة من الظلمات .فلا تذهب الى حد ارهاق طفلك بألعاب مخيفة أو صامتة .بل يجب أن يضحك وهو يخوض الظلام .وأن يعاوده الضحك قبل أن يغادره .وأن تصحبه طول مدة وجوده فى الظلام فكرة المتعة والتسلية التى يحصل عليها . أما الفزع فلا ينبغى أن يخطر بباله .

واسمحوا لى أن أستعين هنا بأمثلة مما وقع لى فى طفولتى .وكنت مرة فى الريف مقيما لدى قسيس بروتستانتى اسمه السيد لامبارسييه . وكان معي زميل أغنى منى هو ابن عم لى .كانت عائلة القسيس تعامله معاملة الوارثين الجديرين بالرعاية دونى .وكان ابن عمى هذا اسمه برنار. وهو أكبر منى ولكنه جبان جدا ولا سيما فى الليل . فكنت أسخر دائما من فزعه ، حتى ان السيد لامبارسييه ضاق بى وأراد أن يضع شجاعتى موضع الامتحان .

وذات مساء من أمسيات الخريف حالكة الجلباب ،أعطانى مفتاح الكنيسة وطلب منى أن أحضر من فوق منبرها التوراة التى كان تركها

هناك ، وشفع ذلك الطلب بكلمات ثنـاء على اقدامى ، جعلتني عاجزا عن التراجع .

وانطلقت الى مهمتي من غير ضـوء . ومررت بالجبانة وأنا في غاية الاطمئنان والبشاشة .اذ لم يكن من عادتي وأنا صغير أن أشعر بأي خوف ليلا مادمت في الهواء الطلق .

ولما فتحت باب الكنيسة سمعت في جوفها ما خيل الى أنه أصوات فتزعزعت شجاعتي الراسخة .وما خطوت الى الداخل حتى توقفت أمام الظلمة المخيفة داخل المعبد . ووقف شعر رأسي. فتراجعت وخرجت ووليت الأدبار وأنا أرتعد . فوجدت في الفناء كلبا صغيرا اسمه سلطان جعل يداعبني فعادت الى الطمأنينة .وشعرت بالخجل من خوفي .فرجعت الى الكنيسة وحاولت أن أقنع السلطان بالذهاب معي فأبى .

وتجاوزت عتبة الكنيسة بسرعة .واذا بالفزع يعاودني بشدة أعنف حتى طاش صوابي . ومع أني أعلم أن المنبر عن يمين الكنيسة ، رحت أبحث عنه طويلا عن يسارها .وتخبطت بين المقاعد حتى لم أعد أدرى أين أنا ولم أعرف طريق الباب .فاستولى على ذهول شديد .الى أن تعودت عيناى الظلمة ولمحت الباب .فأسرعت بالخروج وقد عولت على ألا أعود الى الكنيسة الا في وضح النهار .

وعدت الى البيت وتأهبـت للدخول .ولكني تبينت صـوت القس لامبارسييه يضحك ضحكات مدوية فخيل الى أنه يتندر بي .وتصورت نفسي معرضا لتلك السخرية فترددت في فتح الباب .ثم سمعت ابنتـه الآنسة لامبارسييه تسأل عني قلقة وتأمر الخادمة باعداد الفانوس . ثم تأهب القس لامبارسييه نفسه أن يذهب للبحث عني ومعه ابن عمي الذي سيظفر بالانتصار على في تلك المناسبة .

وعلى الفور تبخرت مخاوفى الا الخوف من اكتشافهم لفرارى .وجريت كالسهم الى الكنيسة .وفى هذه المرة لم أضل طريقى .بل وصلت فورا الى المنبر وصعدته وتناولت التوراة . وفى ثلاث قفـزات كنت فى الفنـاء وأسرعت عائدا الى البيت قبيل أن تخرج البعثة للبحث عنى .

وقد تسألنى هل أنصح باحتذاء هذا المثال. وأنا لا أعتبره مثالا صالحا لخلوه من البهجة والسرور .والأفضل فى نظرى أن أدعو مع تلميذى أطفالا من سنه يخرجون جماعات فى الليل للسمر والغناء واللعب بحيث لا تساورهم فكرة الفزع .وقد أصطنع لهم ألعابا فى الظلام للبحث عن أشياء واحضارها من أماكن منعزلة مظلمة . وأجعل للفائز جائزة شهية من الحلوى أو غيرها مما يجعل المسألة تنافسا محبوبا .

وأترك للمربين تنويع أفانين هذه الألعاب . فالمهم أن ينشأ الطفـل متعودا على الظلام والسلوك فى الليل ، واستعمال رجليه ويديه مهما كانت شدة الظلام من غير وجل . فان مخيلته حين تكون ممتلئة بالألعـاب البهيجة التى اقترنت بالظلام فى حداثته ، لن تخيل اليه الأشياء المفزعة . ولن يفزعه الليل . بل يحبه ويثير فى نفسه الطمأنينه والابتهاج .

منافع السباق

ان كل ما يتيح للجسم الحركة من غير أن يرهقه ،يمكن دائما حث الأطفال على فعله بسهولة . وهناك ألف وسيلة لاثارة اهتمامهم ودفعهم الى قياس ومعرفة وتقدير المسافات .

فان كانت أمامنا مثلا شجرة كرز عالية جدا ،تثير أمام الطفل مشكلة قطف الكرز منها .وتتساءل هل يكفي سلم مخزن القمح للصعود اليها؟.

وان كان أمامنا مجرى ماء عريض .تتساءل كيف يمكننا أن نعبره ؟هل يكفي لذلك لوح من ألواح الفناء نضعه على احدى الضفتين فيصل بنا الى الضفة الأخرى ؟.

ولنفرض أننا نريد أن نصيد السمك من الخندق المحيط بالقصر ونحن نطل من شرفة القصر . فكم ينبغي أن يكون طول خيط الشعر ؟ .

أو لنفرض أني أريد عمل أرجوحة ما بين شجرتين . فكم طول الحبل الذي يلزم لذلك ؟وان قيل لنا ان هناك حجرة مساحتها خمسة وعشرون قدما مربعة ،فهل يحتمل أن تكون مساحتها كافية لاقامتنا ؟ وهل تكون أوسع من الحجرة التي نحن فيها الآن ؟ .

وحينما نكون في نزهة في الخلاء ونشعر بالجوع ، وهناك قريتان عن يمين ويسار ، فالى أي القريتين يكون وصولنا أسرع لنظفر بالطعام ؟ وهكذا ..

واذا كان المراد تمرين طفل مدلل كسول على السباق والجري ،وكان هذا الطفل غير ميال لهذه الرياضة ولا لغيرها ،مع أن المفروض أن يتهيأ هذا الطفل لمستقبل في الجندية .ذلك أنه استقر في ذهنه لا أدري كيف

أن رجلا من طبقته لا ينبغى أن يعمل شيئا .وأن نبالته يجب أن تكون فيها الكفاية له عن الأذرع والسيقان وجميع أنواع الكفاية .

ومن الصعب أن تقنع طفلا بممارسة السباق .ولاسيما أننى أخذت نفسى بالامتناع عن الترغيب والرهبة والتهديد .فكيف يمكن أن أثير لديه الرغبة فى الجرى من غير أن أقول له شيئا من هذا القبيل ؟

لو أننى شخصيا جريت لما أجدى ذلك فى ترغيبه واليكم ما فعلته . كنت آخذ معى حين نخرج للنزهة بعد الظهر قطعتين من الحلوى من النوع الذى يحبه تلميذى غاية الحب وأضعهما فى جيبى.ويأكل كل واحد منا واحدة ونحن نتمشى بين الحقول ثم نعود مسرورين الى البيت.

ولاحظ ذات يوم أنى أخذت معى ثلاث قطع من تلك الحلوى .ولو تركته لشأنه لأكل ستا منها بغير تردد .فأسرع يلتهم قطعته كى يطلب منى القطعة الثالثة قبل أن أفرغ من قطعتى . فقلت له :

— كلا . انى أريد أن آكلها أنا .أو نقتسمها فيما بيننا .بيد أنى أفضل ان أجعلها موضوع نزاع بين هذين الفلاحين الواقفين هناك .ينالها أسبقهما فى الجرى الى موضعها .

وناديت الفلاحين .وأريتهما الحلوى .واقترحت عليهما الشرط .فلقى منهما قبولا عظيما .فاخترت حجرا مرتفعا جعلته غاية السباق ووضعت فوقه الحلوى .ثم رسمت على الأرض خطا وقف عنده الغلامان . ولما أصدرت الاشارة أسرع الغلامان فى الجرى وأدرك الظافر منهما الغاية قبل صاحبه ،فاستولى على الحلوى والتهمها بغير رحمة تحت أنظار المتفرجين وصاحبه المغلوب .

ولم يحدث هذا المنظر الأثر المطلوب لدى التلميذ فى اليوم الأول.

ولكنى لم أكترث ولم أتعجل .فتربية الأطفال مهنة يجب أن نعرف فيها كيف نضيع الوقت لنوفره فيما بعد .

واستمرت نزهاتنا اليومية على وتيرتها الأولى. وكنت أحيانا آخذ معى ثلاث قطع من الحلوى وأحيانا أربعا .وبين حين وآخر كنت أعقد سباقا بين غلمان الطريق جائزته القطعة أو القطعتان من تلك الحلوى ، ولئن لم تكن الجائزة ذات بال ،الا أن الظافر كان يحظى دائما بالثناء العـريض والمديح والتصفيق . مما يثير الحماسة فى المتنافسين . وفى أحيان كثيرة كنت أشرك فى السباق مجموعة بأسرها من الغلمان ، وأجعل مسافة السباق طويلة . فكان المارة يتجمعون مدفوعين بالفضول . ويرتفع الصيـاح والتشجيع .فتشتد حمية المتسابقين .وكنت أحيانا أرى تلميذى يشتعل حماسة ،فيقف ويصيح مشجعا ومحبذا .فكأن هذا السباق الريفى الساذج هو الألعاب الأولمبية بالنسبة له . وبمرور الوقت صار يضايقه أن يرى الحلوى التى يحبها تذهب الى حلوق الغلمان وهو واقف يتطلع اليها . وبدأ النبيل الصغير يدرك أن الجرى مسألة لا تخلو من فوائد لذيذة الطعم .وتذكر أن له ساقين مثل سائر الغلمان .وشرع يتمرن على الجرى وحده خلسة .

وتظاهرت أنا بأنى لا أرى شيئا ولا ألاحظ شيئا . ولكنى أدركت أن خطتى نجحت .ولما اعتقد أنه صار على قسط وافر من القوة والقدرة على الجرى . قال لى ذات يوم :

— اعطنى قطعة الحلوى الفائضة ، فانى أريد أن آكلها .

فأبيت . وألح أن يأكلها . وأخيرا قال بأسلوب التحدى :

— ليكن اذن . ضعها فوق الحجر ودعنى أتسابق اليها مع الآخرين. فضحكت وقلت له :

— وهل يستطيع النبلاء الجرى ؟ان الجرى سيزيد شهيتك للأكل. ولكنك لن تخرج من السباق ظافرا بما يشبع تلك الشهية !.

فحزت فى نفسه هذه السخرية .واجتهد فى ذلك اليوم أن يحصل على

السبق .وتيسر له ذلك فعلا .لأنى حرصت فى ذلك اليوم أن يكون الشوط قصيرا جدا .واستبعدت أسرع المتسابقين .حتى يكون فوز تلميذى مؤكدا فى المحاولة الأولى فينبت فى قلبه حب السباق .

وبمرور الأيام تعلق بهذه الرياضة حتى صار قادرا من غير محاباة على الفوز على الغلمان جميعا بالغا ما بلغ طول الشوط .

ومع مرور الوقت أيضا نشأت لديه عادة أخرى لم أكن أحلم بها .ففى بداية الأمر كان يأكل الحلوى التى يفوز بها بمفرده كما يفعل سائر المتسابقين .ولما تعود الانتصار أصبح كريما وصار يقاسم المغلوبين الغنيمة .فتعلمت من هذا الذى حدث معنى السخاء الحقيقى .

* * *

ويجب أن يتعلم اميل الرسم ولن أجعل معلمه فى هذا الفن سوى الطبيعة .ولم يكن النموذج الذى ينقل عنه سوى موضوعاتها .

أما دراسة الهندسة فستكون عن طريق القياس الدقيق للأشياء والأشكال ثم عليه بعد ذلك أن يبحث عن العلاقات التى بينها .لست أرى أن تتبع الطريقة المقلوبة فى تعليم الهندسة بعرض منطوق النظرية ثم البحث بعد ذلك عن اثباتها . ومن المرغوب فيه أيضا تنمية الملاحظة أثناء اللعب عن طريق العين والأذن والأصوات لتقدير المسافات .

إميل طفلاً

لقد اتخذت منهج الطبيعة نفسها فى تربية تلميـذى .وما لم أكن أخطأت فى تطبيق هذا المنهج ،فانى أفلح ولاشك فى توجيه هذا التلميذ عن طريق مملكة الحواس الى حدود العقل الطفلى .وأول خطوةتتجاوز بها تلك الحدود يجب أن تكون خطوة رجل لا طفل .

ولكن قبل أن ندخل فى هذه المرحلة الجديدة ،يجب أن نلقى بأنظارنا لحظة على المرحلة التى اجتزناها .

والآن متى نحس بلذة حقيقية من مشاهدة رجل ؟ .

انما يكون ذلك عندما ترد أفعاله ذاكرتنا الىباكورة عمره فتصغرسن هذا الرجلفىعيوننا .أما ان رأيناهكما هو ،أو كما سيكونفىشيخوخته، فان فكرة الذبول والوهن تقضى على كل سرور به .فلا سرور مطلقا من مشاهدة رجل يتقدم بخطوات واسعة نحو القبر .اذ أن صـورة الموت تزيد كل شىء قبحا .أما عندما أتصور طفلا فىالعاشرة أو الثانية عشرة من عمره ،سليم البنية قوى الصحة حسن التكوين بالنسبة لسنه. تكون عندى فكرة عنه مرضية لطيفة سواء بالنسبة للحاضر أو بالنسبة للمستقبل . فأنا أراه متوقد الحيـوية بريئا من الهموم المضنية . ومن الحصافة البعيدة المدى الشديدة العناء .يفيض بالحياةفيضانا يكاد يمتد الى خارجه . فأتصوره فى سن أخرى وقد اكتملت له حواسه وقـواه وذهنيته يوما بعد يوم . وهو يحسن استعمالها جميعا .وهكذا أشاهده طفلا فيعجبنى .وأتخيله رجلا فيزداد اعجابى به .وكأنما دمه الحار يبعث

الحرارة فى دمى . فأحس أنى أحيـا بحياته ، وأن حيويته تردنى الى الشباب .

وفى تلك السن تدق الساعة غالبا ، فيحدث تغير، وياله من تغير ! فاذا بعينه وقد خمد لمعانها ، وببهجته وقد انمحت . فوداعا للسرور وللألعاب اللاهية ! ان رجلا قاسيا متجهما يتناول يده ويقول له :

— هيا أيها السيد بنا ! .

ويدخل به الى حجرة ألمح فيها أكواما من الكتب .

الكتب !ياله من زاد كئيب قاتم فى سنه ! وينقاد الطفل المسكين ويلقى بنظرة حسرة على كل ما حوله ويسكت الى أن يخرج من الحجرة وقد انتفخت عيناه بالدموع الحبيسة وانتفخ قلبه بالتنهدات المكظومة ! .

انك أيها الطفل الذى أربيه لن تخشى موقفا كهذا الموقف .فانك نشأت بلا خوف أو وجل ،لا يقلقك طلوع النهار ولا يزعجك سدول الليـل ولا تعرف مشغلة لوقتك الا المسرات . ومربيك ليس شخصا مرهوبا لديك ،وانما هو رفيق لهوك ومسراتك وألعابك .

ان اميل فى هذه السن يفيض صحة وتوقدا .بشرته رقيقـة ولكنها ناضرة .وليس فيه تخنث .وعضلاته بدأت تتكون .ونظراته لامعة لم تطفئها الأحزان الطويلة .ورأسه الذى لم يدفن بين الكتب لايعـرف التدلى فوق صدره .

فلنأخذ اميل أيهـا السـادة ولنحاول أن نمتحنه . اسـألوه عن كل شىء بكل ثقة . ولا تخشوا أن يتلعثم أو يحـاول اثارة اهتمامكم بشخصه الى أن تضيق به .ولكن لا تنتظر منه عبارات منمقة أو صيغا محفوظة .وانما هى الحقائق مجردة فى بساطتها بلا زخرف وبلا غرور . انه سيعترف لكم بما فعل من شر أو جال بخاطره ،كما يعترف لكم بما فعل من خير ، غير مفكر أو محرج بالأثر الذى سيتركه فى نفوسكم ،ذلك أنه يستخدم الكلام ببساطة وصراحة متناهية .

ولئن كانت أفكاره محدودة . الا أنها واضحة ، ولئن كان لا يعرف شيئا عن ظهر قلب . فهو يعرف الكثير عن خبرة وتجربة . ولئن كان قليل القراءة في كتبنا على خلاف سواه من الأطفال ،فهو يحسن القــراءة في كتاب الطبيعة .وعقله ليس في لسانه ،بل في دماغه .وحافظتــه أقل نموا من واعيته وادراكه .ولئن كان لا يتكلم الا لغته القومية فحسب ،فهو يدري ماذا يقول بها . وان كان لا يحسن تنميق القول مثل غيره . فهو يحسن العمل أكثر من غيره .

ان اميل لا يعرف ما هي الآلية الروتينية وليدة العادة .فما صنعه بالأمس، لا يؤثر فيما يصنعه اليوم .والحق أن العادة تستمد تأثيرها من الكسل الفطري في الانسان ،وكلما استسلمنا للعادة زاد كسلنا ،لأن العمــل العادي أسهل ، من حيث ان تكرار العادة يشق الطريق ويمهده فيزداد السير فيه سهولة علينا . ولذا نلاحظ أن سلطان العادة أقوى ما يكون على الشيوخ والمدللين .وهو أضعف مايكون على الشباب وذوي الهمة. فتربية العادات ليست في صالح الأطفال لأنها توهن همتهم ونفوسهم يوما بعد يوم .والعادة الوحيــدة التي يحسن تربية الأطفال عليها هي عادة الانصياع للعقل . وكل عادة سوى هذه شر ورذيلة .

اميل اذن لا يتبع عادة معينة ،ولا يخضع اطلاقا لسلطة أو قــدوة . ولا يعمل أو يتكلم الا بما يروق له .فلا تنتظروا منه خطبا متحذلقة ،بل تعبيرا صادقا أمينا عن أفكاره .وسلوكا وليدا من ميوله ونزعاته .

ولئن وجدتم معلوماته الأدبية والأخلاقية قليلة ،ومحــدودة بعمره وحالته الطفلية ،ولا دراية لديه بالمفهومات الخلقية التي تتصل بحيــاة الرجال . فما قيمة ذلك بالنسبة له ، ما دام طفلا لم يصبح بعد عضوا عاملا في المجتمع ؟

اسألوه أو حدثوه عن الحرية وعن الملكية بل وعن العرف . وسيعرف

كيف يوفي الموضوع حقه في حدود أن ماله له ،وما ليس له فهو ليس له. ولماذا ينبغي ألا يؤذي سواه كي لا يؤذيه أحد .ويعرف تلك الأسباب جيدا .أما فيما عدا ذلك فلا يعرف شيئا .

حدثوه عن الواجب ،وعن الطاعة ،فلن يدرك ماذا تعنون بذلك .مروه بشيء أن يفعله ، فلن يفهم ولن يسمع . ولكن قولوا له :

— ان أديت لي هذه الخدمة رددتها لك بمثلها في حينها .

وستجدونه يخف لأداء الخدمة على الفور .لأنه حريص أن تكون له عليكم تلك الحقوق المقدسة ، حقوق المعروف المتبادل .

ومن جانبه ،ان احتاج الى مساعدتكم ،فسيطلبها من أول من يلقاه منكم بلا تردد ، أيا كان هذا الشخص . سيطلب المعونة من الملك كما يطلبها من خادمه . فجميع الناس سواسية في نظره . وسترون أنه حين يلتمس شيئا لا يلتمسه في مذلة ولا في الزام . بيد أنه يشعر أن ما يطلبه منة منكم . ولكنه يشعر في الوقت نفسه أن الصلة الانسانية تحمل الناس على اسداء تلك المنة .

واذا أنتم أجبتم ملتمسه ،فلا تنتظروا منه أن يشكركم .ولكن ثقوا أنه يشعر بمقدار دينه لكم .فان رفضتم اجابة ملتمسه لن يتذمر ولن يلح . بل سيقول لنفسه ان طلبه كان فوق طاقتكم . والتمرد على حكم الطبيعة والضرورة ليس من طبعه ولا من نشأته .

اتركوه وحده طليقا حرا .وانظروا ماذا يعمل من غير أن تقولوا له شيئا . ولاحظوا طريقة عمله .ولأنه مطبوع على الحرية فهو ليس بحاجة الى توكيد شعوره بالحرية عن طريق الأعمال الطائشة .

وسترونه متيقظا خفيفا بارعا مرن الحركات .ولكن ما من حركة يأتيها بلا هدف .ولا يحاول مطلقا أي أمر يتجاوز حدود قدرته .ذلك أنه

يعرف جيدا بالخبرة حدود تلك القدرة .ويعرف كيف يلائم بين أغراضه وقدرته ولذا قلما يجانب التوفيق فى أعماله .

ان نظرته ثاقبة ويحسن بها التمييز والتقدير .وهو معتمد على نفسه لا يسأل الناس أبدا عن أشياء يعرف هو كيف يحصـــل على معلوماتها بالملاحظة .فهو ميال لبذل المجهود كى يحصل بنفسه على المعلومات من دون سؤال .

واذا حدث أن وقع فى مأزق ،فلا تجده مرتبكا مذعورا . ولا تخيفه المخاطر .لأن مخيلته لم تنشط بعد وتربيته لم تساعدها على الاشتعال ، فنظرته الى الأشياء واقعية .وهذا سبب احتفاظه بثباته .

وسواء كان بصدد عمل أو بصدد لهو ،فالاثنان لديه واحد .فألعابه أشغال .ولذا فهو لا يفرق بين الشغل والتسلية أو الهواية .فهو لايعمل الا ما يهوى .

أليس هذا المنظر فى تلك السن مما يشرح الصدر ويسر الخاطر ؟فالطفل جميل متوقد النظرة طلق المحيا مطمئن النفس ،يقدم على الأعمال الجدية وكأنه يلهو ، ويقدم على اللهو بمجموع نفسه وذهنه .

أتريدون الآن أن تقارنوا بينه وبين سواه من أبناء سنه ؟ .

اخلطوه بين سواه من الأطفال واتركوه يتصرف .وسترون على الفور أيهم أقوم تكوينا ،وأقرب الى الكمال فى تلك المرحلة من العمر .

لن تجدوا بين أبناء المدن من يفوقه براعة .ومع هذا فهو أقوى منهم جميعا بنية .أما بين أبناء الريف فهو يضارعهم قوة ويفوقهم مهارة .ولديه حكم صائب وتمييز صادق فى كل ما يتصل بأحوال الطفولة .

أما الجرى والقفز ورفع الأثقال وتقدير المسافات وابتكار الألعـــاب والفوز فى المسابقات فهو فى كل ذلك لا يشق له غبار .

وهو مفطور على الزعامة والقيادة ،لا لايمانه بفضله على غيره حسبا أو سلطانا ،بل لأن مهارته وتجربته تؤهلانه لذلك .وفى أى مجموعة من أى طبقة ستجد له المكانة المرموقة .وسيشعر الجميع بتفـوقه عليهم . وسيكون هو السيد من غير رغبـة فى السـيطرة .وسـيطيعونه وهم لايشعرون .

لقد وصل اميل الى نضوج الطفولة .ولم ينزل فى سبيل ذلك النضوج عن مباهج الطفولة وسعادتها . بل سارت المسرات والنضوج جنبا الى جنب فاكتسب كل حكمة سنه وهو سعيد حر الى أقصى حد .فان وافاه الموت الآن فلن نبكى موته وحياته معا ولن تتحسر لما حرمناه من ملذات الطفولة وسبباه له من آلام .بل سنجد العزاء فى أنه استمتع بطفولته فى كل لحظة ولم نحرمه من أى نعمة أفاضتها عليه الطبيعة .

وأسوأ ما فى هذه التربية الاستقلالية الأولى أن عقلاء الناس وحدهم هم الذين يقدرونها قدرها . أما سواهم من الدهماء فلا يرون فى مثل ذلك الطفل الا متشردا عديم التربية . والمعلمون يفضلون كسب السمعة على حساب تكوين الطفل ، وكأن الطفل سلعة كل همهم منها الربح .

الكتاب الثالث

الغلام من الثانية عشرة إلى الخامسة عشرة :

التربية الذهنية

- التعليم التجريبى
- فكرة المنفعة
- أميل نجارا
- تكوين الحكم
- أميل في الخامسة عشرة

التعليم التجريبي

فلنحول احساساتنا الى أفكار ، ولكن ينبغى ألا تقفز طفرة واحدة من الأشياء المحسوسة الى الأشياء الذهنية أو المعقولة . بل يجب أن يكون وصولنا الى تلك الأشياء المعقولة عن طريق الأشياء المحسوسة . ولذا يجب أن تكون الحواس مرشد الفكر ودليله فى عملياته الأولى . ولا ينبغى أن يكون هناك كتاب لدى الفتى غير كتاب الدنيا من حوله . ولا ينبغى أن يكون هناك تعليم أو ارشاد الا ما تلقنه اياه الحوادث والوقائع .

ان الطفل الذى يقرأ لا يفكر . فهو يقرأ فحسب . انه لا يتعلم حقا . بل هو يحفظ ألفاظا فحسب .

اجعل تلميذك يتنبه لظاهرات الطبيعة ، وسرعان ما يصبح متطلعا يملؤه الفضول اليها . ولكن اياك أن تتعجل اشباع هذا الفضول الذى أيقظته عنده . بل ضع المسائل فى متناول يده ، ثم دعه يتول حل كل مسألة منها بنفسه . اذ يجب ألا يعرف شيئا على أساس أنك قلته له أو لقنته اياه ، بل لأنه فهمه بنفسه . انه يجب أن يخترع العلم ويكتشفه ، لا أن يحفظه ويتلقنه . فانك ان أحللت يوما فى عقله سلطانك مكان تفكيره ، فلن يفكر بعدها ولن يعقل ، ولن يصبح الا ألعوبة لآراء سواه من الناس .

لنفرض أنك تريد أن تعلم ذلك الطفل الجغرافيا ، وأراك تريد أن تأتيه بمجموعة من الكرات الأرضية والأفلاك والخرائط . يا لها من أدوات ! ما لزوم كل هذا ؟ ولماذا كل هذه النماذج ؟ أليس الأولى ثم الأولى أن تبدأ باطلاعه على الشيء الأصلى نفسه ، حتى يعرف على الأقل ما الذى تكلمه عنه ؟!

اخرج معـه للنزهة فى ليـلة صافية فى مكان مناسب ، حيث أفق السماء منكشف بحيث تريان معا غروب الشمس بوضوح تام. وستلاحظان المعالم التى تحدد المكان الذى اختفى فيه قرص الشمس. ثم فى اليوم التالى تخرجان الى ذلك الموضع نفسه فى ساعة مبكرة لاستنشاق نسيم الفجر. وستريان الشمس تعلن عن بزوغها بتلك الأضواء النارية كألسنة اللهب التى تندلع فى الأفق ويزداد منظر الحريق استفحالا كأنما شبت النـــار فى الأفق الشرقى كـله . ويطـول انتظـار ظهـور قرص الشمس نفسه . وأخيرا يظهر . وتتهتك آخر أستار الظلام ثم لا تلبث أن تتهاوى جميعا . فاذا كل ما فى الأرض قد اكتسى جلبابا جديدا من رواء ونضارة. واذا الزرع قد زهت خضرته. والطيور أطلقت حنـاجرها فى صوت واحد لتحية مصدر الحرارة والحياة فى عالمنا. وانه لمنظر يستغرق نصف ساعة على الأقل يفتتن به أى انسان مهما تكرر على حواسه هذا المشهد .

وقد يخطر للمعلم أن ينقل حماسته الى تلميـذه بشروح وتعبـيرات وتعليقات، ولكن يالها من حماقه! فان جمال الطبيعة لايمكن أن يحس بالألفاظ، بل بالمشاهدة المباشرة. وادراك العلاقات التى بين الأشـياء الجميلة لا يتم بالشرح، بل بالتجربة المتفاوتة لأجـواء مختلفة ومنـاظر متباينة. فدع عنك الوصف والبيان والاسـتعارة والشعر . بل اتركه لاحساساته .

ولكن انتهز هذه الفرصة ، بعد أن تترك له فسحة من الوقت لتأمل الجمال فى موكب الشروق، وأشر الى الأشياء التى تجاور مطلع الشمس، ثم در معه بصفة طبيعية لمشاهدة المعالم المحيطة بذلك المكان . وقف صامتا أمام كل اتجاه كأنك تفكر تفكيرا عميقا فيما ترى ، ثم قل له أخيرا :

— يخيل الى أن الشمس أمس مساء غربت هناك فى ذلك الموضع

وها هى قد أشرقت علينا من هناك هذا الصباح .فكيف أمكن أن يحدث هذا ؟ كيف تشرق الشمس من غير الموضع الذى غربت منه ؟ .

ولا تزد على ذلك حرفا . وان رماك بالأسئلة ، فلاتجبه عنها ، بل تكلم فى موضوع آخر . واتركه لنفسه . وثق أنه سيفكر فيطيل التفكير فى تلك المسألة .

أجل . لكى يتعود الطفل الانتباه واليقظة ،ولكى تجابهه حقيقة من الحقائق الحسية ، يجب أن تسبب له تلك الحقيقة عجبا يدوم بضعة أيام قبل أن تتكشف له . فان لم يتصور تلك الحقيقة بهذه القوة على هذا النحو ، يجب أن نجعله يحسها بمزيد من القوة وذلك بأن نعود الى اثارة المسألة . فان لم يعرف بعدها كيف تنتقل الشمس من مغربها الى مشرقها فسيعرف بالمشاهدة المباشرة كيف تنتقل الشمس من مشرقها الى مغربها. فهو ليس بحاجة فى هذا الادراك الا الى عينيه المجردتين .

قم بعد ذلك بتوضيح المسألة الأولى بالمسألة الثانية .أى بتوضيح حركة الشمس الخفية عن الأنظار من المغرب الى المشرق بحركة الشمس الظاهرية من المشرق الى المغرب .وما لم يكن تلميذك آية فى الغباء ، فسيدرك حتما وجه الشبه الواضح للغاية بين المسألتين .وبهذا يتم له أول درس فى الجغرافيا الفلكية .

وليكن تأدينا بطيئا دائما من فكرة محسوسة الى فكرة محسوسة ، بحيث نألفها طويلا ونربط بينها وبين سابقتها قبل أن ننتقل الى فكرة تالية لها . ويجب على الخصوص ألا نجبر تلميذنا اطلاقا على الانتباه لمسألة ما بوجه الارغام . ويكفى أن نوجه أنظار التلميذ بعد اكتشافه لحركة الشمس الدائرية ولشكل الأرض الكروى كى يكتشف أن جميع الحركات الظاهرية للأجرام السماوية قائمة على هذا المبدأ بعينه .

ولما كانت الشمس تدور حول الأرض على شكل دائرة .فكل دائرة

يجب أن يكون لها مركز . وهذا المركز طبيعي لا نراه لأنه فى جوف الأرض .ولكن يمكننا تصوره .وتصور عامود يخترقه ،هو محور الأرض.

وفي السهرات الليلية يمكن أن تتسلى مع التلميذ باكتشاف الدب القطبي ، ونخبره بأنه سمي بالقطب لأن محور الأرض متجه اليه دائما . ومن مثل هذه التسلية يتربى لديه الذوق الفلكي وحب ملاحظة الكواكب والنجوم فى مساراتها .

وننتقل عندما يأتي موسم عيد الميلاد للنزهة في الموضع الذى راقبنا منه شروق الشمس صيفا . وسنلاحظ أن الشروق فى موسم عيد الميلاد منحرف عن ذلك الموضع في الصيف .ومن هنا نثير مسألة تحديد الشروق فى الصيف ، وتحديد الشروق فى الشتاء . ويجرنا ذلك الى اكتشاف أصول جغرافية أخرى ،لا على نماذج من الدمى ،بل بمشاهدة الشمس ذاتها والأرض ذاتها .

وعلى الجملة لا تستعض مطلقا بالرمز عن الشيء ذاته الا عند استحالة الدراسة على الطبيعة ،لأن الرمز يستغرق انتباه الطفل وينسيه المرموز اليه .

* * *

وأما عن دراسة العلوم فألاحظ أننا لا ننجح مطلقا فى وضع أنفسنا موضع الطفل ،ولهذا تتصور أفكاره كأفكارنا ونحاول أن نعلمه العلوم عن طريق منهجنا فى الاستدلال .فنصب فى أدمغة الأطفال سلسلات من الحقائق التى تغدو فى تلك الأدمغة أكواما من التهاويل والأخطاء .

وهناك خلاف حول اختيار منهج التحليل أو منهج التركيب لدراسة العلوم .ولا لزوم فى الواقع للاختيار بينهما .فأحيانا يمكننا أن نحلل ونركب فى البحث الواحد .ونقود الطفل بينما هو يظن أنه منصرف للتحليل . فالطريقتان متكاملتان . واذا استخدمناهما معا ، فسيدهش

الطفل اذ يجد أنهما تتلاقيان .وذلك حين نجمع بين اكتشاف الحقائق بالتحليل وبين عمل التجارب التطبيقية التي تؤدى الى نوع من التركيب.

ويمكن استخدام ذلك في الجغرافيا مثلا بأن نحاول مع دراسة حركة الأرض أن نقيس أجزاءها ،فنبدأ بالمنطقة التي نسكنها .وبذلك يجمع التلميذ بين ملاحظة السماء وملاحظة الأرض.فليحدد الطفل أولا موقع البيت الريفي من المدينة .ثم يحدد الأماكن والمواضع التي بينهما ،ثم الأنهار المجاورة ،وأخيرا اتجاه الشمس .وبذلك يتم الربط بين جميع هذه التفاصيل .

وليقم التلميذ بنفسه بعمل خريطة ذلك كله .ولتكن خريطة بسيطة جدا لا تتضمن في البداية الا شيئين .ثم يضيف شيئا فشيئا التفاصيل الأخرى ،بحيث يعرف أو يقدر المسافات فيما بينها ومواضعها . ومن هذا يتضح جدوى تربيتنا لحاسة النظر منذ الطفولة كي يتقن الطفل تقدير الأبعاد والمواقع .

ومع هذا يجب أن نرشده قليلا جدا من غير أن نظهر ذلك .وان أخطأ فلنتركه يخطىء ولا نصحح خطأه .بل ننتظر صامتين الى أن يكتشف أخطاءه ويصححها بنفسه .أو على الأقل فلننتهز فرصة مواتية كي نقوم بعملية تجعله يفطن الى وجه الخطأ من تلقاء نفسه .فانه ما لم يخطىء اطلاقا لن يتعلم حق التعلم .

وعلى كل حال ليس المقصود أن يعرف معالم الاقليم بالضبط ، بل المقصود أن يكون ذلك وسيلة لتعلمه بوجه عام مبادىء الجغرافيا بالاستنباط من دراسة اقليمه .

أجل ليس المقصود أن يحشو دماغه بالخرائط ،بل المهم أن يتصور ما تمثله تلك الخرائط ،وأن تكون لديه فكرة محددة عن الفن الذى

يستخدم في عملها .وهكذا يعرف التلاميذ الآخرون الخرائط ،أما تلميذى فيصنعها .وتلك نمارق جديدة يزين بها حجرته الخاصة .

وتذكروا دائما أن هدف من التعليم ليس الاكثار من المعلومات ، بل ألا أدع شيئا يتسرب الى ذهن التلميذ سوى الأفكار الدقيقة الواضحة.
فليس يعنينى ألا يعرف شيئا ،ما دام لا يعرف شيئا خاطئا مغلوطا .وليس همى أن أودع دماغه الحقائق الا لأحميه من الأخطاء التى كان حريا أن يتعلمها بدلا منها .

ان العقل والتمييز يتحققان لديه على مهل .أما المزاعم فتنهال عليه أفواجا .ومن هذه المزاعم المتدفقة ينبغى أن نجتهد فى حمايته .أما اذا نظرتم الى العلم فى ذاته ،فستتورطون فى بحر ليس له قرار وليس له شاطىء ،حافل بالأصداف ،ولن تجدوا الى الخروج منه سبيلا على الاطلاق .

* * *

لقد كان الوقت فى فترة الطفولة طويلا ،وكان همنا منصرفا الى تضييعه ، خشية أن ننزلق الى سوء استخدامه . أما الآن فالأمر بالعكس وليس لدينا ما يكفى من الوقت لنعمل كل ما هو نافع .فتذكر أن العواطف قد اقترب أوانها . وأنها متى طرقت باب تلميذك ، فلن يهتم تلميذك بسواها .

ان عمر الذكاء الهادىء الوادع قصير ،وسرعان ما ينقضى .وأمامك الكثير الذى ينبغى أن تستغل هذا العمر فيه . فمن الغباء أن تظن أنه يكفى ذلك الأمد لجعل الطفل عالما من العلماء .

ليس الغرض فى هذه الفترة اطلاقا أن تعلمه العلوم ،بل الغرض أن نربى فيه الذوق ليحبها ، ونربى لديه مناهج تعلمها بنفسه عندما يبلغ ذلك الذوق أشده . وهذا يقينا هو المبدأ الأساسى لكل تربية جيدة .

وهذا أيضا هو أوان تعويده شيئا فشيئا على الانتباه المتصل بموضوع بعينه . ولكن ليس بالارغام اطلاقا بل بالسرور أو الرغبة التى يجب أن تنتج هذا الانتباه . فالحذر كل الحذر من ثقل الموضوع على نفسه بما يدفعه الى الملل .

ان سألك التلميذ بنفسه فليكن جوابك بحيث يذكى فضوله بدلا من أن يشبعه . وخصوصا حينما تلمس أن سؤاله صدر عن اهتمام سطحى بالموضوع .فليكن انتباهك لا الى لفظ السؤال بل الى باعثه على القائه . وهذا التحذير ربما لم تكن له أهمية فى الطفولة الأولى ، أما الآن وقد بلغ الفتى سن التعقل ، فينبغى أن يكون اهتمامه بما يسأل اهتماما عقليا صحيحا .

وهناك سلسلة من الحقائق الكلية تربط بين جميع العلوم بمبادىء مشتركة .وهذه السلسلة هى التى نجدها فى منهج الفلاسفة . وليست هى التى تعنينا . ولكن السلسلة التى تعنينا هى ترابط كل موضوع جزئى بموضوع جزئى آخر .وهذا الترابط هو الذى يثير الفضول وينقل الاهتمام من حقيقة الى أخرى ، ويحتاج لاهتمام شديد . وهذا هو ماينبغى أن نعلمه للأطفال .

لقد لاحظت مثلا أنا وتلميذى منذ زمن طويل أن الزجاج والشمع والكهرمان ، وأجساما أخرى ، متى دلكت جذبت القش . وأن سائر الأجسام لا تجذبه . ثم نكتشف صدفة خاصة أخرى أشد غرابة . وهى أن جسما معينا يجذب على مسافة ومن غير دلك برادة الحديد والدبابيس . فتسلينا هذه الظاهرة ونلهو بها وقتا طويلا من غير أن نفطن الى شىء آخر .

وأخيرا نكتشف أن هذه الخاصة تنتقل الى الدبابيس نفسها فتصبح

ممغنطة وتجذب سواها على نحو خاص . وبالتدريج نكتشف قوانين الفيزياء المغناطيسية بكل تفاصيلها وقوانينها .

وسيكتشف اميل بتجارب مماثلة قوانين الاستاتيكية . على أن يركب أجهزته بنفسه ويخترعها بنفسه وبهذا يشارك جسمه كله فى النشاط الذى يقوم به الذهن .

ولمساعدة الذاكرة يجب أن يكون الانتقال من تجربة الى أخرى بحسب نظام منطقى .

فكرة المنفعة

ينبغي أن نعود الطفل على الشعور بمنفعة ما يتعلمه وجدواه . وبذلك يتعود ألا ينقاد انقيادا أعمى في أعماله وأفكاره . وننمي فيه روح المبادأة .

فلنفرض أني بينما أدرس مع تلميذي مجرى الشمس وطريقة الاتجاه أنه استوقفني ليسألني ما جدوى كل هذا . وانها لمناسبة فذة كي أعرفه أشياء ثمينة جدا . وألقي عليه خطبة بليغة عن منافع الرحلات وفوائد التجارة ،والحاصلات الخاصة بكل اقليم من أقاليم الأرض والعادات الخاصة بكل شعب من شعوبها ،وعن استخدام التقويم ، وفائدة تعاقب الفصول لتنظيم مواسم الزراعة . وعلاقة كل ذلك بالتاريخ الطبيعي والسياسة والفلك والأخلاق نفسها .

ولو فعلتها لأتيت شيئا رنانا يبهر السامعين ولكنه يجعل من تلميذي فدما لا يفهم شيئا مما قلت . أما اميل فلن يسمع مني شيئا من ذلك . ولو شرعت فيه لأوقفني عند أول عبارة ولتركني وغادر الحجرة لأن ما أقوله لا يعنيه . بل ينبغي أن أتخذ لتفهيمه فائدة اتجاه الشمس ومسارها أن أقدم له تجربة عملية .

سآخذه الى غابة في شمال القرية بمجرد أن يسألني سؤاله عن جدوى تلك الدراسة ، وأقول له :

— معك حق . فهذا سؤال يحتاج التفكير فيه لفراغ . ولهذا سنترك الدراسة الى أن نهتدي لمنفعتها .فان ثبتت لها منفعة عدنا اليها على بينة . والا وفرنا تعبنا . فهيا نتنزه بقية يومنا في الغابة .

وفي اليوم التالي أيضا آخذه منذ الصباح الباكر للنزهة قبل الافطار .

وهذا شيء يستهويه طبعا ، لأنه فرصة للجرى والنط فى الخلاء . ونوغل فى الغابة ونضل الطريق فى داخلها فلا نعرف أين نحن ولا كيف نعود .

وينقضى الوقت . ويهجم الحر . ويهجم الجـوع . وتتعجل العودة . وتتخبط يمينا وشمالا فلا نرى الا أشجارا ولا نجد ما يهدينا الى المخرج من التيه . فكل خطوة تزيد من ضلالنا . وأخيرا ينال منا التعب فنجلس على العشب ونفكر . ولما كان اميل تربى على الشجاعة فلن يبكى . وبعد لحظات من الصمت أقول له بلهجة القلق :

— يا عزيزى كيف نخرج من هنا ؟ .

— لا أدرى .لقد تعبت وجعت وعطشت .ولم أعد أطيق أكثر من ذلك.

— ألا تظن أنى فى مثل حالتك ؟ كم الساعة الآن ؟ .

— نحن فى الظهر . وأنا لم أفطر .

— آه ! لابد أنك جعت .

— طبعا . وأنت ؟ .

— وأنا أيضا . ولكن الكارثة أن غذائى لايمكن أن يأتينى الى هنا . بل يجب أن أذهب أنا اليه . نحن الآن فى الظهر . أى بالضبط فى الوقت الذى وقفنا فيه بالأمس عند القرية لنلاحظ موقع الغابة . فلو استطعنا أن نلاحظ من الغابة موقع القرية لانحل الاشكال .

— طبعا . ولكننا بالأمس كنا نرى الغابة ونحن فى القرية .أما هنا فى الغابة فلا نرى القرية ! .

— وهذه هى الكارثة . فلو استطعنا أن نستغنى عن مشاهدة القرية عند تحديد موضعها من هنا ؟ .

— على رسلك يا صديقى ! .

— ألم نكن نقول بالأمس ان الغابة كانت الى ..

— شمال القرية ! .

ـ اذن يجب أن تكون القرية الى ...

ـ جنوب الغابة .

ـ وهل لدينا وسيلة لمعرفة الشمال وقت الظهر ؟ .

ـ نعم . باتجاه الظل .

ـ والجنوب كيف نعرفه ؟ .

ـ ما العمل ؟ .

ـ ان الجنوب عكس الشمال .

ـ هـذا صحيح . ليس علينا الا البحث عن عكس الظل . من هنا الجنوب ! من هنا الجنوب ! لابد أن القرية فى هـذه الجهة . فلنذهب من هذه الناحية .

ـ ربما كنت على حق . هيا بنا .

وبعد مسافة يسيرة يصفق اميل بيديه ويطلق صيحات السرور والفرح ويهتف :

ـ ها هى القرية ! هيا بنا نتغدى ! اسرع ! حقا ان الجغرافيا الفلكية شيء نافع ! .

وثقوا أنه ان لم يقل هـذه العبارة الأخيرة بلسانه ، فسيتعقلها فى ذهنه . وليس هذا هو المهم . انما المهم أن أقولها أنا له . وثقوا أيضا أنه لن ينسى ما عاش الدرس الذى تلقنه فى ذلك اليوم . أما لو قلت له بلسانى جميع منافع تلك الدراسة ونحن فى الحجرة لنسى كل ما سمع فى آخر النهار . فالواجب أن نكلم التلميذ بلغة الأفعال والحوادث . ولا نقول باللسان الا ما نعجز عنه عمليا .

* * *

وبمجرد أن يبدأ الطفل فى التفكير والتعقل ، يجب أن نحول بينه

وبين مقارنة نفسه بسواه من الأطفال . لأنه لن يجنى من ذلك الا احدى سيئتين : اما الحسد واما الغرور . فليكن هو معيار نفسه . فذلك وحده أنفع وأجدى .

ان الكتب ضارة لأنها تعلمه أن يخوض بالكلام فيما لا يعرف . ولن أترك بيد اميل الا كتاب روبنسون كروزو لأنه صورة رجل عمل بمفرده على حفظ حياته . فهو جدير أن يرتفع باميل فوق مستوى المزاعم المنقولة عن الغير ويعلمه الحكم السليم الصائب على العلاقات التى بين الأشياء .

اميــل تجـــارا

اميل يعيش فى المجتمع . فينبغى اذن أن يدرس العلاقات الاجتماعية . ولكن ينبغى ألا نطلعه على تلك العلاقات من جانبها المعنوى الأخلاقى ، بل نوجه انتباهه أولا نحو الصناعة والفنون الميكانيكية التى تجعل الناس بعضهم نافعا لبعض .

وعلى خلاف العقيدة الشائعة سيتعلم اميل كيف يقدر الفنون المختلفة على أســاس منفعتها الحقيقية وحدها . ويجب أن نضع فى المقام الأول بين الفنون تلك التى يعم استخدامها ولا غنى عنها للبشرية . وأعنى بذلك الزراعة والحدادة والنجارة .. الخ . أما الاقتصاد الســياسى فسوف لا يعرف عنه اميل الا ما يتصل بالملكية وباستخدام النقود . فالنقــود هى الرباط الحقيقى فى المجتمع بين الناس . من حيث هى تتيح تحقيق تبادل العمل ، وتبادل العمل هو أساس المجتمع بعينه .

فلنفرض أن لدينا عشرة رجال . وكل منهم لديه عشرة احتياجات . فمعنى هذا أن كلا منهم يجب عليه للوفاء بضرورياته أن يمارس عشرة أنواع من العمل . ولكن اذا راعينا اختلاف الذكاء والمواهب ، فسنجد أن الواحد منهم يتفوق فى نوع من العمل على زملائه ، ويتخلف فى نوع آخر من العمل عن هؤلاء الزملاء .

فاذا قام الجميع على اختلاف قدراتهم بأعمال واحدة حدث لدى كل منهم نوع أو أكثر من النقص وسوء الخدمة . أما اذا كونا مجتمعا من هؤلاء الرجال العشرة ، وتخصص كل واحد منهم فى نوع العمل الذى نبغ فيه ، بحيث ينتج منه ما يكفيه ويكفى زملاءه التسعة ، استفاد كل

واحد من أفراد ذلك المجتمع من مواهب الآخرين كأنه متمتع بتلك المواهب جميعـا . وبذلك يزداد ازدهار ذلك المجتمـع ، وبالتمـرين المستمر والتخصص الدقيق ينتج كل واحد منهم مزيدا من السلعة ، بحيث يجد المجتمع بعد برهة وجيزة أنه يملك فائضـا من انتاجه يربو عن حاجتـه الضيقة .

وهذا هو المبدأ الظاهرى لجميع المجتمعات . وعلى أساس هذا المبدأ نجد أن الرجل الذى يريد أن يعتبر نفسه كائنا منعزلا ، لا يرتبط اطلاقا بشىء ، ويكفى حاجاته بنفسه ، لن يكون الا كائنا شقيا . بل سيكون من المستحيل عليه أن يثابر على ذلك المنوال من الحياة . لأنه سيجد الأرض بأكملها تسودها روح اجتماعية . فلا يجد له من حطام الدنيا ما يملكه سوى نفسه .فمن أين اذن يستطيع أن يكفى حاجاته ؟ .

أما اذا خرج هذا الكائن المنعزل من حال الطبيعة البدائيـة فالموقف يتغير . ذلك أن خروجنا عن حال الطبيعة الأولى أجبر أقراننا على الخروج أيضا من حال العزلة الأولى . فما من أحد يستطيع أن يبقى فى عزلة بغير ارادة الآخرين . ولابد للشخص من الخروج من عزلته ، ما لم يكن راغبا فى البقاء فى حالة استحالة الحياة . لأن القانون الأول للطبيعة هو المحافظة على بقاء الذات .

وهكذا تتكون شيئا فشيئا فى ذهن الطفل معانى العلاقات الاجتماعية ، حتى قبل أن يصبح فعلا عضوا عاملا فى المجتمع . فاميل يرى أنه لكى يحصل على أدوات لاستعماله الخاص ، كذلك يجب أن تكون لديه أدوات تصلح لاستعمال الآخرين الخاص . وبمبادلة هذه بتلك يحصـل من الآخرين على احتياجاته مقابل حصولهم منه على احتياجاتهم . وبهـذا أقوده فى يسر الى الاحساس بالحاجة الى ذلك التبادل ، وبجدوى ذلك التبادل فى الوقت نفسه .

ولما كان أشد ما تنفرنا منه الطبيعة هو الموت ، فمن الواضح أن كل شيء مباح عند الضرورة للاستمرار فى الحياة ودفع غائلة الموت . أما المبادىء التى يتعلم منها الرجل الفاضل ازدراء حياته واهدارها فى سبيل واجبه ، فما أبعدها عن هذه القاعدة الطبيعية التى تقرر حفظ النفس .

وانى أقرر أنه ان وجدت فى الأرض دولة لا يستطيع كل واحد من أفرادها أن يعيش من غير أن يلحــق الأذى ويقترف الأثم ، وحيــث المواطنون لصوص بالضرورة ، فليس الآثم هو الذى ينبغى أن يشنق ، بل ذلك الذى أجبر الآثم على أن يغدو آثما كى يعيش ! .

وبمجرد أن يعرف اميل ما هى الحياة ، سيكون واجبى الأول أن أعلمه كيف يحافظ عليها .

وانى حتى الآن لم أميز الطبقات والمقامات والثروات . وليس فى نيتى أن أفرق بينها ، لأن الانسان هو الانسان بعينه فى جميع أحواله . وهيهات أن يكون للغنى معدة أكبر من معدة الفقير ، أو أن يكون أجود منه هضما . وهيهات لكبير أن يكون أكبر من رجل من عامة الشعب . فالاحتياجات الطبيعية واحدة لدى الجميع . ووسائل كفايتها يجب أن تكون متساوية لدى الجميع .

فلتكن التربية تربية الانسان من حيث هو ، لا تربية الانسان من حيث ما ليس هو ! ألا ترون أنكم اذ تعملون على تنشئة الرجل ليعيش فى طبقة معينة مما يجعله غير صالح لطبقة سواها . وأنه عند أى تغير يروق للأقدار سيكون هذا الشخص شقيا ، وستكون تربيتكم له مجهودا متواصلا للامعان فى شقائه ؟ .

أى شيء أسخف من سيد عظيم صار صعلوكا محملا مع فاقته بكل مزاعم حسبه ونسبه ؟ وأى شيء أحط من ثرى افتقــر ، وكلما تذكر ما تعلمه من احتقار الفقر زاد شعوره بحقارة مصيره ؟ .

انكم تركنون الى النظام الاجتماعى الحالى من غير أن تفكروا فى أن ذلك النظام عرضة لثورات لا مناص منها . وانه من المستحيل أن تتوقعوا سلفا أو تتنبأوا سلفا بما يمكن أن يحدث لأطفالكم غدا . ان الكبير يمسى صغيرا ، والغنى يمسى فقيرا ، والملك يمسى رعية . وضربات القدر ليست من القلة بحيث تظنون أنفسكم بمنجاة منها . اننا نقترب من قمة الأزمة، ونقترب من عصر الثورات . فمن ذا الذى يضمن لكم ماذا ستكونون عندئذ ؟ .

انى أقرر أنه من المستحيل أن تبقى الملكيات فى أوربا طويلا . لقد ازدهرت جميعها ببريق خلاب . وكل دولة تبلغ أوج البريق والازدهار تبدأ فى الانحدار . بل وعندى من الأسباب ما هو أخص من هذا المبدأ العام . ولكنى أمسك عن الخوض فى التفاصيل ، ولا سيما أن الحالة واضحة لكل ذى عينين .

انما ما أقامه البشر فى وسع البشر أن ينقضوه . وما من شيء مستعص على الالغاء الا ذلك الشيء الذى صنعته الطبيعة . والطبيعة فيما أعلم لا تصنع الأمراء والملوك والأغنياء ولا كبار الملاك والسادة ! .

فماذا يستطيع فى أيام محنته أن يصنع ذلك الفتى الذى لم تربوه الا للمجد والبذخ والسلطان ؟ماذا يستطيع فى أيام فاقته ذلك الذى ربيتموه بحيث لا يستطيع أن يعيش الا على الذهب ؟ ماذا يستطيع فى أيام عوزه ذلك المترف الأبله الذى لا يعرف كيف يخدم نفسه وكل قيمته فى أشياء غريبة عنه ؟ سعيد من استطاع أن يفارق الطبقة التى تفارقه ، ثم يبقى بعدها رجلا رغم أنف القدر ! .

فليمدح المادحون ما شاءوا ذلك الملك المهزوم الذى أبى الا أن يدفن قتيلا تحت أنقاض عرشه . أما أنا فأحتقره . فانى أراه غير موجود الا بالاضافة الى عرشه . فما لم يكن ملكا فهو ليس شيئا . أما من فقد

عرشــه واســتطاع أن يعيش مــن دونه فهــو أسمى من عرشــه . لأنه ارتفــع فــوق طبقــة الملــوك . فأيمــا جبــان أو وغــد أو مجنون يمكن أن يشغل مكانة الملك كأى انسان آخر . أما طبقة الرجال بمعنى الكلمة فقلما نجد رجلا يرقى اليها .

ان الرجل والمواطن أيا كان لا يملك ما يسهم به فى المجتمع الا نفسه . وجميع ممتلكاته الأخرى لايعطيها للمجتمع الا مرغما . فالرجل الغنى اما أن يكف عن التمتع بثروته أو يتمتع بهــا الجمهور منــه ، وفى الحالة الأولى يحرم الناس مما يحرم منه نفسه . وفى الحالة الثانية لا يعطى الناس شيئا . وهكذا يبقى دينه للمجتمع كاملا ما دام لا يدفع للمجتمع الا ما يملكه .

بيد أن أباه خدم المجتمع حين جمع تلك الثروة . وأنا أسلم بذلك . فيكون أبوه وفى دينه . أما دين الأبن فباق بغير وفاء .

انك أيها الغنى مدين للآخرين أكثر مما لو كنت ولدت بدون ميراث . لأنك ولدت متمتعا بمحاباة . وليس من العدل اطلاقا أن يفى انسان بدين انسان آخر للمجتمع . اذ أن كل انسان مدين بنفسه كلها للمجتمع فلا يمكن أن يؤدى للمجتمع دينا سوى دينه . ولهذا فليس من حق أى أب أن ينقل الى ابنه حق عدم النفع لنظرائه فى المجتمع . وهذا ما تفعله أنت أيها الوارث الغنى وقد انتقل اليك ثراء أبيك ، هذا الثراء الذى كان ثمرة عمله ، فبات فى يديك وسيلة للبطالة .

ان من يأكل خبز البطالة الذى لم يكسبه بعمله يسرق ذلك الخبز . والثرى الذى يتقاضى من المجتمع ما يعفيه من كل عمل لايختلف فى نظرى اطلاقا عن قاطع الطريق الذى يعيش على حساب السابلة ! .

ان الرجل الذى يعيش خارج المجتمع منعزلا ليس مدينا بشىء لأحد . ومن حقه أن يعيش كما يشاء . أما داخل المجتمع حيث يعيش بالضرورة

على حساب الآخرين ، فهو مدين لهم بالعمل ثمنا لمعاشه به ومنهم . وليس لهذه القاعدة أى استثناء .

فالعمل اذن واجب لا مناص منه للشخص الاجتماعى . وكل مواطن من أهل البطالة غنيا كان أو فقيرا ، وقويا كان أو ضعيفا ، فهو لص ! .

والعمل اليدوى هو أقرب جميع الأعمال البشرية الى حالة الطبيعة . وخير طبقة من حيث الاستقلال عن عوادى الزمن هى طبقة الصناع . فالصانع غير مرتبط الا بعمله . فهو حر ، فى حين نجد الزارع عبدا . لأن الزارع يتمسك بحقله ، ومحصول ذلك الحقل تحت رحمة غيره . فالعدو أو الأمير أو الجار القوى أو حجز قضائى يمكن أن يحرمه من ذلك الحقل . ويمكن النيل من الزارع عن طريق حقله بآلاف الوسائل . أما الصانع فمتى آنس مضايقة ، فسرعان ما يعد حقائبه ويأخذ ذراعيه معه ويرحل .

ومع هذا فالزراعة هى المهنة الأولى للانسان . وهى أشرف المهن وأنفعها . وهى لهذا أسمى مهنة يمكن أن يمارسها البشر . ولئن لم أقل لاميل تعلم الزراعة . فما ذلك الا لأنه يعرفها . فقد خبر جميع الأشغال الزراعية . وبدأ بها تعلمه ، واليها يعود بين حين وحين .

انى أقول لاميل :

— ازرع ماشئت من ميراثك عن أبويك . ولكن ان أنت فقدت هذا الميراث ، أو لو لم يكن لك ميراث ، فماذا تراك صانعا ؟ تعلم مهنة يدوية تتكسب بها عند الحاجة .

وانى أسمع الاعتراض من أبويه . ومن والدته على الخصوص . ولكننى أريد له أن يكون أكثر من دمية تؤدى دور اللورد أو الماركيز أو الأمير ، ثم تتغير الأيام ، فاذا به أقل من لا شيء . انى أريد له أن يكون أهلا

لمكانة لا تعلوها مكانة ، ولا يسلبه اياها أحد . أريد له أن يكون أهلا لمكانة الرجولة . وانها لمكانة يقل نظراؤه فيها كثيرا عن نظرائه فى المكانة الرسمية التى تريد أمه أن تعده لها .

وليس الغرض من تعلم المهنة التكسب بها حتما ، بل الغرض بالأكثر القضاء على المزاعم الخاطئة التى تفشت بين الناس بصدد العمل اليدوى .

انى أريد لاميل أن يتعلم مهنة شريفة نافعة ، لا مهنة ترف . لا أريد له أن يكون مطرزا أو مذهبا أو موسيقيا أو ممثلا أو مؤلفا . بل أفضل أن يكون اسكافا على أن يكون شاعرا .

وربما قيل ان الجلاد والجاسوس ورامى السهام صناع . ولكنى أقول ان هذه مهن مرتبطة بالحكومة . وأنا أريد له أن يكون مستقلا . وأن يكون عمله من الأعمال غير المكروهة أو المزدراة . ولهذا أفضل له مهنة كالنجارة أو الحدادة .

وله هو أن يختار ، فليس ذلك من حقى . وسيهتدى بما قرأه فى كتاب روبنسون كروزو ، الى اختيار مهنة مما احتاج أن يتعلمه . وسيسهل عليه الاختيار لأن تربيته الأولى ساعدته على تمرين عضلاته وحواسه فسوف لا يلزمه سوى وقت قصير لاتقان تفاصيل المهنة . ولذا أتمنى أن يختار اميل مهنة النجار . فهى مهنة نظيفة نافعة ، يستطيع أن يمارسها فى البيت ، ومنشطة للجسم وتحتاج لمهارة ودقة وشىء من الذوق .

وعندما يتعلم اميل مهنته هذه سأتعلمها معه فلا أحسبه يجب أن يعمل شيئا وحده . وفى هذه الأثناء نريد أن نعامل على أننا صبيان من صبيان النجار حقا ، لا على سبيل الهزل .

ولم لا ؟ أليس القيصر بطرس الأكبر كان يعمل بيديه فى منشر الخشب بالأجر كأى عامل ، ويقرع الطبل فى فرق جيشه كأى جندى ؟ .

ولكننا للأسف لا نستطيع أن نقضى كل وقتنا فى ورشة النجار . وأفضل طريقة أن نذهب مرة أو مرتين فى الأسبوع على الأقل لتمضية النهـار بطوله عند المعلم ، نستيقظ مبكرين فى ساعة العمل ونعمل تحت اشرافه ونأكل على مائدته . ثم نعود فى آخر النهار . فنتعلم بهـذه الوسـيلة أكثر من مهنة واحدة . لأننا فى الوقت عينه سنذهب فى أيام أخرى من الأسبوع عند الحداد أو الاسكاف ، فنتدرب أيدينا على مهن متعددة .

تكوين الحكم

ها هو فتانا أوشك أن يفارق الطفولة تماما . وقد شعر أكثر من ذى قبل بالضرورة التى تربطه بالأشياء . وبعد أن بدأ بتدريب جسمه وحواسه ، قمنا برياضة فكره وتمييزه . وأخيرا ألفنا بين عمل أعضائه وعمل ملكاته فجعلنا منه كائنا عاملا مفكرا ، ولم يعد أمامنا كى تتم تكوين الرجل الا أن نجعله كائنا محبا معقولا ، أى أن نعمل على تكوين عقله بعواطفه .

ولكن قبل أن ندخل فى هذه المرحلة الجديدة ، يجب أن نلقى نظرة على المرحلة التى نفارقها لندرك الى أى مدى كان وصولنا .

ان تلميذنا لم تكن لديه فى البداية الا احساسات . أما الآن فلديه معان وأفكار . كان من قبل يحس فحسب ، أما الآن فيميز ويحكم - لأنه من المقارنة بين احساسات متعاقبة أو متآنية ، ومن الحكم الذى نحكم به عليها تتولد احساسات معقدة يمكن أن نسميها فكرة أو معنى .

والطريقة التى تتكون بها المعانى هى خاصة الذهن البشرى . فالذهن الذى لا يكون المعانى الا على أساس علاقات واقعية ذهن صلد ، والذهن الذى تكفيه العلاقات الظاهرية ذهن سطحى . والذهن الذى يرى العلاقات كما هى ذهن دقيق . والذهن الذى يسىء تقديرها ذهن مختل . والذهن الذى يختلق علاقات لا وجود لها فى الحقيقة ولا فى الظاهر ذهن مخبول . والذهن الذى لا يقارن اطلاقا بين الأشياء ذهن معتوه .

والمعانى البسيطة ليست سوى احساسات قورن بينها . وهناك أحكام

فى الاحساسات البسيطة وفى الاحساسات المعقدة التى أسميها معانى بسيطة .

والحكم الذى يتضمنه الاحساس البسيط حكم سلبى محض . مجرد اثبات أن الشخص يحس ما يحسه . أما الحكم المتضمن فى التصور أو المعنى فحكم ايجابى لأنه يقرب ويقارن ويحدد العلاقات التى لا تحددها الحواس . وهذا كل الفرق بين الاحساس والمعنى . ولكنه فرق جسيم . اذ المقارنة بين الحواس هى التى تصحح أخطاء بعضها أحيانا . لأن الخطأ لا يكون فى الاحساس بل فى حكمنا المتضمن فيه . والمقارنة تصحح ذلك الحكم . كما فى حالة العصا التى تظنها وهى مغموسة فى الماء مكسورة .

اذن يجب أن أدرب اميل على تصحيح أحكام حواسه بالمقارنة بينها . وبهـذه الطريقة يتعلم الحـكم العقلى والتمييز الذهنى وتتكون لديه المعانى . وسيكون ذلك التدريب بواسطة تجارب مبسطة بحيث يفطن من تلقاء نفسه الى خطأ الحكم الظاهرى ويستخدم التمييز العقلى .

ومن قبيل تجربة العصا التى تبدو مكسورة فى الماء ، ما يتراءى لراكب سفينة متحركة من أن الأرض هى التى تتحرك ، أما هو فثابت فى مكانه . وما يبدو للسارى فى الليل من أن القمر يجرى بسرعة حين يمر بيننا وبينه سحاب سريع .

وعلى هذه الوتيرة أعلمه التفكير العلمى وتتكون لديه ملكة الحكم التى تقوده فى طريق تحصيل المعارف العلمية بنفسه .

سوف لا أعلمه بنفسي . فكل مهمتي أن أضع قدمه على طريق المعرفة السوى . ومتى تبين أن عليه تحصيل ما يريد من العلم ، فسوف يستخدم عقله لا عقل سواه من الناس في ذلك السبيل . وسأعلمه أن من الخطأ الاعتماد على السماع من الناس أو تلقين المعلمين .

فمعظم أخطائنا تأتينا من هذين الطريقين . ولا شك أن عقله سيستفيد من ذلك التمرين فائدة عظيمة ، كما تستفيد العضلات بممارسة الرياضة. وبهذه الطريقة لن يحمل ذهنه من المعلومات الا ما يقدر على حمله فعلا . لأنه لن يتعلم الا مايكتسبه ويكتشفه بتجربته. فلا يعى فى ذاكرته الا ماهو واثق سلفا من صوابه . وهكذا يستطيع الاعتماد على ما فى ذاكرته من غير تحفظ .

قد تكون معلومات اميل العلمية بهذه الطريقة محدودة . ولكنها على قلتها جيدة كلها وصائبة . انه قد يجهل الكثير . ولكن ما من شيء مما يجهله سيعجز عن معرفته يوما بهذا التكوين العقلى . فذهنه متفتح ذكى مستعد لمعرفة كل شيء . فهو على حد تعبير مونتانى ان لم يكن متعلما فهو قابل للتعلم . وحسبى منه أنه يعرف كيف يكتشف المراد من كل ما يفعله ، والسبب فى كل ما يعتقده .

ومرة أخرى ليس هدفى اطلاقا أن أمنحه العلم ، بل أن أعلمه كيف يكتسبه عند الحاجة ، وكيف يقدره حق قدره ، وأن يحب الحقيقة ويغلبها فوق كافة الأشياء .

آجل . ان التقدم بهذا المنهج بطيء . ولكن ما من خطوة نخطوها به يمكن أن تكون عقيمة ، أو نضطر بعدها للتراجع .

ان كل معلومات اميل طبيعية وجسمية . فهو لا يعرف من التاريخ اسمه ، ولا يعرف ما بعد الطبيعة والأخلاق . يعرف الصلات الجوهرية بين الانسان والأشياء . ولايعرف شيئا عن الصلات الاخلاقية بين انسان وانسان . يعرف كيف يعمم المعاني بعض الشيء ويجردها . ويرى الخواص المشتركة بين عدة أجسام ولكنه لا يفكر فى هذه الخواص من حيث هى مجردة عن الأجسام .

انه يعرف الامتداد المجرد عن طريق الأشكال الهندسية . ويعرف الكمية المجردة عن طريق الرموز الجبرية . ولكنه لا يحاول اطلاقا معرفة الأشياء فى ذاتها ، بل من حيث علاقاتها التى تعنيه فحسب . فهو لايكترث للعرف ، بل للمنفعة . ولا يقيم وزنا لرأى الناس فى الأشياء .

ان اميل مجد فى عمله مرن صبور حازم شجاع . ومخيلته لم تشتعل ، فهى لا تجسم له المخاطر . وقابليته للمرض ضئيلة ، ويعرف كيف يتألم بثبات لأنه تعلم ألا يعاند القدر .

وأما من جهة الموت فهو لا يعرف ما هو . بيد أنه تعود الخضوع بلا مقاومة لقانون الضرورة .فمتى وجب أن يموت سيموت من غير تأوه . وهذا كل ما تسمح به الطبيعة فى تلك اللحظة البغيضة لدى الجميع . فان تعيش حرا غير متعلق بالأمور الدنيوية ، ذلك خير وسيلة تتعلم بها كيف تموت .

وقصارى القول ، أن اميل لديه من الفضيلة كل ما يتصل بشخصه .أما الفضائل الاجتماعية فينبغى لكى يحصل عليها أن يعرف الصلات

الاجتماعية التي تقتضيها تلك الفضائل . وهي معلومات أصبح ذهنه متأهبا لتلقيها . فهو اذ نراه فى الخامسة عشرة يعتبر نفسه غير ذى أفضلية على سواه ويرى طبيعيا ألا يفكر فيه الناس .

انه لا يطالب أحدا بشيء . ولا يرى نفسه مدينا بشيء لأحد . فهو بمفرده فى المجتمع الانسانى ولا يعتمد الا على نفسه . وله فى ذلك الحق كل الحق ، لأنه أكمل ما يمكن أن يكون انسان فى سنه .

ليست له أخطاء . أو على الأصح ليست له الا الأخطاء التى لا مناص منها . وليست له رذائل . أو على الأصح ليست له الا الرذائل التى لا يستطيع أى انسان أن يتوقاها .

ان جسمه سليم وأطرافه قوية وذهنه دقيق خال من المزاعم . وقلبه حر خال من الأهواء . وحب البقاء والكرامة فيه طبيعى بازغ . وقد عاش لا يقلق أحدا ، راضيا مطمئنا حرا بقدر ما سمحت له الطبيعة بذلك .

فهل ترون أن طفلا بهذه الصورة بلغ الخامسة عشرة ، قد أضاع سنوات عمره السالفة هباء ؟ .

الكتاب الرابع
المراهقة والتعليم الديني

- التعاطف والرحمة
- دراسة التاريخ
- فائدة الأساطير
- التربية الدينية
- اعترافات كاهن ساقوا
- التربية العاطفية
- الذوق

التعاطف والرحمة

لم يعد اميل طفلا . والمراهقة تبدأ بنذر من التغيرات فى المزاج وفى الشكل وفى سحنة الوجه . فهذا هو الأوان الذى توشك أن تظهر فيه الأهواء . ولا بأس بالأهواء فى حد ذاتها . فهى الوسائل الرئيسية لحفظ الذات وحفظ النوع ، وهذان هما قوام غريزة الحياة لدينا .

وتختلف سن البلوغ على حسب الأجواء والأمزجة . ولطريقة التربية المتبعة مع الأطفال ضلع كبير فى تأخير البلوغ أو التعجيل به .

وبهذه المناسبة ينبغى أن نتساءل :

— هل من الواجب تنوير الأطفال منذ وقت مبكر بخصوص الأمور التى جرت العادة على اخفائها عنهم ؟ .

من المستحسن أن نؤخر ما استطعنا فضولهم فى هذا الخصوص . واذا وجهوا الينا أسئلة فمن المستحسن أن نلزمهم الصمت خيرا من أن نكذب عليهم . أما اذا قررنا تنوير الأطفال فى هذه المسائل ، فليكن كلامنا معهم فيها مصطبغا بطابع الجد . ولا ينبغى اطلاقا أن نتخذ سذاجتهم فيها وجهلهم بها موضوعا للمزاح . فان المزاح فى هذه الأمور يمهد للتهتك والاباحية فيما بعد .

* * *

ومن الخير أن تنمو الأهواء والانفعالات نموا بطيئا بحيث يعد بعضها للبعض الآخر ، وتنتظم فيما بينها بمجرد تولدها . فان الشاب اذا ظل طاهرا ، يتفتح قلبه أولا للانفعالات الطيبة كالصداقة .

ان ضعف الانسان هو الذى يجعله اجتماعيا - وعنـاصر الشقاء المشتركة بيننا هى التى تدفع قلوبنا الى الانسانية . فما كنا لنحس أننا مدينون للانسانية بشىء لو لم نكن بشرا .

أما كل ارتباط فهو دليل على نقص أو حاجة . ولو أن كل واحـد منا لم تكن به أدنى حاجة الى الآخرين ، لما فكر اطلاقا الى الارتباط بأحد .

وكذلك ، من عجزنا نفسه تتولد سعادتنـا اليسـيرة . والشخص السعيد حقا هو الشخص المنعزل تماما . فالله وحده هو الذى له السعادة المطلقة . ولكن من منا لديه فكرة عن هذه السعادة ؟ .

لو أن كائنا ناقصا استطاع أن يكفى نفسه بنفسه . فبماذا يتمتع ؟ انه سيكون دائما وحـده فى شقاء . وأنا لا أتصور أن من لا يحتاج الى شىء يمكن أن يحب شيئا . ولا أتصور أن من لا يحب شيئا يمكن أن يكون سعيدا ! .

ويترتب على هذا أن ارتباطنا بنظرائنا يكون أقل اذا شعرنا أنهم سعداء . فارتباطنا بهم من حيث آلامهم أشد من ارتباطنا بهم من حيث شقائهم . لأننا نرى فى آلامهم صورة طبيعتنا .

ولئن كانت الحاجات المشتركة توحد بيننا برباط المنفعـة ، فان الشقاء المشترك يوحد بيننا برباط المودة . ان منظر الرجل السعيد لايلهم الناس الحب قدر ما يثير فيهم الحسد . فهم أقرب الى اتهامه باغتصاب حق ليس له اذ يسعد سعادة يستأثر بها لنفسه . ونعانى من جرح الكرامة اذ نشعر أن هذا الرجل لا حاجة به الينا اطلاقا .

ولكن من ذا الذى لا يعطف على شقى يراه متألما ؟ من ذا الذى لايود أن يخلصه من آلامه ، لو أن ذلك الخـلاص كان لا يقتضى منا الا التمنى ؟ .

ان المخيلة تضعنا فى موضع الشقى أكثر مما تضعنا فىموضع الرجل السعيد . فنشعر أن حال الشقاء تؤثر فينا أكثر مما تحركنا حال السعادة. والرحمة شعور رقيق ، لأننا اذ نضع أنفسنا فى موضع من يتألم نشعر مع ذلك باللذة لأننا لا نتألم كما يتألم . أما الحسد فطعمه مر ، لأن منظر الرجل السعيد لا يتيح للحاسد أن يرى نفسه فى مكانه ؛ بل يثير فيه الأسى لأنه ليس فى مكانه فعلا .

فكأنما يعفينا الشقى من الآلام التى يعانيهـا . أما السعيد فكأنما قد انتزع منا الخير الذى ينعم به .

أفهل تريد أن تثير فى قلب الشاب وتغذى أولى بوادر الحساسية ، وتحول طباعه نحو فعل الخير والطيبة ؟ اذن لا تبذر فى نفسه بذور الكبرياء أو الغرور أو الحسد ، ولا تعرض على أنظاره منذ البداية صورة السعادة والرفاهية . كما تنبدى فى أبهة القصـور وبذخ البـلاط . ولا تصحبه الى المنتديات الراقية والمجتمعات الزاهرة ، ولا تطلعه على مظاهر الطبقة العليا الا بعد أن تمكنه من تقـدير وزنها فى حد ذاتها . فانك ان أريته المجتمع الراقى قبل أن يعرف البشر من حيث هم ، لاتكون قد كونته ، بل هدمته . ولا تكون قد علمته بل غررت به ! .

ان الناس من حيث طبيعتهم ليسوا ملوكا ولا عظماء ولا رجال بلاط ولا ثراة . فكافة الناس يولدون عرايا فقراء . معرضين للأوجاع ومنغصـات الحيـاة والهمـوم والأمراض والحاجات وسائر صنوف الآلام . فقصارى القول أنهم جميعا محكوم عليهم فى النهاية بالاعدام .

هذه هى حقيقة الانسان أيا كان . وما من بشر يستثنى من هـذه القاعدة المطلقة . فابدأ اذن بدراسة الطبيعة البشرية التى لا تنفصل أبدا عن البشر ، لأنها جوهرهم الباقى .

فى سن السادسة عشرة يعرف المراهق ما هو معنى الألم . لأنه يكون

قد تألم شخصيا . ولكنه لا يكاد يعرف أن الآخرين يتألمون أيضا .

ربما يكون قد شاهد أحدا يتألم . ولكن المشاهدة غير الاحساس . فالطفل كما قلت مائة مرة لا يتصور اطلاقا ما يحسه الآخرون . ولا يعرف آلاما غير آلامه . ولكن متى بدأ نمو الحواس يذكى فيه نار المخيلة ، يبدأ بالاحساس بما يعانيه نظراؤه ، ويتأثر لشكواهم ويتألم لآلامهم . وعندئذ يجب أن تصل الى قلبه صورة البشرية الكسيفة وتحمل اليه أول احساس بالعطف والحنان .

وبذلك تتولد لديه الشفقة التي هي أول شعور رابط يمس قلب الانسان . ولكى يغدو الطفل ذا حساسية ورحمة يجب أن يعلم أن له نظراء يعانون مثل ما عاناه ، ويحسون الآلام التى أحس بها ، وآلاما أخرى أيضا يجب أن تكون لديه عنها فكرة ، لأنها ربما نزلت به يوما .

والواقع أنه لا يمكن أن تتأثر بالشفقة والرحمة ما لم نخرج من أنفسنا وتتقمص الكائن الذى يتألم ، متجردين من أشخاصنا .

فنحن لا نتألم الا بمقدار ما نحكم بأنه يقاسيه . ذلك أننا لا نتألم فى أنفسنا ولأنفسنا ، بل نتألم فى أنفسنا له هو . ولهذا ما من شخص يمكن أن يغدو ذا حساسية الا عندما تتقد مخيلته وتبدأ فى اخراجه من ذاتيته .

ولاذكاء هذه الحساسية وتغذيتها وتوجيهها أو متابعتها فى نموها الفطرى واتجاهها الطبيعى ، ما علينا الا أن نقدم للشاب موضوعات يمكن أن يمارس فيها قوة التفتح التى فى قلبه . فتتمرس حساسيته على الاتساع لتشمل أشخاصا آخرين . وبهذا تثار لديه الطيبة الانسانية والشفقة والاحسان والرحمة والحنان وسائر العواطف الرقيقة التى تسر الناس بطبيعتهم ، وتمنع بزوغ الحسد والغيرة والحقد وسائر

العواطف القاسية المنفرة ، التى لا تلغى رهافة الحس فحسب ، بل تجعلها فى صورة سلبية غليظة .

ويمكن ايجاز هذه الخواطر فى قواعد ثلاث بسيطة :

القاعدة الأولى

لا يميل القلب البشرى الى أن يضع نفسه فى موضع من هم أسعد حالا منه ، بل فى موضع من هم أولى بالاشفاق .

القاعدة الثانية

نحن لانشفق على الآخرين اطلاقا الا بسبب الآلام التى لانعتقد أننا محصنون ضدها معصومون منها .

القاعدة الثالثة

الرحمة والرأفة بآلام الغير لا تقاس بكمية الآلام فى ذاتها ، بل بمقدار ما نفترضه فى المتألم من احساس نعيره اياه من ذواتنا .

ولا ينبغى أن نخشى من سوء تأثير مناظر الشقاء على احساس اميل بالسعادة . وأولى من اميل بالاشفاق من ينغمسون فى المجتمعات اللامعة ويعبون من ملذاتها . فانهم يقاسون ألف مرة من رغباتهم التى لاتتحقق، وكراماتهم المجرحة ، ومن الغيرة والحسد .

أما اميل فيتمتع بسعادة هادئة أكيدة . والرحمة التى يشعر بها نحو المعذبين رقيقة لطيفة . وتزيد من ارتباطه بالناس ، فيقدر مناعم الصداقة والمعروف .

وهكذا تنمى فيه معرفة الحياة حساسية انسانية مرهفة تحول دون نمو العواطف الشريرة والأهواء . وتمنحه أول فكرة صحيحة عقليا عن العدل والطيبة .

من الطبيعى أن يميل اميل حين يرى المجتمع الكبير الى احتلال المكان الأول فيه . ولذلك يتجه نحو الطموح . ما لم يفهم أين يجب أن يقف . ولذا يجب الآن أن نبين له الفروق التى بين الناس ونبسط أمام ناظريه صورة النظام الاجتماعى .

ان حالة الطبيعة توجد فيها تلك المساواة الحقيقية التى لاشذوذ عنها ولا خروج عليها . لأن تلك الحالة الفطرية لا يمكن أن تسمح بفروق بين رجل ورجل تجعل من أحدهما تابعا للآخر .

أما فى الحالة المدنية فالمساواة القانونية فى الحقوق خيالية وهمية فارغة . ذلك أن وسائل صيانة تلك المساواة تؤدى بذاتها للقضاء على المساواة . والقوة العامة التى تسند الى أقوى الأفراد تستخدم فى سحق الضعيف مما يخل بالتوازن الذى أقامته الطبيعة بين الأقوى والأضعف .

ومن هذه المفارقة الأولى تنجم جميع المفارقات الأخرى التى نلحظها فى النظام المدنى بين الظاهر والحقيقة . وستظل الغالبية دائما ضحية للأقلية ، وسيظل الصالح العام ضحية للصالح الخاص . أما ألفاظ العدالة والتنظيم فهى أدوات للاغتصاب وأسلحة للظلم .

ويترتب على هذا أن المكانات الرفيعة التى تزعم نفسها نافعة للناس، ليست نافعة فى الواقع الا لنفسها على حساب الناس . فلا يحق لتلك المكانات الرفيعة فى الواقع أى اعتبار أساسه العدل والعقل .

ويبقى علينا بعد ذلك أن نتظرهل المكانات التى انتحلوها لأنفسهم أدعى لسعادة أشخاصهم ، كى نحكم على المصير الذى يختاره كل منا

مكانته الاجتماعية . فيختار اميل عن بينة ، وهو عالم ، قيمة المكانة التى يختارها بالنسبة للناس وبالنسبة لسعادته .

وهذه هي الدراسة التى سنقوم بها الآن . ولكن يجب لكى نبدأ بها أن نعرف أولا القلب البشرى .

ومن أراد أن يعرف الناس يجب أن يراهم فى أعمالهم لا فى أقوالهم. فنحن اذ نسمعهم نجدهم يخفون أفعالهم . ولا تبدو تلك الأفعال للعيان مجردة الا فى ضوء التاريخ . فهناك يكون الحكم على الوقائع . وأقوالهم نفسها توزن على ضوء أفعالهم ، بمقارنتها بها ، فيتضح لنا كيف كانوا فعلا ، وكيف كانوا يريدون أن يبدوا لنا . وهكذا تتهتك الحجب فى التاريخ وتتضاعف الفضيحة للمرائين .

ولسوء الحظ أن لدراسة التاريخ أخطارها وعيوبها من أكثر من وجه . فمن الصعب أن يضع الانسان نفسه فى موقف يمكن منه أن يحكم على نظرائه بالعدل . فمن أكبر عيوب التاريخ أنه يصور الناس من جوانبهم المظلمة أكثر مما يصورهم من جوانبهم المشرقة .

ان التاريخ لا يهتم الا بالثورات والكوارث . وطالما ينعم الشعب بالرخاء والهدوء فى ظل حكومة مسالمة ، لا يقول التاريخ عنه شيئا . أما اذا بدأ هذا الشعب يشعر بعدم كفايته بذاته وشرع يتدخل فى شئون جيرانه ، أو يسمح لجيرانه بالتدخل فى شئونه ، فعندئذ يهتم به التاريخ مع أن هذه المرحلة تكون بداية الاضمحلال .

ويجب ألا ننسى ، أن الوقائع التى يذكرها التاريخ ليست صورة مطابقة تماما للوقائع التى حدثت فعلا . لأنها تتخذ صورة جديدة فى دماغ المؤرخ . على حسب وجهة نظره أو مصالحه . فمن ذا الذى يعرف كيف يضع القارىء فى نفسه مسرح الحوادث كما وقعت ؟

ان الجهل أو التحيز يشوهان كل شيء . وحتى لو لم تتغير أى لمحة

تاريخية واقعية ، فان الاسهاب فى بعضها والايجاز فى بعضها ، يعطيان الظروف صورة مخالفة ، وبالتالى يلقيان على الحوادث ظلا مخالفا .

ضع أى موضوع فى وجهات نظر مختلفة ، فلا يكاد يبدو أنه موضوع واحد . مع أنه هو بعينه ، والذى اختلف هو عين الناظر اليه . فهل يكفى أن تسرد لى حادثة حقيقية وأن تجعلنى أراها على غير ما وقعت ؟ .

ثم ما قيمة حوادث التاريخ ذاتها ما دامت أسبابها تظل خافية على ؟ وما هو الذى يمكن أن أستخلصه من حادثة أجهل سببها الحقيقى ؟ ان المؤرخ يقدم لى سببا . ولكنه سبب من وجهة نظره . وحتى النقد الذى يطنطنون به ليس الا ضربا من التخمين . لأنه محاولة لاختيار أقرب اكذوبة الى الحقيقة من حيث الشبه .

أن أسوأ المؤرخين بالنسبة لشاب حديث السن هم أولئك الذين يعلقون على الحوادث ويصدرون أحكاما . الوقائع الوقائع ! ودع الشاب يحكم بنفسه عليها . فبذلك وحده معرفة الناس . أما اذا ظل المؤلف يرشده ويقوده باستمرار ، فلن يرى الناس الا بعين غيره ، ومتى تخلت عنه تلك العين لم يستطع أن يرى شيئا .

ان التاريخ على العموم ناقص معيب . لأنه لا يسجل الا الوقائع المحسوسة البارزة . التى يمكن اثباتها بالأسماء والأماكن والتواريخ . أما الأسباب الكامنة لتلك الوقائع فتظل مجهولة خافية . اننا قد نجد فى معركة رابحة أو خاسرة سبب قيام ثورة . وتكون هذه الثورة فى الحقيقة أمرا لا مناص من حدوثه حتى قبل تلك الموقعة . ان الحرب ليست الا مظهرا معبرا عن أحداث قررتها أسباب معنوية يندر أن يفطن اليها المؤرخون .

وزد على هذا أن التاريخ يبرز الحوادث أكثر مما يبرز الرجال .

لأنه لا يتعرض للرجال الا في مواقف محددة من حياتهم ، وفى لحظات مختارة ، فلا يتعقبهم فى حياتهم الخاصة وبيوتهم . فصورتهم التاريخية هى صورة كسوة التشريفة . لا صورة الشخص الذى هـو انســان لا ثوب .

انى أفضل قراءة الحياة الخاصة ، لأبدأ بها دراسة القلب البشرى . لأن الرجل يتجرد من التصنع فى بيته ، والمؤرخ يتعقبه هناك ، ولا يدع له لحظة من الراحة .

وفى مثل هذا الضوء تتكشف حقيقة الرجل . لأنه يبدو مجردا من ثياب التمثيل وكلفة التصنع ، وخير مؤرخ للرجال على هذا المنوال هو بلوتارك بلا جدال .

وانه لصحيح أن روح الجماعة تختلف عن طبيعة الرجل الفرد . وأن من أراد أن يعرف القلب البشرى يجب ألا يقصر فى معرفة الجماهير . ولكن لا جدال أيضا أننا يجب أن نبدأ بدراسة الشخص الفــرد كى تتدرج الى دراسة الناس عموما . فمن عرف تمام المعرفة ميــول كل فرد استطاع أن يتنبأ بمجموع الميول المتداخلة فى كتلة الشعب .

وبلوتارك ممتاز فى ذكره لتلك التفاصيل الدقيقة من حياة العظماء الخاصة . فله موهبة لا تبارى فى تصور كبار الرجال بتوافه الأمور . وهو موفق غاية التوفيق فى اختيار تلك اللمحات . فكثيرا ما تكفى كلمة أو ابتسامة أو اشارة لرسم شخصية البطل . وأذكر لذلك مثال الاسكندر الأكبر وهو يتجرع الدواء الذى أعده له صديقه وطبيبه فيليب بغير تردد بعد أن قرأ تقريرا بأن هذا الطبيب الصديق مكلف من عدوه كسرى أن يدس له السم فى الدواء . فهذه الحركة الصامتة من الاسكندر هى قمة الجمال فى حياته كلها .

وهكذا يكون فن التصوير الراقى . فالروح لا تبـدو فى الملامح الكبيرة والطبع لا يظهر فى جلائل الأعمال ، بل فى توافـه الأمور التى تكشف عنها الفطرة بلا حذر .

ومثل هذه القراءة تترك أثرها الحاسم فى ذهن شاب حديث السن لم يتعود القراءة ولكنه تعود الاحساس والتفكير الشخصى . فيتأثر تأثرا عميقا بقراءة سير بلوتارك ويعرف عظماء العالم عن طريق نفوسهم وطواياهم لا فى ضوء المعارك الصاخبة والأبهة الكاذبة . وينتهى به الأمر الى ادراك الحقيقة الكبرى وراء حياة جميع العظماء .

ما نهاية جميع هؤلاء الفاتحين ؟ انه لن يقدرهم الا بحسب طوايا نفوسهم وصورهم الخلقية . وسيدرك مقدار شقائهم وعذابهم وهم فى أوج السلطان . وسيتعلم أن متاعب الانسان تتضخم وتنمو مع نمـو ثروته ومكانته ومسئوليته .

وسيتعلم اميل أيضا احتقار المطامع والشهوات .

فائدة الأساطير

يحسن اميل الحكم على الناس لأنه يحسن مراقبتهم . وهو يشفق على من كانوا منهم عبيد أخطائهم وأهوائهم . ولكن يجب الحذر من أن يركبه الغرور لشعوره بتفوقه الخلقى عليهم .

وأعظم وقاية من الغرور اختبار الدنيا . وهى مناسبة طيبة لتعريض التلميذ طواعية وباختياره لجميع أنواع المغامرات التى تثبت له ضعفه . فمن الخير أن يشارك المربى تلميذه فى جميع الأخطار التى يعرضها له . ولا يليق بالمعلم أن يتعلق بالوقار المزيف وهو يتصنع الحكمة والرزانة . بل يجب أن يشارك اميل فى أخطائه كى يصححها له ويقومها .

ومتى وقع اميل فى الأخطاء فهذا ايذان ببداية عصر الأسطورة فى تربيته . فان التنديد بالمذنب تحت ستار شخصية أسطورية يتيح للمعلم تهذيب التلميذ من غير أن يهينه . وسيدرك عندئذ أن الأسطورة ليست أكذوبة ، بل هى حقيقة قابلة للتطبيق .

ان الطفل الذى لم تفسد تربيته بالتدليل والتملق الكاذب لا يمكن أن يفهم الأسطورة على وجهها الأخلاقى ، بل سيعجب بالشخصية الشريرة فى الأسطورة . أما المجنى عليه فى الأسطورة أو الضحية أو الضعيف المظلوم فسيراه فى نظره أبله يستحق ما نزل به على يد ظالمه الأثيم ، الذى يراه هو لبيبا أريبا .

ان الأسطورة تعين التلميذ على استخلاص قاعدة اخلاقية من حادثتها

الفردية ، وتساعد تلك الحادثة المنظومة على رسوخ القاعدة فى ذاكرته . وما من فكرة اخلاقية يستحيل اكتسابها عن طريق تجربة الآخرين أو تجربتنا الخاصة . فحينما تكون التجربة الخاصة المطلوبة لتكوين تلك الفكرة المعينة غاية فى الخطورة ،فلابد من استخلاصها من تجربة الآخرين، اما عن طريق التاريخ أو عن طريق الأسطورة .

ولا يفوتنى أن أندد هنا بالقواعد الأخلاقية التى تختتم بها معظم الأساطير المنظومة . فالحاسة الأخلاقية تتربى عند التلميذ بأن يستخلص هو العبرة بنفسه من الحادثة التى أوردتها الأسطورة . أما ايراد العبرة بألفاظها فى ختام الأسطورة فبلاهة ، كأنما العبرة ليست متضمنة بما فيه الكفاية فى صلب الأسطورة نفسها .

ان سر التربية كله فى أن ندع للتلميذ لذة تعليم نفسه عن طريق الموضوعات والوقائع . فهذا هو ما يربى لديه ملكة التفكير والتمييز والقياس والضمير .

وانها لأنانية من المعلم أن يستأثر بلذة التعليم كلها ولا يترك لتلميذه غبطة الاكتشاف التى ترضيه عن نفسه وتشعره بالنمو والنجاح .وسوف لا أكتفى بالنظريات الأخلاقية . بل سأجعل اميل يمارس الفضائل الاجتماعية بنفسه عمليا . فيعطى من ماله الصدقات . ويساعد فى رفع الغبن عن المظلومين . وهكذا يتكون لديه ضمير أخلاقى عملى يسع الناس كافة بغير فرق فى الجنس أو الوطن أو الدين .

وعلى ما بلغه اميل من نمو ملكاته ، لم تتكون لديه حتى الآن أى فكرة عن الخالق (عز وجل) . وأرجو ألا يصيح الناس مستنكرين أو غير مصدقين . فمن الصعب على ادراك بشرى مشغول باستمرار بموضوعات حسية أن يرتفع بصورة طبيعية الى التصورات المجردة من قبيل الروح والطبيعة الالهية .

واني أتخيل مبلغ دهشة كثير من القراء أن أصحب تلميذى مدة حداثته كلها من غير أن أحدثه عن الدين . فالى أن بلغ الخامسة عشرة كان لايعلم أن له روحا . وربما لم يكن الوقت مناسبا لكى يعلم أن له روحا وهو فى الثامنة عشرة ! .

انه اذا ما علم ذلك قبل الوقت المناسب كان هناك احتمال بل مجازفة بألا يعرف ذلك الأمر على وجهه الصحيح اطلاقا . واني لا أرى أشد حماقة وغباء من معلم الدين الكاثوليكى وهو يلقن الأطفال الصغار تلك الأسرار العويصة . فاني ان رميت الى خبال طفل ، لكفانى أن أطلب منه تفسير ما يتلوه من دروس ذلك الدين وطقوسه .

فلنحذر كل الحذر من اعلان الحقيقة لأولئك الذين لم يتأهبوا بعد لادراكها [١] . فان ذلك أدعى لقيام الضلال مقام ما نرمى اليه من الحق. وخير ألف مرة ألا تكون لدى الفتى فكرة اطلاقا عن الالهيات ، من أن تتكون لديه عنها أفكار مسفة خرافية مهينة لا تليق بجلالها ، فذلك أهون

(١) شبيه هذا برأى الامام الغزالى فى المضنون به على غير أهله (المترجم)

الضررين . ان الجهل بالمقام الأسمى اطلاقا وبصفة مؤقتة أفضل من التنقص منه .

انه اميل لن تتكون لديه صورة خاطئة مزيفة عن الأمور الالهية . لأنه تعود عدم الاهتمام الا بما هو فى متناول حواسه وادراكه ومع هذا ليس فى نية معلمه أن يتركه فى هذا الموضوع نهبا للتأثيرات . فلن يفرض عليه عقيدة دينية معينة . بل سيعده للقدرة على اختيار العقيدة المثلى التى يهديه اليها عقله عن اقتناع وتمييز .

* * *

والآن أستأذن القراء بمناسبة الخوض فى التربية الدينية أن أسرد قصة فى هذا الموضوع قد تفيدنا أكثر مما تفيد النظريات المجردة التى لا تقوم على خبرة عملية وتجربة مباشرة .

منذ نحو ثلاثين سنة ، وجد شاب نازح عن وطنه فى احدى مدن ايطاليا أنه قد عدم القوت والمعين . وكان بروتستانتيا بمولده . فاضطر كى يجد القوت أن يغير دينه . فتلقفه الكاثوليك . وكان لهم فى تلك المدينة ملجأ خاص للمهتدين الى الكثلكة متخلين عن دياناتهم الأصلية . فأدخلوه ذلك الملجأ . وأخذوا يلقنونه مبادىء الدين الجديد ويفندون دينه القديم . فزعزعوا ايمانه من أساسه وأذكوا لديه شكوكا لم تجل بخاطره من قبل . وعرفوه عن الشر ما لم يكن يعرف . وشاهد هناك من الرذائل التى تستباح ما أوشك أن يغدو فريسة له . ففكر فى الهرب . وعندئذ حبسوه . فأخذ يشكو . فعاقبوه على شكواه . ووجد نفسه تحت رحمة هؤلاء الطغاة يسام ما يسامه المجرمون من العذاب ، لأنه أبى الخضوع للاجرام .

ولا شك أن من يعرفون كيف تكون قسوة أول تجربة للعنف والظلم والبغى ، وكيف يكون وقعها أليما على قلب بكر ، سيقدرون سوء حاله .

فدموع الغيظ كانت تنهمر من عينيه ، والاستنكار يكاد يخنقه ، وهو يستصرخ السماء والأرض ، ولكنه لم يجد من أحد سميعا ولا مجيبا . فلم يكن يدخل عليه الا خدم أسافل ، خضعوا لما أبى هو أن يخضع له ، أو أفراد من العصابة متواطئون شركاء فى هذا الاثم الفاجر . فكانوا يسخرون من تمنعه ويستحثونه على الانصياع .

كان مقضيا عليه لولا أن قيضت العناية له كاهنا شريفا كان يحضر الى الملجأ لبعض الأمور العارضة فتمكن الفتى من الافضاء اليه خلسة بما كان من أمره . وكان ذلك الكاهن فقيرا محتاجا ، بيد أن الفتى المظلوم كان أشد منه حاجة فلم يتردد فى مساعدته على الهرب ، مجازفا بعداء خصم عنيد هو المهيمن على تلك البؤرة التى تسمى ملجأ .

وهكذا أفلت الفتى من الاثم ليتردى فى الاملاق . فكافح الفاقة . وخيل اليه فى وقت من الأوقات أنه انتصر عليها . واذا به عند أول بارقة من بوارق اليسر قد نسى متاعبه ، بل ونسى منقذه أيضا . فعاقبته الأقدار على هذا الجحود ، وباءت آماله جميعا بالفشل . واذا به يلفى نفسه بغير قوت وبغير مأوى ، يكاد يهلكه الجوع ، وعندئذ تذكر منقذه فعاد اليه . واستقبله الرجل خير استقبال . اذ كان طيب القلب كريم النفس .

وبحث الكاهن للفتى عن مأوى ، وأوصى به خيرا ، وقاسمه مالديه من نشب على قلته . وأخذ يعلمه ويسرى عنه ويربى فيه فضيلة الصبر على المكاره .

وكان هذا الكاهن الشريف قسيسا فقيرا فى مقاطعة سافوا . ثم تورط فى مغامرة من مغامرات الشباب ، فسخط عليه أسقفه . فعبر الألب الى ايطاليا ينشد ما يعيش منه بعد أن عز عليه القوت فى وطنه . ولم يكن عاطلا من الذكاء أو الثقافة أو الوسامة فوجد من يوصى به خيرا لدى أحد الوزراء فاتخذه مؤدبا لولده . بيد أنه كان يفضل الفاقة على حياة الأتباع .

وكان يجهل مراسم السلوك فى بيوت الكبراء فسرعان ما غادر تلك الدار من غير أن يفقد تقدير صاحبها وعكف على العبادة وكل مرجوه أن يسترد عطف أسقفه فيمنحه رعاية كنيسة صغيرة فى الجبال يقضى فيها بقية أيام حياته .

وشعر الكاهن بميل فطرى نحو ذلك الشاب الشريد . فأخذ يرقبه عن كثب ، فتبين أن قسوة الأيام قد صدعت قلبه ، وأن الزراية والمذلة قد قوضتا شجاعته ، حتى انقلبت الكرامة عنده الى مرارة ، وبات يسيء الظن بالناس فلا يرى فى قسوتهم الا الفجور والاثم الفطرى . أما الفضيلة فبات يراها حديث خرافة .

لقد رأى بعينه القناع يتمزق عن ذلك الدين المزعوم . فاذا به وقد اتخذ ستارا للأهواء والرياء . وعلمته تجربته فى ذلك الملجأ الدينى ، أن الجنة والنار رهن بألفاظ تتلى . وأن قدسية الأمور الالهية قد ابتذلت على يد هؤلاء الناس . وكأنما الايمان بالله على ذلك المنوال ثمنه التخلى عن العقل الذى وهبنا سبحانه اياه .

وتجاهل الدين يؤدى الى تجاهل الواجبات الانسانية . ولكن ذلك الخراب الروحى لم يكن قد وصل عند هذا الفتى المستهتر الا الى منتصف الطريق . فلم يكن لحسن حظه خسيس المولد . والظروف السيئة وحدها هى التى كادت تقضى عليه قضاء مبرما . ولم يكن عاطلا من التربية أو المعرفة اطلاقا . وكان فى السن الناضرة التى تقاوم المفاسد ولم تستسلم بعد لطغيان الحواس . وما خبره من فساد الناس ، ذلك الفساد القبيح الذى لا فتنة فيه ولا سحر ، لم يوقد فيه جذوة الفسق والشر ، بل أصابه بغثيان بغض اليه الفجور . وظل هذا التقزز يقوم مقام الفضيلة فى حماية طهارته ونقائه . فلم يسقط فى مهاوى الرذيلة الا بعد أن تعرضت له الفتنة فى أسلوب رقيق جميل .

أدرك الكاهن كل هذا . ولكنه لم يدخر وسعا على ما يعلمه من صعوبة تقويم ما أفسدته الأيام من هذا الغلام . وآلى على نفسه أن يرد الفضيلة والعفة الى ذلك المسكين . ولا شك أن النية المعقودة على الخير توطّىء لصاحبها أكناف النجاح .

وبدأ باكتساب ثقة الشاب ، بأنه امتنع عن تأنيبه أو وعظه ، بل تعمد أن ينزل بمستواه ليشعره أنه ند له ورفيق . فان جاءه ليروى له شيئا فعله أو جال بفكره مهما كان مفزعا رهيبا ، أصغى اليه فى صبر واهتمام . ومن غير أن يقره على ما اقترف من شر أو يلومه عليه ، كان يكتفى بدور المنصت وكان هذا حسب الفتى من سرور لشعوره بأنه ليس وحيدا فى الدنيا . وأغراه ذلك بزيادة الافضاء والمصارحة . فاذا به يعترف دائما لذلك الكاهن من غير رسميات الاعتراف ، ومن غير أن يدرى أنه يعترف .

وبذلك تمكن الكاهن من دراسة عواطف هذا الفتى وطبعه .ومعرفة مواطن الداء فيه . وتبين أن الفتى ليس جاهلا وانما العار الذى تكالب عليه فى فقره هو الذى خنق لديه كل تمييز بين الخير والشر . ولا عجب! فان صوت الضمير لا يمكن أن يصل الى من لا يفكر الا فى طلب القوت .

وكى ينقذه من هذه الوهدة بدأ بتنبيه الكرامة لديه ليسترد اعتداده بنفسه . وصور له مستقبلا زاهرا ينتظره ان هو أحسن استخدام مواهبه . ودفعه الى الاعجاب بالخير عن طريق حمله على سرد ما يفعله الآخرون من الأفضال . وكى ينتشله من البطالة والتشرد أوهمه أنه بحاجة الى نسخ مقتبسات من الكتب المختارة . فأخذ الفتى يقوم بذلك العمل مدفوعا بالوفاء ولكن الرجل كان يعلمه بواسطة تلك الكتب ، وبأسلوب غير مباشر . وجعله يحس فى الوقت نفسه أنه ذو قيمة ، من حيث أنه يصلح لشىء .

ولست أدرى لماذا أتحدث عن ذلك الفتى بضمير الغائب . فما كان ذلك الفتى أحدا سواي . وانى اعتبر أن بعد المــدة وفارق السلوك قد جعلا مني شخصا آخر ، بحيث أجد الجرأة على ذلك الاعتراف ، وعلى اسداء الشكر والاجلال لصاحب تلك اليد الطولى فى هدايتى [١].

وأهم ما أدهشنى هو ما شاهدته فى الحياة الخاصة لأستاذى الجليل من عفة بغير رياء ومن انسانية بغير ضعف ، ومن استقامة وبساطة فى التعبير ، ومطابقة بين القول والعمــل . ولم أره مطلقا يهتم هــل من يساعدهم بالصدقات يواظبون على حضور الصلاة فى الكنيسة ومزاولة الاعتراف والصــوم أم لا . مــع أن ذلك كله كان شرطا يهلك بدونه المحتاجون جوعا قبل أن ينالوا من صدقات أدعياء التقوى شيئا .

ولما رأيت منه ذلك صارحته به ، وخصوصا أنى كنت أسمعه أحيانا يثنى على بعض معتقدات الملل الأخرى .حتى أوشكت أحسبه بروتستانتيا متخفيا . لو لم أره بعينى حريصا على أداء فروض دينه الكاثوليكى سرا وعلنا . فزاد ذلك من حيرتى . وأصبحت متشوقا لمعرفة المبدأ الحقيقى الذى تقوم عليه حياة ذلك الرجل الصــالح الذى ازددت له كل يوم احتراما واجلالا بما ألمسه من صادق عفته واخلاص سريرته ومطابقــة ظاهره لباطنه .

ولم تسمح الأيام بذلك سريعــا ، لأن الرجل كان حريصا قبــل ذلك على بذر بذور الطيبة والعقل فى روحى . وكان أصعب ماتعين عليه هدمه فى نفسى هو ذلك الحقد الشديد على كل ميسور الحال ، كأنما هو سرق منى ما يتمتع به من نعماء . فأخذ بيدى حتى رأيت شقاء ذوى النعمة تحت مظهرهم الخادع ، حتى حرك قلبى بالرحمة لهم . وكان يقول لى :

---

(١) هذا الكاهن هو السيد جيم Goime ، كما ورد فى اعترافات روسو فى الكتابين الثانى والثالث .

(المترجم)

— ان راحة النفس قوامها احتقار كل ما يمكن أن يعكر صفوها . فأكثر الناس تعلقا بالحياة هم أقلهم من متاعها نصيبا . ومن يطمع الى السعادة هو أشد الناس شقاء .

فأجبته فى مرارة صادقة :

— يالها من صورة قاتمة ! ولماذا ولدنا اذن اذا كان حتما علينا أن تتخلى عن كل شيء فى الدنيا ؟ واذا وجب علينا أن نزدرى السعادة نفسها فمن اذن يستطيع أن يكون سعيدا ؟ .

— أنا !

فدهشت ، بل ذهلت وصحت :

— أنت سعيد ؟ ! على فقرك وسوء حظك ومنفاك وما وقع عليك من ظلم واضطهاد ؟ فكيف اذن وفقت الى هذا ؟ .

— يا بنى العزيز . سأحدثك بكل ذلك يوما ما . سأفرغ لك نفسى وأفتح لك قلبى حتى ترانى على حقيقتى . ان لم يكن كما أنا فى الواقع ، فعلى الأقل كما أرى نفسى . ومتى تلقيت اعترافى وعرفت حقيقة روحى ستدرك لماذا أعتبر نفسى سعيدا . وعندئذ ستعرف ماذا ينبغى أن تفعل حتى تغدو سعيدا مثلى . ولكن حديثى يستغرق وقتا طويلا فلنتخير له مكانا وزمانا يصلحان لذلك ، حيث نجد الهدوء والعزلة .

وأظهرت اللهفة على سماع اعترافه ، فحدد لى موعدا صباح اليوم التالى . وكان الوقت صيفا . فاستيقظنا عند انبثاق النهار . وأخذنى الى خارج المدينة . فوق ربوة عالية ينساب من تحتها نهر البو . وعلى الأفق الشرقى كانت أشعة الصباح الأولى تغمر ذلك المنظر الرائع من الماء والخضرة والسهل والجبل بما يفيض على النفس الأمن والسلام .

وبعد أن فرغنا لتأمل ذلك الجمال البديع برهة من الزمن ، أخذ رجل السلام يحدثنى عن تاريخه الروحى .

اعترافات كاهن سافوا

لا تنتظر مني يابني خطبا منمقة وأحاديث متعمقة ، ولا حججا على طريقة الفلاسفة . فما أنا بفيلسوف من أولئك الفلاسفة الكبار . ولا يعنيني في كثير أو قليل أن أكون من هؤلاء . بيد أن لي في بعض الأحايين بداهة سديدة ، وتجدني على الدوام متعلقا بالحق . ولست أريد أن أدخل معك في جدل . بل ليس في عزمي أن أحاول اقناعك . وحسبي أن أبسط لك ما أعتقــده على قلب سليم . وأحب أن ترجع الى قلبك وأنا أحدثك بحديثي هــذا . وهذا كل ما أطلبــه اليك . وان أخطــأت فبحسن نية . وهذا حسبي كي لا تحتسب غلطتي اجراما . وان اخطأت أنت خطأ من هذا القبيل . فما عليك من ذلك بأس .

ولدت فقيرا من أسرة فلاحين . وكان مفروضا بحكم ظروفي أن أفرغ لفلاحة الأرض . بيد أنهم استصوبوا أن أتأهب لاحتراف مهنــة الكاهن . واستطاعوا أن يتدبروا الوسائل لتعليمي . وبطبيعة الحال لم يخطر ببالي ولا بال ذويّ ، أن تتحرى الحق والخير والمصلحة في ذلك . بل كان همي موجها لدرس ما طلب مني . ثم خضعت لارادتهم فانخرطت في سلك الكهنة . الا أني لم ألبث أن تبينت أنني حين تعهدت ألا أكون رجلا ، تعهدت بما لا طاقة لي أن أفي به .

وقالوا لنــا ان الشعور تصنعه الأهواء . ولكني عرفت بتجربتي الخاصة أنه يصر على متابعة الطبيعة ساخرا ومعرضا عن أحكام البشر وقوانينهم .

ومهما حرموا علينا هـذا الشيء أو ذاك ، فان الندم لا يثقل علينا فيما أباحته لنا الطبيعة السوية ، ومن باب أولى فيما فرضته علينا .

وكنت منذ حداثتي أحترم الزواج باعتباره أول وأقدس نظام من نظم الطبيعة . فلما نزعوا مني حقي البشري في الزواج ، قررت ألا أدنسه . وكان هـذا القرار سبب مالحقني من أذى . لأنني اذا احترمت فراش سواي من الرجال ، صارت أخطائي مكشوفة في العراء .

ووجب اخماد الفضيحة وتطهير الرجس . فألقي القبض علي وصدر قرار بطردي من الكهنوت . فتعلمت من التجربة أنه ينبغي في كثير من الأحيان تجسيم الخطأ كي ننجو من العقاب . وأوشك هذا أن يقلب في نفسي مقاييس العدل والشرف وجميع واجبات الانسان . وكاد يختلط علي أمر التفكير والاعتقاد . حتى وصلت الى مثل حالتك الآن .

كنت في موقف الارتياب والشك الذي يحتمه ديكارت للبحث عن الحقيقة . وهي حالة لا يكتب لها الدوام لأن الاستقرار عليها مزعج شاق . ولولا استمراء الاثم أو خمول الروح لمـا أطقنـا البقـاء فيها لحظة . ولم يكن بلغ بي الفسـاد مبلغ الراحة الى ذلك الموقف .

وأخذت أمعن الفكر في مصير البشر وقدرهم المحزن ، ورحت أمخر عباب ذلك البحر المتلاطم من الآراء ، بغير ربان يوجهني ، أو بوصلة ، ولا مرشد لي الا ربان لا خبرة لديه ، فلا عجب أن يضل طريقه فلا يعرف من أين أتى ولا أين يذهب . فقلت لنفسي :

— اني أحب الحق ، وأنشده ، ولا أستطيع الاهتداء اليه . فان أرشدني اليه أحد تعلقت به .

ومع أني جربت آلاما بالغة الشدة ، لم أشعر بالضيق والضنك الا في أوقات القلق والاضـطراب تلك . حيث تتقاذفني الشـكوك بلا انقطاع . ولم أظفر من سبحاتي الطويلة الا بالريب والغموض والتناقض في كل ما يتعلق بسبب وجودي وأساس واجباتي .

وانى لأعجب كيف يمكن أن يكون الانسان شـكوكيا عن عمـد وبقلب سليم ؟ هذا أمر يستعصى على فهمى . والفلاسفة الشكوكيون فعلا ان وجـدوا هم أشقى بنى آدم . فالشك فى الأمور التى تعنينـا معرفتها حالة شديدة العنف بالفكر البشرى . فلا يستطيع أن يقاومها طويلا . فيقرر راغما اختيار أحد الجانبين أيا كان ، فأهون عنده أن يؤمن بشىء خطأ ، من ألا يؤمن اطلاقا .

ومما ضاعف ضيقى أننى ولدت فى حضن كنيسة تجزم بكل شىء ، ولا تسمح بأى شك . فلما رفضت نقطة واحدة تعين بذلك رفض سائر الأمور . وانه لسخف أن يفرض اعتقاد كامل العناصر على فرد من الناس. فان ذلك بمثابة الحيلولة بينهم وبين الايمان .

وتركت الكنيسة وتعاليمها وأخذت أستشير الفلاسفة . فنظرت فى آرائهم المتباينة . فوجدتهم جميعا أصحاب خيلاء ، يجزمون بما يرونه فى أسلوب تقريرى ، حتى حين يزعمون الارتياب . وقصاراهم فى عجزهم عن اليقين أن يسخر بعضهم من بعض . وأكاد أعتقد أن هذه السجية المشتركة بينهم جميعا هى عنصر الصواب الوحيـد لديهم . فرأى كل واحد منهم فى أقرانه صائب . ولكن الاصـغاء اليهم ليس هو سبيلى للخروج من ريبتى وشكوكى .

وخطر لى أن قصور الفكر البشرى هو السبب الأول لهذا التباين الهائل فى الآراء . وأن الخيلاء هى السبب الثانى . فنحن لا قدرة لنـا على ادراك أنفسنا ، فـلا نعرف عللنا الأولى أو غاياتنـا القصـوى ولا نعرف طبيعتنا ولا مبدأ فعلنا . بل لا نكاد نعـرف هل الانسـان كائن بسيط أو مركب . ومن حولنا أسرار وغوامض تكتنفنا لا ندرى لها كنها . لأنها فوق متناول الحس . ونزعم أن لنا من الذكاء ما يتيح لنا النظر فيها . وحقيقة الأمر أن لدينا مخيلة نخالها ذكاء .

وكل منا يشق لنفسه فى ذلك العالم المتخيل طريقا يعتقد أنه الطريق القويم . مع أنه ما من أحد منا يمكن أن يتحقق من عقبى ذلك الطريق . الا أن كلا منا يأبى الاقرار بعجزه ، بل يصر على الايغال لمعرفة كل شيء .

ان أجهل ما نجهله هو ما الذى يعجزنا معرفته . لأننا نفضل الركون الى الصدفة ، وتصديق ما لا وجود له ، على الاقرار بعجزنا عن معرفة ما هو موجود فعلا .

اننا جزء ضئيل من كل ضخم يفوتنا أو يعيينا ادراك حدوده ومع هذا يبلغ بنا الغرور الى التطاول الى الحكم عليه ، على ذلك الكل فى ذاته ، ومدى علاقتنا به .

وأول ثمرة خرجت بها من هذا التفكير هى وجوب قصر أبحاثى على ما يهمنى ويعنينى مباشرة ، والحرص على الجهل العميق فى سائر الأمور ، فلا أصل فيها الى الشك . وهكذا لا أخوض الا فيما تعنينى معرفته .

وأدركت كذلك أن آراء الفلاسفة أعجز ما تكون عن تخليصى من شكوكى الفضولية ، بل من شأنها أن تضاعف لى عذاب تلك الشكوك! فاتخذت لنفسى مرشدا آخر غير الفلاسفة ، وقلت لنفسى :

— فلنرجع الى النور الداخلى ، فهذا النور سيضللنى ضلالا أهون من ضلالهم ، لأن خطئى عندئذ سيكون من نفسى ، وضرره لهذا أسلم من الانسياق وراء أكاذيب وأخطاء غيرى .

ورجعت الى نفسى أستعرض الآراء التى خطرت لى منذ مولدى . فلم أجد منها رأيا بديهيا الى حد الاقناع المباشر . بل كانت تتفاوت فى الرجحان وكان ارتياحى الباطنى اليها متفاوتا كذلك .

وسألت نفسى بعد ذلك :

— من أنا ؟ وأى حق لى فى الحكم على الأشياء ؟ وما هو الفيصل

بين تلك الأحكام ؟ يجب اذن أن أبحث فى نفسى أولا عن معيار الحق حتى أعرف الى أى مدى يمكننى الركون اليه .

أنا موجود . ولى حواس أتأثر بها . هذه هى أول حقيقة تخطر لى وأجدنى مضطرا للخضوع لها . فهل لدى احساس خاص لوجودى أو لعلنى أحسه بواسطة حواسى ؟ .

هذا أول شك عجزت عن الاهتداء الى حله . لأنى واقع باستمرار تحت تأثير احساساتى الراهنة أو خلال التذكر . فكيف أعرف ان كان لى احساس بذاتى منفصلا عن تلك الاحساسات نفسها ؟ .

ان احساساتى تحدث فى داخلى . بما أنها تجعلنى أحس بوجودى . ولكن علة هذه الاحساسات غريبة عنى . ما دامت هذه الاحساسات تجرى مستقلة عن ارادتى وأهوائى . فلا أملك أن أحدثها ولا أملك أن ألغيها . فلا بد أن موضوع احساساتى خارج عنى وأنه غيرى .

اذن لست موجودا فحسب ، بل توجد أيضا كائنات آخرى سواى ؟ هى موضوعات احساساتى . وحتى ان فرضنا أن هذه الموضوعات ان هى الا معان ، بقى صحيحا أن هذه المعانى ليست أنا . وأنها شىء غيرى .

كل ما أحس به خارجى ويؤثر فى حواسى . سأدعوه مادة . وكل أجزاء المادة التى أتصورها متجمعة فى كائنات فردية متميزة ،سأدعوها أجساما . وهكذا لا أعانى من خلافات التصوريين والماديين ، بان هذه الخلافات لا تعنى شيئا لدى . فتمييزهم بين المظهر والحقيقة فى الأجسام انما هو أضغاث أحلام .

وهأنذا أصبحت موقنا بوجود الكون ووجودى . وبعد ذلك سأفكر فى موضوعات احساساتى . وأجدنى قادرا على المقارنة بينها . فأحس أنى حائز لقوة ايجابية لم أكن أعلم بحصولها عندى من قبل .

الحس فردى . أما المقارنة بين جملة احساسات فهذا يكون حكما .

فالحكم والاحساس ليسا شيئا واحدا . لأن الاحساسات تقدم لى موضوعاتها متميزة منفصلة كما هى فى الطبيعة . وبالمقارنة فيما بينها أقيس تلك الموضوعات بعضها الى بعض لأدرك أوجه الاختلاف والتشابه فيما بينهما . وعبثا أفتش عن هذه القوة العاقلة الحاكمة فى الموجود الحاس . فذلك الموجود الحاس سلبى ، ويحس كل موضوع على حده . أما المقارنة بين عدد من الموضوعات فلا سبيل له اليها . ولا سبيل له بالتالى الى الحكم عليها اطلاقا . فالحكم فرع عن ادراك العلاقة بين الموضوعات .

وهناك مسألة لا شك عندي أنك ستقرنى عليها متى فكرت فيها . وهى أننا لو كنا مخلوقات سلبية حاسة فحسب ، لما كان بين احساساتنا أى اتصال . ولكان مستحيلا أن نعرف أن الجسم الذى نلمسه والشكل الذى نراه شيء واحد . ولأصبح لكل موضوع خمسة احساسات متباينة أى خمسة موضوعات حسية ، لكل حاسة موضوعها المستقل . ولما كان لدينا أى سبيل لادراك ذاتيتها الواحدة .

وليطلق من شاء أى اسم شاء على تلك القوة الحاكمة المفكرة التى تقارن بين الاحساسات . فليدعها انتباها أو تفكيرا أو عقلا . فهى على كل حال قوة مستقلة حاصلة لى . وليست حاصلة للأشياء موضوعات الاحساس ، حتى ولو لم تنشط الا بمناسبة الاحساسات . فانى وان لم أكن مخيرا فيما أحس أولا أحس ، الا أنى حر تماما فى ممارسة فكرى ومدى نظرى فى احساساتى .

أنا اذن لست كائنا حاسا سلبيا فحسب ، بل كائن ايجابى عاقل . وشاءت الفلسفة أو لم تشأ فمن حقى أن أزعم لنفسى شرف الفكر . ولكنى أعلم أن الحقيقة قائمة فى الأشياء وليست فى فكرى الذى يحكم على الأشياء . وكلما ابتعدت عن التدخل فى أحكامى التى أصدرها على الأشياء ، كان ذلك أدعى لاقترابى من الحقيقة .

أما وقـد وثقت من أمر نفسي . فاني أتطلع خارجي . فأجد رعدة تنتابني . لأني أرى نفسي ضائعا فى هذا الكون المترامى ، كالغـريق بين الموجودات التي لا حصر لها . وأنا لا أعرف شيئا عنها ، ولا عن علاقاتها فيما بينها ، ولا علاقاتها بي .

ان جميع ما أدركه بالحواس هو مادة . فأستنتج الخواص الجوهرية للمادة من الصفات الحسية الملازمة لاحساسي بالمادة .

وأجد المادة فى بعض الأحيان متحركة ، وفى بعضها الآخـر ساكنة. فأستنتج أنه لا السكون ولا الحركة جوهرى فى المادة . ولكن الحركة من حيث هى فعل نتيجة علة لابد أن يكون السكون نتيجة لازمة من غيابها . فما لم تؤثر علة محركة فى المادة لا تتحرك اطلاقا . ومن حيث ان المادة يستوى عندها السكون والحركة . فحالتها الطبيعية الأصلية أن تكون ساكنة .

وأدرك فى الأجسام نوعين من الحركة . هما الحـركة المنقـولة ، والحركة التلقائية أو الارادية .

وفى الحالة الأولى تكون العلة المحركة غريبة على الجسم المتحرك . وفى الحالة الأخرى تكون العلة المحركة فى الجسم المتحرك نفسه .

ولا يترتب على هذا طبعا أن حركة الساعة مثلا تلقائية . لأنه لو لم تؤثر علة خارجية غريبة على زنبرك الساعة لما تحرك وحـرك سـائر أجهزة الساعة .

وربما سألتني هل حركات الحيوانات تلقائية ؟وجوابي أني لاأدرى. ولكن من المرجح أنها تلقائية .

. وقد تسألني أيضا من أين عرفت أن هناك حركات تلقائية . والجواب أني عرفت ذلك لأني أحسه فى نفسي . فعندما أريد تحريك ذراعي أحركه من غير أن يكون لتلك الحركة علة مباشرة غير ارادتي . وعبثا يحـاول

المحاولون بالجدل اهدار هذا الاحساس عندى . فهو أقوى من كل حجة . وكأنى بمن يريد اقناعى ببطلان احساسى بحركتى الارادية ،يريد أن يقنعنى بالحجة أنى غير موجود .

ان هـــذا الكون المنظور مادة ؛ مادة مبعثرة ميتـــة ، لا يربط بينه ما يربط بين أعضاء الجسم الحى . وهذا العالم متحرك . وفى حركاته المنتظمة المتجانسة يخضع لقوانين ثابتة ، ليست فيها تلك الحرية البادية فى حركات الانسان والحيوان التلقائية .

اذن فهذا العالم ليس حيوانا كبيرا متحركا بذاته . واذن فهناك علة لهذه الحركات غريبة عن هذا العالم . وان كنت لا أدرك بحسى هذه العلة . بيد أن الاقتناع الداخلى يجعل هذه العلة محسوسة جدا بحيث أنى لا أرى دوران الشمس من غير أن أتصور قوة تدفعها للدوران . وان كانت الأرض تدور فأنا أكاد أحس يدا تدفعها للدوران .

واذا وجب أن أعترف بقوانين كلية لا أدرك باحساسى علاقاتهـــا الجوهرية بالمـــادة . فما جدوى ذلك ؟ ان هـــذه القوانين بما أنها غير محسوسة ، فلها أساس أجهله .

أجل ان التجربة والملاحظة عرفتانا قوانين الحركة . فهذه القوانين تحدد النتائج من غير أن تظهرنا على العلل . فهذه القوانين اذن غير كافية لتفسير نظام العالم ومسار الكون .

وعلى هذا تكون العلل الأولى للحركة ليست فى المادة ، فالمادة تتلقى الحركة وتنقلها وتوصلها . ولكنها لا تحدثها . وكلما لاحظت تبـــادل الأثر بين قوى الطبيعة زاد اقتناعى بوجوب الرجوع الى ارادة تكون هى العلة الأولى . لأن العلل لا يمكن أن تتداعى الى غير نهاية . ولابد من الوصول بسلسلة الحركات المفروضة الى حركة تلقائية . فلا حركة بمعنى الكلمة بغير ارادة .

هذا هو أول مبدأ . فأنا اذن أومن أن هناك ارادة تحرك الكون والطبيعة . وهذا هو أول لبنة فى بنيان عقيدتى .

* * *

كيف يمكن لارادة أن تنتج فعلا جسميا أو طبيعيا ؟ لاأدرى . ولكنى أعهد فى نفسى أن ارادتى تنتج تلك الحركة الجسمية . فأنا حين أريد أن أفعل . وحين أريد أن أحرك جسمى يتحرك جسمى . أما أن جسما غير حى فى حالة سكون يشرع فىالحركة من ذاته ، فهذا ما لا أتصوره ولا أعهد له مثالا .

ان الارادة معروفة لى بأفعالها لا بطبيعتها . فأنا أعرف تلك الارادة من حيث هى علة محركة . ولكن تصور مادة منتجة للحركة انما هو بمثابة تصور نتيجة بغير علة . وذلك باطل قطعا .

وليست معرفتى بكيفية تأثير احساساتى فى نفسى أيسر من تصور كيفية تحريك ارادتى لجسمى . ان اضافة الحركة المجردة الى المادة قول ليس له معنى .وأما اضافة حركة محددة الى المادة فيقتضى القول بعلة لهذا التحديد . ومما لا شك فيه أنحركة العالم محددة . وأنا لاأستطيع أن أتصور الكون بغير تصور التناسق فى حركاته .

وأستطيع أن أفهم أن يكون تركيب الكون بعيدا عن طاقة الفكر البشرى . ولكن اذا أراد بشر أن يزج بنفسه فى تفسير الكون فيجب أن يقول قولا يعقله البشر . ولئن كانت المادة المتحركة تنبىء عن ارادة ، فان المادة التى تخضع حركتها لقوانين خاصة تدلنى على وجود عقل مدبر وراء تلك الحركات .

وهذا هو ثانىمبدأ أدين به : ان هناك عقلامدبرا وراء تناسق حركات الكون . كما أن هناك ارادة تحرك الكون والطبيعة ، وتلك ثانى لبنة فى عقيدتى .

فان الفعل والمقارنة والاختيـار بين الممكنات عمليات يختص بهـا الكائن الفعال الايجابى المفكر . اذن فهذا الكائن موجود .

وربما سألتنى :

— وأين ترى هذا الكائن موجودا ؟

والجواب أنى لا أراه فى الأفلاك التى تدور فحسب ، ولا فى النجوم التى تنير لنا فحسب ، ولا فى نفسى فحسب ، بل فى النعجة التى ترعى العشب ، وفى الطائر الذى يحلق فى الجو ، وفى الحجر الذى يسقط من شاهق ، وفى الورقة التى تحملها الريح الى بعيد .

انى أحكم بوجود نظـام الكون مع جهلى بغاية ذلك النظـام . فحسبى للحكم بوجود ذلك النظام أن أقارن الأجزاء فيما بينها ،وأدرس علاقاتها وألاحظ تناسقها .

انى أجهل لماذا وجد العالم . ولكنى لا أنفك أدرك كيفية وجوده ، وكيفية تناسق وتعاون الموجودات التى يتألف منها العالم . ومثلى فى ذلك كمثل رجل يرى لأول مرة فى حياته ساعة مفتوحة ،فيأخذه الاعجاب بصناعتها مع أنه لا يعرف الغرض من تلك الآلة ، ولم تقع عينـه على مينائها . فمن شأنه أن يقول :

— لست أدرى الغرض الذى من أجله كان هذا الشىء فى مجموعه، ولكنى أرى أن كل قطعة متناسقة مع غيرها ، وأعجب بالصانع من خلال تفاصيل عمله . لأنى موقن أن جميع هذه التروس لا تسير بهـذه الدقة والتناسق الا لغاية مشتركة يستحيل على ادراكها على وجه التحديد .

ولو جاء أحدهم وقال لى ان حروف المطبعة قد نثرت اعتباطا فخرجت لنا ملحمة الالياذة (للشاعر فيرجيل) بتمامها وكمالها ، لمـا كلفت نفسى خطوة واحدة للتحقق من أن هذا القول أكذوبة فاجرة . فالصدفة لا تخلق النظام المحكم .

وربما قيل لى ان عدد الرميات الهائل يجعل هناك نسبة لتحقيق هذا النظام بالصدفة . ولكنى أعتقد أن أى عدد لا يمكن أن يبرر تلك الصدفة . وحتى مع افتراض ذلك فلن يخرج من اختلاط المواد الا ماهو من جنس تلك المواد المختلطة . أما النظام والحياة فلا يمكن أن يخرجا من الاختلاط الاتفاقى للذرات الجامدة .

ان الفكر ليضل ويحار فى العلاقات غير المتناهية التى بين عناصر الكون ، وهى علاقات غاية فى الدقة والاحكام ، وما من علاقة منها يمكن اغفالها أو اهدارها فى ذلك الزحام . فمن البلاهة والسخف أن نعزو كل هذا التناسق الى آلية عمياء لمادة متحركة بالصدفة الخالصة .

فليس يسعنى اذن أن أعتقد أن المادة السلبية الميتة استطاعت أن تنتج كائنات حية حاسة . وأن قدرا أعمى استطاع أن يخلق موجودات ذات ذكاء . وأن ما لا يعقل ولا يفكر استطاع أن يوجد موجودات عاقلة مفكرة .

فأنا اذن أومن بأن العالم تحكمه ارادة قوية حكيمة . انى أرى ذلك. بل انى أحسه . وهذا أمر يعنينى أن أعرفه . أما هل هذا العالم أزلى أم مخلوق ؟ وهل هناك مبدأ واحد لجميع الأشياء أو مبدآن أو أكثر ؟ هذا كله لا أعرف عنه شيئا . ولا يعنينى أن أعرف عنه شيئا .

ان الثابت عندى على كل حال أن الكون فى مجموعه شيء واحد بدليل تناسق عناصره فى الفعل والحركة ، وهذا يدل على أن عقلا واحدا يدبر الكون كله . وهذا الكائن الذى يريد ويقدر ويفعل بذاته محرك الكون ومدبر النظام هو الذى أدعوه الله . وأضيف الى اسمه معانى التدبير والقدرة والارادة التى تجمعت عندى من ملاحظة الكون ، ومعنى الخير الذى هو لاحق ضرورى لتلك المعانى . بيد أنى لا أعرف كنه ذلك الموجود الأعظم الذى هذه صفاته . وان كنت أعلم يقينا أنه موجود،

وأنه موجود بذاته ، وأن وجودي فرع عن وجـوده . وأن جميـع الأشياء التي أعرفها ، وجودها كذلك فرع عن وجوده .

اني أعرف الله في كل مكان من خلال مخلوقاته . أحس به في نفسي وأراه في كل ما حولي . أما كنهه وحقيقته وماهيته فخارج نطاق عقلي . انها مسائل تند عن ادراكي ولا يستطيع عقلي الكليل أن يجلو غوامضها.

وبسبب هذا العجز آليت على نفسي ألا أفكر اطلاقا في طبيعة الله ، الا في حدود احساسي بما بيني وبينه من علاقات . ولكن أفكاري في ذلك الموضوع خاشعة على الدوام ، أستشعر لها الاضطراب والرعدة . فخليق بنا أن نعلم أن الله ليس كمثله شيء . وليس تقصيرا منا ألا نفكر في ماهيته ، ولكن التقصير كل التقصير أن نفكر في ماهيته بغير ما يحق لها من جلال .

* * *

أما وقد أيقنت بصفات الله التي أثبتت عندي وجوده تعالى ، فاني أعود الى نفسي ، وأبحث عن الطبقة التي أحتلها في ترتيب الأشياء ونظام العالم . فأجد أني بالتأكيد في الطبقة الأولى بحكم جنسي . فلي ارادة ، ولدي وسائل لتنفيذ ارادتي ، وعندي القدرة في التأثير على الأجسام المحيطة بي ولتجنب تأثيرها ، وليست لدى تلك الأجسام المحيطة بي قوة مماثلة لذكائي . فأين هو المخلوق غير البشري في هذا العالم الذي يملك أن يلاحظ ، ويقيس ويحسب ويتوقع الحركات المحيطة به . فأي سخافة في الاعتقاد بأن كل هـذا الذي حولي قد جعل لي ومن أجلي ، ماذمت أنا الوحيد الذي أعرف كيف أستفيد من كل ذلك ؟ .

انه لصحيح اذن أن الانسان هو ملك الأرض التي يسكنها . فهو لا يروض الحيوانات كلها فحسب ولا يخضع العناصر لصناعته فحسب ، بل انه هو الكائن الوحيد الذي يستطيع ذلك . وسلطانه العقلي يصل الى النجوم نفسها ، مع أنه عاجز عن الوصول اليها بنفسه .

أروني حيوانا آخر على ظهر الأرض يستطيع أن يستخدم النار ويعجب بالشمس ؟ اني وحدي الذي أعرف كيف أعجب بالجمال وأشعر بالنظام والفضيلة وأسمو الى اليد التي تسوس الكون وأعشق الخير وأسديه . فكيف يمكن أن أقارن نفسي بالسائمة والبهائم ؟ .

ان هذه فلسفة وضيعة لا تليق بالانسان . ويجب أن يقاومها لا بعواطفه فقط بل وبعقله أيضا . لأن الضمير الأخلاقي في الانسان يميزه من البهائم تمييزا حاسما .

* * *

ولما تأملت طبيعة الانسان ، خيل الى اني وجدت فيه مبدأين مميزين ، أحدهما يسمو به الى دراسة الحقائق الأبدية وحب العدل والجمال المعنوي ، ويسمو به الى آفاق العالم العقلي الذي يجد الحكيم في تأمله غبطته ومسرته . اما الآخر فيحبسه في درك ذاته ، ويذله لسلطان الحواس ، وتوابعها من الأهواء والانفعالات . فكأن هذا المبدأ يقاوم فيه كل ما يوحيه اليه المبدأ الأول .

ولما وجدت نفسي نهبا لهاتين الحركتين المضادتين ، قلت لنفسي :

— كلا . ليس الانسان شيئا واحدا البتة . فانا أريد ولا أريد ، أشعر انى عبد وحر في آن واحد ، أرى الخير واحبه ولكني أصنع الشر . وأنا ايجابي فعال حينما أصغى للعقل ، ولكني سلبي منفعل حينما تجرفني اهوائي . وأسوأ ما يعذبني حينما أعثر واسقط هو احساسي أنه كان في وسعي أن أقاوم .

فان صح أيها الشاب أن الضمير من صنع الموروثات والمزاعم ، فانا على خطأ ولا شك . وليس هناك برهان على قيام الأخلاق . واما ان صح أن تفضيل الانسان لذاته على كل شيء ميل طبيعي لدى الانسان ، وكان مع هذا للعدل احساس فطري في القلب البشري ، فدون قولي

بطبيعة واحدة أو جوهر واحد للانسان أن ترفع هــذه الاعتراضــات والمتناقضات ...

وكلما امعنت الفكر فى ملكة التفكير وفى طبيعة الفكر الانسانى ، خيل الى أن حجج الماديين أشبه بالصماء .. فالماديون صم فعلا ، اذ لايسمعون الصوت الداخلي الذى يصرخ فيهم بصوت يصعب تجاهله :

ـــ ان الآلة لا تفكر . وما من حركة أو شكل ينتج التفكير . وفيك أيها الانسان شيء يجتهد أن يحطم القيود التى تكبلك . والامتداد ليس مقياسك . والكون كله لا يتسع لكل ما فيــك من عواطف ورغبــات وأشواق وقلق ، بل وكبرياء . فهذه لها مبدأ يخالف ذلك الجسم الضيق الذى تشعر انك مشدود اليه .

ما من كائن مادي فعال بذاته ، اما أنا ففعال بذاتى . فليخالفنى فى هذا من يشاء ، فانى لا أنفك أشعر به . واحساسى أقوى من أى حجة تناهضه .

ان لى جسما يؤثر فيه الآخرون ويؤثر فى الآخرين . وهذا التأثير المتبادل فوق مستوى الشك . ولكن ارادتى مستقلة عن حواسى ، ولدى شعور واضح حينما أفعل ما أردت أن أفعله ، وحينما لا أفعل سوى الانسياق لاهوائى . فلدى دائما القدرة على الارادة ، لا القدرة على التنفيذ . وحينما أسلم نفسى للغواية ، انصاع للموضوعات الخارجية . وعندما ألوم نفسى على ذلك الضعف ، لا أصغى الا لصوت ارادتى . فانا عبد برذائلى ، وحر بندمى . وشعورى بحريتى لا يمحى منى الا عندما أبتذل نفسى فأمنع صوت الروح من الارتفاع ضد قانون الجسد .

انى لا أعرف الارادة الا عن طريق احساسى بارادتى . وليس الادراك أوضح معرفة عندى من الارادة . فاذا سألنى سائل ما هى العلة التى تعين ارادتى ، سألته بدورى ما هى العلة التى تعين حكمى أو رأيى . فمن

الواضح أن هاتين العلتين شيء واحـد فحسب . فمتى أدرك المرء أن الانسان فعال فى أحكامه . وأن ادراكه ليس الا القدرة على المقـارنة والحكم ، تبين أن حريته ليست الا قدرة مماثلة لهذه القدرة أو ناجمـة عنها . فالانسان يختار الخير مثلما يحكم بالحق . ومن يسيء الحـكم يسيء الاختيار .

فما هي اذن العلة التي تعين ارادة الانسان ؟ انها حكمه . أى ملكة الحكم عنده . وما هي العلة التي تعين حكمه . انها ملكة الذكاء ،وقدرة الحكم . فالعلة المعينة له موجودة فيه . وفيما عدا ذلك لا أفقه شيئا .

لا شك فى أننى لست حرا فى ألا أريد خيرى . ولست حرا فى أن أريد شرى ، بيد أن حريتى ان هى الا عجزى عن ارادة شيء سـوى ما يوافقنى أو ما أقدر أنه كذلك ، من غير أن يجبرنى على ذلك عنصر غريب عنى . فهل ينجم عن هذا أننى لست سيد نفسى لأنى لا أستطيع أن أكون غير ما أنا ؟ .

ان مبدأ كل فعل فى ارادة الكائن الحر . فليست كلمة الحرية هى العاطلة من المغزى ، بل العاطلة من المغزى هى كلمة الضرورة . فافتراض فعل هو نتيجة غير صادرة عن مبدأ فعال انما هو فى الحقيقة افتراض نتائج بغير علل ، وهذا يوقعنا فى الدائرة المفرغة . فاما ألا تكون هناك حركة أولى ، واما أن كل حـركة أولى ليست لها عـلة سابقة عليها . ولا يمكن أن تكون هناك ارادة حقيقية من غير حرية .

فالانسان اذن حر فى أفعاله . فلابد اذن أن فيه جوهرا غير مادى . وأن فى الانسان جوهرا غير مادى ، فذلك هو المبدأ الثالث من مبادىء عقيدتى . ومن هذه المبادىء الثلاثة تستطيع فى يسر أن تستخلص سائر المبادىء من غير أن أسترسل فى سردها .

* * *

ان سوء استخدام ملكاتنا هو الذى يجعلنا أشقياء أشرارا . فأحزاننا وهمومنا وآلامنا تأتينا من عند أنفسنا .

ان الشر الخلقى والألم المعنوى من صنعنا بغير جدال . أما الألم الجسدى والشر البدنى فلا يمكن أن يقام لهما وزن لولا رذائلنا التى تجعلنا نحس تلك الآلام .

أليست الطبيعة جعلت فينا الاحساس بحاجاتنا كى نحمى بقاءنا ؟ ان ألم الجسم ليس الا الايذان بأن الآلة مختلة وتحتاج الى فحص ورعاية .

أما الموت ... فمن ذا الذى يشتهى أن يعيش أبدا ؟ ان الموت هو علاج الآلام التى نسببها لأنفسنا . فالطبيعة شاءت ألا تتعذب الى الأبد . وكم من انسان يعيش فى بساطة الحياة البدائية لا يعرف من الآلام الا القليل ! فهو يعيش من غير أمراض تقريبا ، كما أنه يعيش من غير أهواء تقريبا ، فلا يتوقع الموت ولا يشعر به . وحينما يشعر بالموت تكون متاعبه قد حببت اليه الموت ، فلا يكون فى نظره شرا ولا ألما .

لو أننا اكتفينا بأن نكون كما نحن فعلا ، لما تملكنا الأسى على مصيرنا ، بيد أننا نجرى وراء سراب رفاهية موهومة فنصيب أنفسنا بآلام واقعة محتومة . ومن لا يعرف كيف يحتمل شيئا من العذاب يجب أن يتوقع لنفسه الكثير من العذاب . ومن أفسد تكوينه بحياة شاذة ، لا عجب أن يلتمس تقويمها بالعلاج والأدوية . فيضيف الى الألم الذى يحسه الألم الذى يخشاه . فتوقع الموت هو الذى يجعله بشعا . فكلما التمسنا الفرار من الموت زاد احساسنا به وطأة . ومتنا رعبا طوال حياتنا ، وركبتنا الآلام التى جلبناها على أنفسنا بتمردنا على الطبيعة .

لا تفتش أيها الانسان عن خالق الشر أو الألم . فهذا الخالق ان هو الا أنت ! .

ليس هناك ألم سوى الذى تسببت فيه أو الذى تقاسيه .ومصدرهما

جميعا منك أنت . أما الشر الكلى الشامل فلا يمكن أن يوجد الا فى الفوضى . وانى أرى فى الكون نظاما لا سبيل الى انكاره . أما الشر الجزئى فلا يوجد الا فى شعور الكائن الذى يقاسيه . وهذا الشعور لم يتلقه الانسان من الطبيعة . بل تلقاه من نفسه .

ان الألم ليس له سلطان على الشخص بالجسامة التى يتوهمها . فلو أننا ألغينا هذا التقدم المنكود ، وقضينا على أخطائنا ورذائلنا ، ومحونا ضعة الانسان ، لصار كل ما فى الوجود خيرا .

وحيث يكون كل شىء خيرا لا يكون هناك ظلم . فالعدل لا ينفصل عن الخير . والخير هو النتيجة الضرورية لقدرة لا حد لها ، ولحب الذات الذى لا يخلو منه أى كائن واع حاس بذاته .

وهكذا أصل خطوة فخطوة الى تمجيد كرم الله فى خلقه ويزداد ايمانى بوجوده القدسى . وفى الوقت نفسه أشعر بل يزداد شعورى بضآلة تفكيرى البشرى بالقياس الى أمجاده القدسية .

* * *

ألق نظرك على جميع أمم الأرض ، وراجع جميع كتب التاريخ ، وستجد بين هذه الآداب المتباينة ، والسجايا المختلفة ، معانى واحدة للعدل والأمانة . ان مبادىء الأخلاق واحدة فى كل مكان . ومبادىء الخير والشر هى بعينها حيثما ذهبت .

ان فى قرارة النفوس مبدأ فطريا للعدل والفضيلة نقيس اليه افعالنا وافعال سوانا من الناس ، ونحكم عليها بالخير أو السوء . وهذا المبدأ هو الذى أسميه الضمير .

يقولون ان كل انسان يسهم فى الخير العام لمصلحته . ولكن لماذا نرى البار من الناس يسهم فى الخير العام ضد مصلحته الخاصة ؟ لماذا يمضى الى الموت ؟ ما مصلحته ؟ .

لاشك فى أن كل شخص لا يعمل الا لخيره . وما لم يكن هناك خير معنوي يحسب له حساب ، فلن يوجد تفسير البتة بالمصلحة الا لأفعال الأشرار وتلك فلسفة بغيضة جدا ، لانها تضيق عن الأفعال الفاضلة. ولا تتسع الا للدوافع الوضيعة التى لا فضيلة فيها . مثل تلك الفلسفة تشيل فيها كفة سقراط وأشباهه . ولو أفسحنا لهذا القبيل من المذاهب صدورنا ، لارتفع صوت الطبيعة وصوت العقل ضدها باستمرار .

وليس مرادى الدخول هنا فى مناقشات ميتافيزيقية تتجاوز طاقتى وطاقتك ولا تؤدى فى النهاية الى شيء . وقد أسلفت لك القول أنى لا أريد التفلسف معك ، بل مساعدتك على مراجعة فؤادك . فان فرضنا أن جميع فلسفات الأرض أثبتت لديك أنى مخطىء ، وهداك احساسك الى أنى أصبت ، فذلك منك حسبى .

ينبغى أن نميز بين أفكارنا المكتسبة ومشاعرنا الطبيعية . لأننا نحس بالضرورة قبل أن نعرف . ولا نتعلم اطلاقا أن نريد خيرنا ونفر من شرنا ، بل نحن نتلقى تلك الارادة من الطبيعة . وكذلك نتلقى منها حب الخير وكراهية السوء ، فذلك طبيعى فينا كحبنا لأنفسنا .

ان أفعال الضمير ليست أحكاما بل هى مشاعر . وفى حيز تأتينا جميع أفكارنا من الخارج ، توجد المشاعر التى تتقوم بها تلك الأفكار فى داخلنا . وبواسطة هذه المشاعر وحدها نعرف التوافق أو التنافر الذى يوجد بيننا وبين الأشياء التى ينبغى أن نقبل عليها أو نفر منها .

ان الوجود بالنسبة لنا هو الشعور . فالحساسية لدينا سابقة ولا جدال على ذكائنا . والمشاعر حاصلة لدينا قبل حصول الأفكار والمعانى .

وكائنة ما كانت علة وجودنا ، فهذه العلة دبرت حفظ بقائنا عندما زودتنا بمشاعر موافقة لطبيعتنا . ولا يمكن لأحد أن ينكر على الأقل أن تلك المشاعر فطرية فينا .

وهذه المشاعر بالنسبة للفرد هى حب الذات ، والخوف من الألم ، والرعب من الموت والرغبة فى السرور . ومن حيث ان الانسان — كما لا مناص من الاعتقاد ولا سبيل الى الشك فى أنه — اجتماعى بطبعه ، أو على الأقل مجعول بحيث يغدو اجتماعيا ، فهو لا يمكن أن يكون اجتماعيا بدون مشاعر أخرى فطرية ، تتصل بجنسه . فلو نظرنا الى حاجاته البدنية فحسب ، لوجدنا أن الانسان أحرى بالتفــرق منــه بالتقارب . أما وهو يتقارب ، فلا بد أن ذلك بسبب ميل فطرى فيــه واستعداد خاص .

ومن علاقة الفرد المزدوجة بنفسه وبنظرائه تكون لديه نظام أخلاقى تولد منه سلطان الضمير .

ان معرفة الخير ليس معناها بالضرورة محبة الخير . ومعرفة الخير ليست فطرية فى الانسان . ولكن بمجرد أن يعرف عقله الخير ، يجنح به ضميره الى محبة ذلك الخير . وهذا الشعور هو الفطرى فيه .

ان مشاعرى الطبيعية تميل الى المصلحة العامة . أما عقلى فيشــير على بمصلحتى الخاصة . وهذا صراع كان من الممكن أن يستغرق مدة حياتى . فأعيش مذبذبا ، أصنع الشر وأنا أحب الخير . وأظل فى تناقض مستمر مع نفسى .

كان هذا حريا أن يغدو حالى ، لو لم تشرق على نفسى وفؤادى أنوار جديدة فضت النزاع الداخلى وأقرت الوئام بينى وبين نفسى .

وكم قيل وأعيد القول عن الرغبة فى اقامة الفضيلة على العقل وحده . ويا له من أساس متين ! أى أساس هذا ؟ ان الفضيلة كما يقولون هى حب النظام . ولكن هل يستطيع هذا الحب أن يغلب النظام على مسرتى الخاصة ؟ فليقدموا لى سببا واضحا كافيا لتفضيل النظام على متعتى . ان هذا المبدأ المزعوم ليس فى قرارته الا لعبا بالألفاظ . فالرذيلة هى حب

النظام بوجه مختلف . وكل الفرق أن الخير ينتظم الجزء بالنسبة للكل . أما الشر فينظم الكل بالنسبة للجزء . فالشر نظام مقلوب الترتيب . ولكنه نظام .

ان الشرير يجعل من نفسه مركز جميع الأشياء . أما الفاضل فيلزم مكانه من محيط الدائرة لا يتعداه . وبذلك يحفظ نظامه أو ترتيبه بالنسبة للمركز الكلى المشترك الذى هو سنة الله فى الخلق ، وبالنسبة أيضا لجميع الكائنات الأخرى .

فما لم يكن هناك مركز مشترك هو الارادة الالهية ، لكان الشرير وحده هو العاقل ، ولكان الفاضل البار معتوها أو مخبولا .

* * *

لماذا جعلت روحى بحيث تكون خاضعة لحواس مشدودة الى هذا الجسد الذى يذلها ويستبد بها ؟ .

لست أدرى لذلك سببا . وهل دخلت فى علم الله ؟ بيد أنى أستطيع أن أرجح من غير تبجح أن نفس الانسان لو ظلت حرة نقية ، فأى فضل له فى محبة مشيئة الله التى يراها سارية فى الكون ؟ .

أما والانسان مرتبط بجسم فان ارتباطا وثيقا غامضا ، فان المحافظة على هذا الجسم تدفع النفس الى جباية كل شىء لهذا الجسم ، مما يجعل له مصلحة مناهضة للنظام الكلى ، ذلك النظام الكلى الذى تستطيع الروح أن تتبينه وتحبه فى الوقت نفسه . فحرية الروح تصبح مجال الفضيلة اذ يبدى الانسان مدى حرصه وتفضيله لمطالب الروح على مطالب الجسد . بتفضيل النظام العام الكلى على المصلحة الجزئية ، وتغليب السعادة الصحيحة على الأهواء الأرضية والشهوات البدنية .

* * *

وكان الكاهن الطيب يتكلم بحماسة وانطلاق . وكانت الحماسة

تغمرنى وهو يتكلم ، وكأنى أستمع الى صوت مقدس . ومع هـذا خطرت بذهنى مجموعة من الاعتراضات . الا أن استرساله فى الكلام جعل يبددها واحدا بعد واحد الى أن ساد نفسى الاقتناع التام .

وبعد برهة صمت استرسل الكاهن الشيخ يقول :

— لقد أطلعتك أيها الصديق الشاب على عقيدتى كما أودعها الله فى فؤادى وأنت أول شخص صرحت له بما فى نفسى . وربما كنت الأخير أيضا . وأنت فى سن الحرج التى تتفتح فيها النفس لليقين ، ويتلقى فيها الفؤاد طابعه الباقى ، ويعزم المرء فيها على مسلكه اما خيرا واما شرا . وقد فتحت لك قلبى بغير تحفظ وتركت لك الخيال بعد ذلك فلست الا بشرا يجوز عليه الصواب والخطأ . وأطلعتك على شكوكى بغير زيف ، وعلى ظنونى بغير تمويه ، وبسطت لك آرائى ودوافعى الى الايمان ، والآن لك القول الأخير . ومن الخير أن تتأنى . وأن تفحص ضميرك بأمانة واخلاص . ولا تعتنق من آرائى الا ما نزل منك منزل الاقتناع . أما الباقى فانبذه . فان وجدت فى نفسك ميلا الى وجهتى وجعلت عقيدتك عين عقيدتى فانى ناصح لك ألا تعرض نفسك للغواية ، ولا تأكل خبز الصدقة حتى لا تكون تحت رحمة سواك . بل عد الى وطنك ، وارتد الى دين آبائك ، وأخلص له ولا تنحرف عنه . فلباب الأديان جميعها واحد . ودين آبائك ، أحفل الأديان بالخلق الطاهر وأقربها الى العقل . أما نفقات السفر فسأدبرها لك . ولا تخجل من العودة الى أهلك . فالضلال هو المخجل ، أما اصلاح الخطأ والرجوع عنه فليس مما يحمر له الوجه . وأنت فى سن يغتفر لها الطيش . وان رجعت الى ضميرك بصدق تبخرت أمامك جميع الحوائل . وستشعر أن من النزق الخروج على دينك الذى ولدت فيه . والمهم يا ولدى أن تؤمن بالله ولا تشك فى وجوده بتاتا . ولا تفتح قلبك لمن يشككون فى الله باسم

العقل أو الفلسفة . وكل دعواهم أن الحقيقة لا يمكن أن تضير الناس ، ولهذا ينبغي أن يشغل الناس أنفسهم بطلبها غير متقيدين بعقيدة . وأنا أعتقد مثلهم أن الحقيقة لا تضير الناس . ولكنى أجد ذلك حجة ناهضة على أن تعاليمهم تجافى الحقيقة ، لأنها تضير الناس ! كن أيها الشاب مخلصا صادقا بغير زهو . وتعلم كيف تظل جاهلا بما لا سبيل فيه الى العلم . فانك بذلك لا تخدع نفسك ولا تضل الناس . واذا تحدثت الى الناس فتقيد بوحى ضميرك ولا تكترث لتصفيقهم . وتجنب التطرف في التقوى فان ذلك يقود الى العصبية العمياء . وبشر دائما بالانسانية والتسامح . ولا تبال في الحق لوم اللائمين . بل قل الحق وادع الى الخير . فذلك هو الواجب الذى يجب أن يتحراه الانسان على الأرض وخالف هواك ومصلحتك الخاصة . فالمصلحة الخاصة خادعة مضللة . أما حب العدل فلا يخذل ولا يخدع ولا يضل . وتلك وصيتى لك أيها الشاب .

التربية العاطفية

ان أنوار العقل لا تستطيع أن تتعدى بنا حدود الدين الطبيعي . وهذا ما سأكتفي به مع تلميذي اميل . وان وجب أن يكون له دين آخر غير ذلك الدين ، فليس من حقي أن أكون مرشده ، بل له وحده أن يختار ذلك الدين بنفسه .

اننا نعمل فى توافق مع الطبيعة . وبينما الطبيعة تكون الشخص المادى ، نحاول نحن أن نكون الشخص الأخلاقى . ولكن سرعة التكوين فى الحالتين غير متساوية . فالجسم يصل الى القوة والعنفوان فى الوقت الذى لم تزل فيه الروح ضعيفة خائرة . وهذا هو الاشكال . ومهما اجتهد الانسان فى مسعاه ، يظل المزاج سابقا للعقل . وكل محاولاتنا السابقة كانت منصبة على ايقاظ العقل ، وتهذيب الحس ، إبقاء على وحدة التلميذ ونفى الصراع من داخله بقدر الامكان .

بيد أن الرغبات الجسدية الناشئة فى الشاب قوية جارفة . فانجابهنا تلك الرغبات بعنف ، واعتبرنا حاجاته الجديدة التى يحس بها فى داخله ضروبا من الجرائم ، فلن يصغى لنا ولن ينقاد لسياستنا . فعلى المربى دائما أن يضع نصب عينيه أنه وزير الطبيعة المدير لها الخاضع لمراسيمها المنفذ لها بحكمة . فليس له أن يناصب الطبيعة العداء .

فما هو الموقف الذى ينبغى على المؤدب أن يتخذه لنفسه ازاء العواطف والشهوات ؟ .

ان أول ما يتبادر الى الذهن هو تزويد الشاب بأسرع ما يمكن . وهذا بغير شك أحكم تصرف وأقرب مايكون الى الفطرة . ومع ذلك

أشك فى أنه أصلح مايكون عمليا ٭ وسأذكر أسباب هذا الرأى فيما بعد . وأكتفى بأن أقول الآن : ان الزواج يحتاج الى نضوج لا يتيسر فى باكورة البلوغ .

ان هناك أوجها كثيرة للتعارض بين حقوق الطبيعة علينا وبين قوانيننا الاجتماعية . ومن واجبنا أن نوفق بين هذين الطرفين .

انى بحسب طريقتى السالفة الذكر فى التربية أعتقد أن فى استطاعتنا تأخير يقظة الرغبات والابقاء على البراءة الى سن العشرين . وهذا ليس بدعة . فقبائل الجرمان يلحق فيها العار بالشاب الذى يفقد بكارته قبل سن العشرين . ويعزو المؤلفون الى هذه العفة قوة أبدان الجرمان وكثرة نسلهم .

وأظن أنه يمكن اطالة هذه الفترة كثيرا .فلدينا مثلا والد الفيلسوف مونتانى ، وكان رجلا معروفا بتوقد الذهن والمضاء وقوة البنية . وكان هذا الرجل يقسم أنه تزوج وهو بكر ، وكانت سنه ثلاثا وثلاثين سنة ، بعد أن خدم طويلا فى حروب ايطاليا . وظل محتفظا بقوته ومرحه الى ما بعد سن الستين .

فلا غرابة أو مبالغة فى الاعتقاد بأن اميل يمكن أن يظل حتى الآن بفضل رعايتى متمتعا ببراءته الأصلية . ولكنى أتوقع ألا تطول فترة هذه البراءة طويلا . فالمغريات كثيرة من حولنا وسيخرج أمره من يدى شئت أو لم أشأ ، فينقاد للغريزة الحيوانية العمياء .

وقد أمعنت الفكر فى أخلاق الناس ، فوجدت أن لحظة البدايه فى هذا الطريق لها تأثير حاسم على سائر أيام الحياة . فان أنا تصنعت الجهل وتغاضيت ، فيستغل غفلتى وضعفى ظنا منه أنه تغفلنى . فيحتقرنى وأكون قد تواطأت على فساده . وان حاولت تقويمه بعد ذلك لن أفوز بطائل لأنه لن يصغى الى ، بل سيكرهنى ويضيق بى ذرعا .

ليس أمامي اذن سوى موقف واحد معقول أن أجعله المتصرف في أمر نفسه ، وأحاول أن أعصمه على الأقل من الأخطار بأن أنبهه الى المعاطب التي تحدق به .

ولئن كنت حتى الآن أتحكم فيه عن طريق جهالته . فيجب منذ الآن أن أتحكم فيه عن طريق الدراية وفتح عينيه على الحقائق .

ان هذه المعلومات الجديدة غاية في الأهمية . وينبغي أن تكون واضحة ونظيفة .

تذكر أن طريقة قيادة شخص بالغ تناقض تماما كل ما فعلته في قيادته وهو طفل . فلا تتردد اطلاقا في اطلاعه على تلك الأسرار الخطيرة التي طالما اجتهدت في اخفائها عنه . فما دام من الواجب أن يعرفها ، فلا ينبغي أن يعرفها من أحد سواك ، ولا من نفسه . بل منك أنت . ومادام قد تعين عليه أن يقاتل ، فمن الخير أن تجنبه المفاجآت السيئة ، وأن تعرفه أنت بحقيقه عدوه .

ان العادة جرت بأن يعرف الشبان هذه الحقائق الحيوية من أصحابهم لا من أساتذتهم ومؤدبيهم ، فلماذا يحدث ذلك ؟ لماذا يختار الشاب خلصاءه بعيدا عن دائرة مؤدبيه ؟

ان السبب هو استبداد أولئك المؤدبين به . فلو لم يجبره استبدادهم على التخفي والتستر لما تخفى أو تستر . أما اميل فلا حاجة به الى الالتجاء لصديق سواى . فقد تعود أن يفتح لي قلبه بكل حرية . وأن يقول لي مايحسه بسرور . وليس لدى ما أخشاه من هذه الجهة ، بيد أني متى لاحظت عليه الخجل والتحفظ سأدرك أن غريزته بدأت في التيقظ أو الثوران وأن فكرة الشر بدأت تقترن بالغريزة لديه ، وهذا ايذان بأن الوقت قد أزف . وأنني ما لم أعجل بتنوير ذهنه ، نشد المعرفة بعيدا عني ورغم أنفي .

وسيظن أكثر من قارىء أن المسألة لا تحتاج الا الى حديث صريح فى لحظة عابرة ثم بعد ذلك ينتهى الاشكال كله . وهذا خلاف الواقع .

ان من يريد أن يزرع زرعا مثمرا ، عليه أن يحرث الأرض قبل أن يلقى البذور . وبذور الفضيلة عسير نباتها . ولابد من جهد ودأب كى تنشب جذورها فى الأرض . والأرض معادن . ومما يجعل المواعظ غير ذات أثر أنها تلقى على كافة الناس من غير تدبر لاختلاف طبائعهم . فكيف يمكن أن تلائم الموعظة الواحدة صنوف السامعين على اختلاف أفهامهم وأمزجتهم وأعمارهم وأجناسهم وآرائهم . .

لا أعتقد أن هناك اثنين تصلح لهما موعظة واحدة من جميع الوجوه . وانفعالاتنا متغيرة . حتى لا يكاد يوجد يومان فى حياة الرجل الواحد يتشابه فيهما تأثير خطبة واحدة عليه .

ومن باب أولى لا يكون الشاب متهيأ لسماع المواعظ عندما تضطرم شعلة حواســه فتطيح بالعقل وتستبد بالارادة . فلا تخاطب العقل فى الشبان ، حتى الراشدين منهم ، الا بعد أن تعدهم لادراك ما تقول ادراكا حسنا . فان الدروس التى تذهب جفاء لا يلام عليها التلاميذ مثلما يلام عليها الأساتذة . فالأستاذ الصالح يجب أن يعد نفس تلميذه لما يقوله له .

ان الشاب الطائش مثله كمثل من يسير فى نومه على حافة هاوية فان أيقظته فجأة كان حريا أن يتردى فيها .

وكذلك اميل ينجو وهو فى نعاس جهالته من مخاطر لا يراها . فان أنا أيقظته على حين غرة هلك . فليكن همنا أولا أن نبعده عن الهاوية ثم نوقظه كى نريه اياها عن بعد .

ان المطالعة ، والوحدة ، والكسل ، والحياة الرخوة القاعدة ، ومخالطة النساء والشبان . كل هذه سبل خطيرة فى سنه هذه ، يعرضه سلوكها للمزالق والمعاطب .

فمن واجبى أن أحيد به عن تلك السبل بأن أورده سواها . فان الأعمال الشاقة تخمد ثورة الحس وتوقف شطط المخيلة . وانشغال اليدين على الدوام وتعب الجسم من الارهاق خير صارف للقلب عن حرارة الرغبات .

ان الخطر الداهم فى المدينة . فلأخرج بتلميذى الى الخلوات حيث يكون بعيدا عن الغواية . ولكن هذا لا يبعده عن ذكراها وأخيلتها . لأن الغواية لها عامل داخل النفس . فلأشغله عن نفسه كذلك . وليكن ذلك الانشغال بشىء يميل اليه بمزاجه وذوقه . وهذه هى أهمية الهواية . الى أن يحين الوقت الذى أصارحه فيه بكل شىء .

ويجب عند المصارحة أن أتخير المناسبة ، والزمان والمكان ، وأن أحدثه فى الموضوع ببساطة ورزانة . ولكن ليس فى جفاف . بل بحيث يدرك أنى مشترك معه فى الاحساسات التى أحدثه عنها . وسأحدثه عن الحب والنساء والملذات حديثا صريحا أكسب به قلبه وأكون موضع سره فى هذه الأمور بعد ذلك .

لن أخفيه من فطرته . بل سأكتفى بتوضيحها له وبيان مدى الأمان فيها ومواطن الخطر . بحيث يسلمنى قياده عن ثقة من فهمى وتسامحى وحرصى على متعته ومصلحته معا .

ان أولئك الذين يريدون تأمين الشباب ضد فخاخ الشهوات والحب ، يصورون الحب للشبان فى صورة الجريمة . كأنما خلق الحب للعجائز فحسب !

ان هذه الدروس المضللة الخادعة لا تنطلى على قلب الشاب أو عقله . بل ستلهمه فطرته أن يسخر من هذه المواعظ وانتظاهر بالخضوع لها والعمل بها . فكل ما يناهض الطبيعة باطل لا يرجى له الدوام .

أما أنا فسأصور له الحب فى صورته الحقيقية . سأقول له انه

السعادة القصوى فى الحياة . وأنه هو الذى يضفى على الرغبات الحسية جمالا ساحرا ساميا . وأن الغريزة بغير حب اسفاف وابتذال . وسأجعله يتقزز من الاباحية والفجور ، وأوجه أشواق عواطفه جميعا الى سماء الحب الذى يجب أن يتهيأ له ويسعى للصعود اليه . فان اميل لم يخلق ليعيش بمفرده . ولا بد يوما أن يحب ويتزوج من يحب .

ولكن يجب قبل أن يعاشر الناس ليعرف بالخبرة كيف يعيش البشر فى هذه الدنيا . وكما أن هناك سنا مناسبة لدراسة العلوم . فهناك كذلك سن مناسبة لممارسة الدنيا واختبار الحياة . ويجب أن تتأخر تلك السن الى أن ينضج عقل الشاب فيسلك فى الحياة عن وعى وعلم . لا عن تقليد أعمى أبله كما يفعل أبناء السراة الذين يلقى بهم الى المجتمع منذ الطفولة بغير ثقافة أو نضوج .

وسأقول لاميل بكل صراحة وأنا أطرق به باب الحياة الاجتماعية :

— ان قلبك أيها الشاب بحاجة الى رفيقة فهيا بنا ننشد تلك التى تلائمك . وربما لم يكن العثور عليها سهلا . فالفضيلة الحقة نادرة دائما . فلنبحث بأناة . ولا بد أن نعثر على ضالتنا فى النهاية ، أو على الأقل على أقرب فتاة اليها شبها .

وأظن هذا كافيا لفتح قلب الفتى لحياة المجتمع . وسوف يكون من السهل اقناعه بحسن السلوك والابتعاد عن الفسوق . لا بالوعظ السقيم والارشاد العقيم ، بل بالمناقشة العقلية . فما من شاب يرضى أن تكون أخته أو أمه هدفا للفسق الذى يريد أن يقترفه مع نساء آخرين .

ومع استقلال فكر اميل ، سيحافظ على الآداب الاجتماعية لأنه ليس مغرما بايذاء الناس أو احتقارهم . وفى مدة قصيرة سيتعلم كل ما فاته أن يتعلمه من السلوك الاجتماعى المهذب من غير رخاوة .

الـــذوق

ان من يحب يريد أن يكون محبوبا . واميل يحب الناس . ولذا فهــو يريد أن يفــوز باعجــابهم ومــن باب أولى يريد أن يفــوز باعجــاب النســاء . وســنه وصحــته ومزاجــه وكــل شيء فيــه يزكى هذه الرغبة .

أقول مزاجه ، وطبعه ، ولهذا أهمية كبيرة فى حد ذاته . فالحب عند الرقعاء ألفاظ معسولة ورخاوة وتقليد . أما عند أمثــاله من العشــاق الحقيقيين ، فحب النساء أعمق جذورا ، لأنه يصــدر من القلب ومن رقة الاحساس . وهذا هو الفارق بين المحب الحقيقى ذى الطبع السليم وبين المستهترين الفجرة طلاب الشهوات .

وانى أقدر طبعا أن اميل بقلة خبرته سيكون خجولا مرتبكا فى أول الأمر . ولكن هذا الارتباط سيزيد من جاذبيته للنساء . ثم لا يلبث أن يزول بمرور الوقت . وسيتعلم كيف يكون شديد الاحترام للمتزوجات وكثير الرقة والحيوية مع الفتيات .

أما عن السلوك الاجتماعى عامة فسيكون اميل مستوحيا للطبيعــة فى تهذيبه فيحترم ذوى الأسنان بصرف النظر عن مراكزهم . ولما كان أميل من أصغر من يرتادون المجتمعات سنا فيجب أن يكون مثــالا للتواضع والحياء . خفيض الصوت بعيدا عن الادعاء أو التظرف .

فان لم يشتهر بخفة الدم وبراعة النكتة فســوف يشتهر بالاتزان وصفاء الذهن واستقامة التفكير وسداد الرأى . سيحبه الناس وان لم

يدروا لماذا يحبونه . وربما كانت معلوماته محدودة ، الا أن منطقه مستقيم .

لن يندفع وراء الآراء الجديدة والبدع الشائعة . لأنه ليس سطحيا فى تفكيره أو مغرما بالغرائب ، بل يحسن تقدير الآراء ويعلم أن المجتمعات تقوم على المتين من الآراء والمعتقدات لا على الزخرف البراق منها .

ولئن كانت آفاق معرفته مقصورة على المفيد النافع ، فان ذلك يجعل طريقه قليل الاتساع واضح المعالم غير متشعب . فلا يغريه شيء بالانحراف عن سبيله السوى . وهذا فى حد ذاته كفيل أن يجلب له الاحترام والتقدير .

ولما كان حب الاعجاب فطريا لدى جميع الناس ، فسوف نجد اميل مهتما بذلك فى الحدود الطبيعية . بمعنى أنه يهتم بالفوز بالاعجاب من أجل الصفات الأساسية فى نفسه لا بسبب مظاهر لا فضل له فيها .

انه مثلا يحب أن يكون المتفوق فى السباق فى مجال الرياضة والمصارعة والعمل . ولكنه لا يهتم بالتفوق فى ذلاقة اللسان ، أو براعه النكته أو وفرة المعرفة وغزارة العلم . ومن باب أولى لا يعنيه اطلاقا كسب الاحترام بسبب عراقة النسب والحسب أو فداحة الثراء أو سطوة الجاه .

انه يحب الناس لأنهم أناس مثله . وأحبهم اليه أشبههم به فى الذوق والخلق . وتقديره للناس مبنى على دراسة أخلاقهم وسجاياهم وأذواقهم.

وبمناسبة الذوق تجد من الواجب تحديد المبدأ الذى يقوم عليه تحديد الذوق وتعريفه . والحقيقة أن تعريفات الذوق من أشق الأشياء وأكثرها ضلالا . لأن المفهوم البسيط للذوق أنه ملكة الحكم على ما يعجب السواد الأعظم من الناس أولا يعجبهم . فاذا خرجنا على هذه الحدود لم نصل الى طائل .

ويجب أن نلاحظ هنا أننا لسنا بصدد الأشياء التى نحبها لأنها نافعة . أو الأشياء التى نكرهها لأنها ضارة . فهذه أشياء هامة واضحة. فى حين أن الذوق لا ينصب الا على أشياء غير أساسية ، بل تتصل بالمتعة والكماليات فى الغالب ، ولا صلة لها بضرورات المعيشة . وهذا طبيعى لأن الضروريات لا يلزم الذوق للحكم عليها ، بل يكفى لهذا الحكم صوت الفطرة والرغبة الطبيعية . وهذا ما يجعل موضوعات الذوق عرضة للاختلاف الكثير وتباين المقاييس .

وألاحظ أن الذوق يخضع لقواعد محلية ولاسيما من جهة الجو والطباع والعادات والعرف السائد والنظم الاجتماعية وطريقة الحكم . كما أن لاعتبارات السن والجنس والطبع دخلا فى تلوين الذوق . ولهذا قيل ان الأذواق لا يصح أن تناقش .

ان الذوق فطرى فى جميع الناس ولكنه ليس على قدم المساواة لدى الجميع . وليس نموه لدى الجميع بمعدل واحد . وهو خاضع للتغير فى مراحل العمر بسبب ظروف كثيرة . فالحساسية والثقافة والبيئة لها آثارها . وكلما اتسعت آفاق البيئات التى يرتادها الانسان ، اتسعت أمامه الفرص لعقد المقارنات .

وينبغى أن يكثر الانسان لتنمية ذوقه من مخالطة أوساط يكثر فيها وقت الفراغ واللهو والبطالة . لأن الأوساط المتخمة بالعمل ومهام الأمور لا تهتم بالملذات والمسرات بل بالمنافع والمصالح .

ومن جهة أخرى ينبغى أن تكون الأوساط التى نخالطها لتربية الذوق خالية من التفاوت الضخم بين الطبقات . فلا يسودها الاستبداد بالرأى والشطط فى حب الاغراب . حتى لا تقضى الموضة على الذوق .

وألاحظ أيضا أنه حيث يتفشى الترف والبذخ يسود الذوق الفاسد. وهذا بديهى لأن الذين يقودون الذوق هم الفنانون والكبراء والأثرياء .

ومن يقود هؤلاء هو صالحهم أو غرورهم . وكبار الأغنياء يحبون اظهار تفوقهم الهائل على سائر الناس بالأعمال الغالية التكاليف . وهذا هو حب البذخ الذى يجلى الجمال عن المرتبة الأولى ليحل المال محله . فاذا بالفن المترف متكلف ذو جمال مصنوع . لأنه يجافى الطبيعة .ولذا كان البذخ وفساد الذوق لا ينفصلان . فحيث يكون الذوق مترفا يكون فاســدا .

وفى العلاقات بين الجنسين يبدو الذوق فى فساده أو صلاحه على أوضح صورة . فحينما تسود تلك الصلات المتعة المبتذلة ، نجد الذوق منحلا . فالاباحية والتبذل يقترنان بفســاد الذوق — وحسن الذوق يقترن بحسن الأخلاق .

ارجع فى الأشــياء المــادية الى ذوق المرأة . فهى خبــيرة بأمور الحس . وارجع فى الأشــياء المعنوية الى ذوق الرجــل . فهــو خبــير بأمور الفكر .

وحينما تكون المرأة فى حدودها الطبيعية ، نجدها ملتزمة ميــدان تخصصها ، صائبة الحكم فيه . حتى اذا فرضت المرأة نفسها على الأدب وتصدت للحكم على الكتب ، وأقبلت على تأليفها . فتلك آية الفساد !.

وفى الكتاب القادم ، وهو الكتاب الخامس سيتسع المجال للكلام على المرأة وتربيتها .

وسيكون من واجبى على كل حال أن أجنب اميل المجتمعات المخنثة التى تسيطر فيها المرأة على الأذواق ، والمجتمعات المترفة التى يسيطر فيها المال على الفنون . ويطمس فيها البذخ الجمال الطبيعى .

وسيكون حليفى فى ذلك ما للذوق البسيط من قدرة خاصــة على الدخول الى القلب مباشرة . وسأستعين بكتابات الأقدمين ، فان بلاغتهم لم تفسدها الصنعة ، بل كانت تستلهم النزعات الطبيعيــة والاحســاس

الفطرى الأصيل . وهذا نقيض مؤلفات المحدثين القائمة على الحذلقة والتكلف الممقوت .

وبعد أن أرويه من تلك المناهل الصافية من آداب الأقدمين ، أطلعه على الآداب الحديثة ليكتشف ما فيها من سخافة ، فلا يلبث أن يطرحها نافرا منها . وأطلعه على مهاترات رجال المجامع الرسمية والأكاديميات حتى لاينخدع فى أسمائهم الطنانة ، ولا يقدرهم الا بحسب أعمالهم الضحلة .

وبعد دراسة الأدب أرتاد به المسارح . فانها مدارس للذوق بما تستهدفه من المتعة والترفيه والترويح . فالمسارح لا تقام للعلم وطلب الحقيقة . بل لتهذيب العواطف والمشاعر . ولهذا تصلح المسارح تمهيدا طيبا لدراسة الشعر . من حيث ان الشعر يقوم على التعبير عن العاطفة ولا يستلهم العقل والمنطق . ففنون الشعر والمسرح هى المحراب الحقيقى للجمال وتنمية الذوق .

سيكون هدفى الأساسى أن أعلمه كيف يحس الجمال بجميع أنواعه وكيف يحبه . فبهذا تزدهر عواطفه ويزدهر ذوقه . ويلتمس السعادة فى الجمال لا فى الثروة وما تتيحه من متاع غليظ رخيص سهل المأخذ قريب المورد .

وأما عن أسلوب المعيشة فيجب أن يتفق مع مستوى ذلك الذوق ، ويجب أن يتابع الطبيعة ويلازمها عن كثب .

لذا لن يكون مقامنا فى قصر . لأننا لا نحتاج لسكنانا الا لحجرة واحدة . ويجب أن يكون الأثاث بسيطا . وألا تثقل الحياة بمراسم الخدمة الباذخة ومظاهر الأبهة .

انى لاأفهم لماذا يحبس الانسان نفسه داخل أسوار فيغدو سكنه سجنا؟ لماذا ينفق الانسان المال والوقت فى بناء قصر ضخم يتقيد به لا يبرحه ،

مع أن الحروب والثورات والأوبئة لا تسمح لنا بهذا الارتباط الثقيل بمكان واحد ؟ .

ان العالم كله مسكنى وقصرى . لهذا يجب أن يكون منزلى متواضعا كى يسهل على الانطلاق منه الى أى مكان فى العالم كلما راقنى ذلك .

ان ثروتى الواسعة ستفيدنى فى توفير أسباب الراحة لا فى اثقال حياتى بمظاهر الوجاهة . لن أعود اميل التقيد بالخيل والمركبات حتى لا تستعبده قوائم جياده . وسأعوده بساطة الملبس حتى لا يستمد قيمته من زخارف ثيابه .

ان الصلة الوحيدة التى ينبغى أن ينميها ويلتزم بها هى الصداقة القائمة على توافق الأذواق والطباع لا على تشابه الزينة والمظاهر والثراء .

ان الصداقة لا تشترى . فلن أجعل اميل يسيغ تكوين بطانة من الأتباع والمتملقين عبيد كرمه أو الطامعين فى الاستفادة من مكانته . فمثل هذه الصلات سخيفة لأن الأساس فيها ليس التقدير الذاتى بل المنفعة والنفاق .

ان الصديق لا يشترى . والحب لا يشترى . وقد يكون من اليسير شراء النساء بالمال . ولكن هذا لن يكون حبا أو غراما . فالمال الذى يغدقه الرجل على امرأة عنوان على هوانه عليها . فلولا ذلك المال ما فتحت له ذراعيها . فالمتعة التى تشترى بالمال رخيصة غليظة لا تروى قلبا و لاتشفى غليلا .

* * *

فاذا انتهيت من تهذيب ذوق اميل على هذه الصورة ، تكون قد اقتربت من المرحلة الأخيرة ، وهى مرحلة البحث عن شريكة لائقة وحبيبة جديرة بهذا الشاب المكتمل الصفات والسجايا .

ويجب ألا أتوانى فى ذلك البحث الدقيق حتى لا يفلت زمام اميل فيظن لقلة صبره السراب واحة ، ويتهالك على أول فتاة يخالها ضالته المنشودة .

وفى سبيل هذا البحث سأخرج مع اميل من باريس ومجتمعاتها . فهى مدينة الصخب والدخان والوحل . حيث النساء فقدن ايمانهن بالشرف ، وحيث فقد الرجال ايمانهم بالفضيلة .

فى فسحة الريف النظيف سنبحث عن الحب والسعادة والطهر ، فى صورة فتاة نموذجية مثل اميل ، نسميها منذ الآن « صوفى » .

الكتاب الخامس

صوفي
أو
المرأة

- تربية المرأة
- صوفي
- لقاء اميل وصوفي
- زيارة عاطفية
- لعب وغضب
- الأسفار
- زواج اميل وصوفي

تربية المرأة

ها قد وصلنا الى المرحلة الأخيرة من الشباب ، ولكننا لم نبلغ بعد آخر مداه . وليس من المستحسن أن يعيش الرجل وحيدا . واميل رجل، وقد وعدناه بشريكة حياة ، فينبغى أن نمنحه اياها .

وهذه الشريكة هى صوفى .. فأين محل اقامتها ؟ وأين عسانا نجدها ؟ ويجب كيما نعثر عليها ، أن نعرف من هى . فلنعرف أولا ما هى ، وبذلك يتيسر لنا التعرف على موطنها . ولكن عثورنا عليها لا يحل المشكلة . ولئن كان جون لوك قال :

وما دام صاحبنا الشاب النبيل على أهبة الزواج ، فقد حان لنا أن نتركه بالقرب من محبوبته .

وبتلك العبارة ختم كتابه فى التربية . فانى لن أقتفى أثر جون لوك فى ذلك ، لأنى لا أتشرف بتربية شاب نبيل .. بل انسان ! .

وينبغى أن تكون صوفى امرأة على نحو ماينبغى أن يكون اميل رجلا . أى تكون حائزة لكل ما يتفق وتكوين نوعها وجنسها بحيث تصلح لملء مكانها جسديا وخلقيا .

لنبدأ اذن بفحص مواطن الاتفاق والاختلاف بين جنسها وجنسنا . ان المرأة رجل فى كل ما لا يتصل بالجنس ! فلها أعضاؤه ، وحاجاته ، وقدراته . فالآلة البشرية فى المرأة والرجل ذات تركيب واحد ، وأجزاؤها واحدة ، وطريقة عملها واحدة ، وهيئتها واحدة .

اما فيما يتصل بالجنس ، فبين المرأة والرجل صلات من جميع

النواحي ، واختلافات فى شتى النواحي . وموضع الصعوبة فى المقارنة بينهما هو فى تحديد ما هو جنسي وما هو غير جنسي فى تكوينهما .

اننا بالتشريح المقارن ، بل وبالنظر المجرد نجد بينهما اختلافات عامة تبدو وكأنها لا صـلة بينها وبين الجنس ، فى حين أنها متصلة بالجنس بصلات بعيدة من متناول ملاحظتنا . فنحن لا ندرى الى أى مدى تمتد هذه الصلات .

وما نعلمه علم اليقين أن ما بينهما من قسط مشترك انما هو مستمد من اشتراكهما فى النوع البشرى . وان ما بينهما من اختلاف انما هـو راجع الى اختلاف الجنس . ومن هذين الوجهين نجـد صلات كثـيرة وتناقضات كثيرة أيضا . ولعله من أعظم آيات الطبيعة البديعةانها صنعت كائنين فيهما كل هذا التشابه وكل هذا التباين فى آن واحد .

ولا شك أن الصلات والاختلافات يجب أن يكون لهـا تأثير على الجانب الخلقى . وهذا معقول وتثبته التجربة ، ممـا يدل على تفاهـة وبطلان الخلافات حول المفاضلة أو المساواة بين الجنسين . كأنما كل من الجنسين ليس أكمل فى ذاته مما لو كان أشبه بالجنس الآخر كما هو فعلا ! .

انهما من حيث الجانب المشترك بينهما متسـاويان . أما من حيث جانب التباين فلا وجه للمقارنة بينهما . وحين يجتمع الجنسان يسهم كل منهما فى الأمور العامة ، ولكن ليس بنفس الأسلوب . ومن هذا التباين يتولد أول اختلاف فى الصلات الخلقية فيما بينهما . فأحـد الجنسين ينبغى أن يكون ايجابيا قويا ، والآخر يجب أن يكون سلبيا ضعيفا .ولذا يجب أن يكون أحدهما مريدا قادرا فعالا ، فى حين يكفى أن يبـدى الجنس الآخر مقاومة يسيرة ..

ومتى وضعنا هذا المبدأ ، ترتب عليـه أن المرأة مجعـولة أساسا

لارضاء الرجل . ولئن كان ينبغي للرجل أن يرضيها ، فذلك عن ضرورة أوهي ،لأن المزية الأولى للرجل هي قوته .. فهو يروق المرأة من حيث هو قوى فحسب .

وأنا أعترف أن هذا ليس قانون الحب . ولكنه قانون الطبيعة ، وهو سابق على الحب ذاته .

ولئن كانت المرأة مجعولة كي تروق الرجل وكي تخضع له ،فيجب أن تسعى للفوز برضاه بدلا من أن تتحداه . فعنفوانها الخاص بها قائم في مفاتنها . وبتلك المفاتن يجب أن ترغمه على شحذ قوته واستخدامها . وخير وسيلة لايقاد جذوة تلك القوة هي استثارتها بالمقاومة . فعندئذ تتحد الكرامة مع الرغبة ، ويكون انتصار احداهما نصرا مؤزرا للأخرى . وبذا يتولد الهجوم والدفاع ، وجسارة أحد الجنسين وخجل الآخر ، ذلك الخجل أو الخفر الذى زودت به الطبيعة الجنس الضعيف كي يسترق به الجنس القوى ..

ان الكائن الأعظم أراد فى كل أفعاله تكريم النوع البشرى حينما أعطى الرجل ميولا لا حد لها ، وأعطاه فى الوقت عينه القانون الذى ينظمها ، بحيث يكون حرا وخاضعا لذات نفسه . وهذا القانون هو العقل . وأما المرأة فقد منحها رغبات غير محدودة ، وشفع تلك الرغبات بالحياء والخفر كي يلجمها .

وفضلا عن هذا جعل الكائن الأعظم ثوابا فعليا على حسن استخدام الرجل والمرأة لوظائفهما الحيوية ، وذلك الثواب هو النكهة الطيبة التى نجدها فى ممارسة الأمور بشرف متى جعلنا من الشرف قاعدة لأفعالنا . وهذا فيما يلوح لى دليل جيد لغريزة البهائم التى تنظم لها الصلات الجنسية فى أوقات معلومة وبقدر معلوم .

وهاكم نتيجة أخرى لهذا التركيب الخاص للجنسين ، وهذه النتيجة

أن يكون الجنس الأقوى هو السيد فى الظاهر . أما فى الواقع فهــو معتمد وتابع للجنس الأضعف . وليس ذلك عن مواضعة هزيلة من مواضعات المجاملة ، ولا عن سماحة فى طيها كبر من جانب صاحب الحول والحماية ، بل عن قانون راسخ من قوانين الطبيعة ، أعطى المرأة ذلك اليسر فى اثارة الرغبات ، أكثر مما يسر للرجل ارضاء تلك الرغبــات . وبهذا أصبح الرجل خاضعا لهوى المرأة ، مضطرا للبحث عن وســائل التقرب اليها ، كى تسمح له بأن يمارس حق الجانب الأقوى .

وأمتع ما يتمتع به الرجل فى نشوة انتصاره هو ذلك الشك اللطيف ، فهو لا يعلم عن يقين هل الضعف هو الذى استسلم للقوة ، أم أن ذلك الاستسلام جاء عن ارادة وطواعية .

ودهاء المرأة المعهود يجعلها تترك ذلك الشك قائما على الدوام بينها وبين رجلها . وذكاء النساء متفق فى ذلك تمام الاتفــاق مع تكوينهن الجنسى . فلا يعرفن حمرة الخجل من ضعفهن ، بل يفاخرن به . وعضلاتهن الرخصة لا تعرف المقاومة . وهن يتصنعن العجز عن رفع أخف الأثقال .

ويتملكهن الخزى من الظهور بمظهر القوة . لمــاذا ؟ ليس ذلك كى يظهرن بمظهر الرقة فحسب ، بل لمأرب أبعد من هذا . فهن يمهدن بذلك لأنفسهن العذر والحق فى الضعف عند الحاجة اليه لخطة الاستسلام ! .

تأمل كيف قادتنا دراسة البدن الى مجال الأخلاق ونحن لا ندرى . ومن غلاظة الاتصال الجنسى تتولد شيئا فشيئا أرق قــوانين الحب . فسلطان النساء ليس وليد ارادة الرجال . بل هو وليد ارادة الطبيعــة التى هكذا رتبت الأمور . فهذا شمشون لم يكن على قوته فى مثل قوة دليلة فسلطان المرأة لها بحكم الطبيعة ولا يمكن انتزاعه مهما أساءت استخدامه . فلو كانت اســاءة الاستخدام لتلك السلطة كافية لسلبها أو فقدانها ، لكانت المرأة فقــدت سلطانها على الرجل من أمد بعيد .

وليس ما بين الجنسين من تقابل رهينا بفترات معينة . لأن الذكر ليس ذكرا الا فى بعض اللحظات . أما الأنثى فهى أنثى طوال حياتها ، أو على الأقل طوال مدة شبابها . فكل شيء يدعوها باستمرار الى تذكر جنسها كى تحسن القيام بوظائفه . ويجب أن يكون لها تركيب ملائم لذلك .

يجب أن يكون لديها حق الراحة مدة الحمل ، وحق الراحة مدة الوضع . ويجب أن تكون حياتها رخية هينة لترضع أطفالها . ويجب كذلك أن تتوفر لديها لتربيتهم مزايا الصبر والحنان والهمة والعاطفة التى لا يغلها شيء فهى صلة الوصل بين الأطفال وأبيهم . وهى وحدها التى تجعله يحبهم وتحمله على الثقة فى انتسابهم اليه . وياله من حنان ويالها من مهمة تلك التى تناط بالمرأة كى تربط الأسرة كلها برباط من الوحدة ! .

ويجب ألا يكون ذلك عن خلق وفضيلة بل عن ميل وطبع . فان الطبع بالزامه هو الذى يحمى النوع البشرى من انقراض وشيك لو ترك الأمر للخلق الاختيارى .

وحينما تشكى المرأة من غبن عدم المساواة فى الوضع الذى وضعها فيه الرجل ، فهى مخطئة . فعدم المساواة هذا ليس نظاما بشريا ، أو على الأقل ليس وليد الأهواء بل هو وليد العقل . فعلى الجنس الذى جعلته الطبيعة مستودعا للأطفال أن يكون مسئولا عنهم أمام الجنس الآخر . ولا شك أنه لا يباح لانسان أن يخفر ذمته . وكل زوج خائن يحرم زوجته من ثمرة واجبات جنسها المرهقة يكون رجلا غاشما متوحشا . أما المرأة الخائنة فجرمها أشد ، لأنها تحطم الأسرة وتقطع جميع روابط الطبيعة . فهى حين تعطى الرجل أطفالا من غير صلبه تخون أكثر من طرف وتشفع الخيانة بالخديعة .

ولئن كان هناك موقف بشع فى الحياة فهو موقف أب مسكين

محروم من الثقة فى زوجته ، فلا يجسر على اطلاق العنان لعواطف قلبه نحو بنيه . ويساوره الشك وهو يقبلهم خيفة أن يقبل ذرية رجل آخر هو دليل عرضه المثلوم . وماذا تكون الأسرة ان لم تكن بهذا الوضع سوى مجموعة من أعداء مقنعين تسلح المرأة الخائنة أحدهم ضد الآخر وهى تجبرهم على تصنع المحبة والتعاطف ؟ .

فليس مهما اذن أن تكون المرأة أمينة فحسب ، بل يجب أن يحكم زوجها بأمانتها ، وأن يحكم بذلك جميع الناس أيضا . ومن المهم أن تكون ذات حياء وتحفظ ، وأن تحمل بمسلكها الشاهد الأعظم على عفتها .

ولئن كان من الجوهرى أن يحب الأب أطفاله ، فمن الجوهرى أيضا أن يحترم أمهم . وهذه هى الأسباب التى تجعل مظهر المرأة فى المحل الأول بين واجبات المرأة . وتجعل سمعة الشرف لا تقل أهمية عن الطهارة .

ويترتب على هذه المبادىء اختلاف اخلاق الجنسين . ويترتب كذلك حافز جديد للواجب وللسلوك ، يفرض على المرأة خصوصا الحذر التام والتدقيق فى السلوك والحركات .

ان القول العائم المائع بتساوى الجنسين فى الواجبات انما هو تشدق بشعارات جوفاء . وستظل هذه الدعاوى جوفاء ما لم تجد ردا على ما ذكرناه آنفا .

وقد يقال ان النساء لا يحملن الأطفال فى جميع الأوقات وهذا حق ، بيد أن مصيرهن محدد بذلك الهدف . فهذا هو غرض وجودهن . والشذوذ هو حالة نساء المدن اللواتى يرخصن لأنفسهن التقليل من انجاب الأطفال . ولكن يعوض هذا النقص اخلاص نساء الريف لفطرتهن فى الخصوبة ومعيشتهن فى حدود الطهارة والبساطة. فيعوضن بذلك عن عقم نساء المدن .

ان اطالة الفترة بين الحملين تفقد المرأة ألفة الحمل ، فحين تعود اليه تقدم على مغامرة بدنية . وهل تريدونها أن تكون اليوم مرضعةوغدا جندية محاربة ؟ وهل يمكن أن تغير طبعها ومزاجها فى الحالين كما تغير الحرباء لونها ؟ وهل فى وسعها أن تكون تارة حانية وتارة ضارية ؟ أن تكون طورا خائفة وجلة . وطورا مهاجمة مقتحمة ؟ .

هناك أقاليم تلد فيها النساء من غير عناء تقريبا . ويرضعن أطفالهن من غير جهد . وأنا أقر بذلك . ولكن الرجال فى تلك الأقاليم بعينها يمشون نصف عراة طول الوقت ، وينصبون الفخاخ للحيوانات المفترسة، ويحملون الزوارق فوق أكتافهم بغير عناء ، وينامون فى العراء ويقضون جملة أيام بغير طعام . فلئن كانت النساء قويات الأجسام ، فان الرجال أشد أيضا وأقوى . أما عندما يجنح الرجال للرخاوة ، فالنساء لابد أن يكن للرخاوة أشد جنوحا . وبذلك يبقى الفارق النسبى بين الجنسين محفوظا لا يختل .

ان أفلاطون فى جمهوريته يفرض على النساء تمرينات الرجال بعينها. وهذا حق . فقد ألغى فى دولته الأسرات الخاصة . فلم يعد يدرى ماذا يصنع بالنساء . ووجد نفسه مكرها على أن يجعل منهن رجالا ! .

واعتراضى ينصب على خنقه لأرق العواطف الطبيعية ، مضحيا بها فى سبيل عاطفة مصطنعة لا يمكن أن تبقى الا على أساس مستمد من العواطف الطبيعية التى خنقت . وكأنى به يتجاهل أن حب الأهل والأقارب هو مبدأ حب الفرد للدولة . وأن قلب الانسان يتعلق بالوطن الكبير عن طريق تعلقه بالوطن الأصغر وهو الأسرة ! وينسى أن الأبن الصالح وان الزوج الصالح وأن الأب الصالح هم بعينهم من يصنعون المواطن الصالح أو يكونونه ! .

ومن حيث أنه ثبت أن الرجل والمرأة ما كان ينبغى لهما تكوين

واحد . ولا خلق واحد . ولا مزاج واحد . يترتب على هذا أنه لا ينبغى لهما تربية واحدة .

واذا اتبعنا توجيهات الطبيعة ،وجدنا أن الرجل والمرأة يجب أن يكون بينهما توافق وتناسق ، ولكن يجب ألا تناط بهما أمور واحدة وأعمال واحدة . أجل ان الغاية من أعمالهما مشتركة . ولكن الأعمال نفسها متباينة . وبالتالي تكون متباينة كذلك الأذواق والطباع التى توجه تلك الأعمال .

أما وقد حاولنا أن نكون الرجل الطبيعى فى شخص « اميل » فيجب كى لا ندع عملنا ناقصا ، أن ننظر كيف ينبغى أن تتكون أيضا المرأة التى تلائم هذا الرجل .

ان كنت تريد حسن التوجيه على الدوام ، فاتبع ارشادات الطبيعة . وكل ما يتميز به الجنس يجب أن يكون موضع الاحترام باعتباره من مقررات الطبيعة .

كثيرا ما يقال :

— ان النساء فيهن هذا العيب أو ذاك مما ليس لدينا .

والواقع أن غرورنا نحن الرجال يخدعنا فى هذا المقام . فان العيب الذى فى نظرنا انما هو مزية بالنسبة اليهن . وكانت الأمور تمضى بصورة أسوأ لو لم تكن فى النساء تلك التى نسميها عيوبا . فعلينا أن نمنع تلك العيوب المزعومة من الاندثار . ونحول دون تلاشيها .

والنساء من جانبهن لا يكففن عن الصياح بأننا نربيهن كى ينشأن تافهات مغرورات خليعات . وأننا نسليهن على الدوام بألاعيب طفلية كى نظل سادتهن . وبهذا يرميننا بتبعة عيوب ننعاها عليهن .

ويا لها حماقة ! . ومنذ متى كان الرجال هم القائمين على تربية

الفتيات ؟ ومن ذا الذى يمنع الأمهات من تربيتهن على النحـو الذى يتراءى لهن ؟

ترى هل أرغم أحد بناتكن أيها الأمهات على تمضية نصف أعمارهن فى التزين كما تصنعن أنتن ؟ .

ترى هل منعكن أحـد من تعليم بناتكن أو توجيـه تعليمهن على هواكن ؟ .

ترى هل الذنب ذنبنا اذا رقن لنا ان كن جميلات ، أو استهوتنا ألاعيبهن التى يتعلمن فنونها منكن ؟ .

هيا قمن على تربيتهن كالرجال . وسيطعنكم عن طيب خاطر . وكلما أشبهت الفتاة الرجـل قل سلطانها عليه . وعنـدئذ يغدو الرجال هم السادة عليهن حقا ، لا فى الظاهر فحسب .

ان جميع الملكات المشتركات بين الجنسين ليست موزعة بينهما على السواء . ولكنها تتكامل هنا وهناك . فالمرأة أكمل فى خصائص المرأة منها فى خصائص الرجل . وكلما حاولت سلب خصائصنا تخلفت وراءنا فيها . وليس لهذه القاعدة غير شواذ قليلة يسوقها دائمـا فى حججهم أنصار الجنس اللطيف .

ان تنمية خواص الرجل لدى المرأة واهمال خواصها الأصلية خليق أن يضر بالمرأة ضررا واضحا . والماكرات من النساء لا يفوتهن هـذا المغزى . فيجتهدن وهن يحاولن سلب مزايانا ، أن يحافظن على مزاياهن الأنثوية الخاصة . الا أن هذا المجهود المزدوج يثقل عليهن لتباين الجانبين. فيتخلفن فى ميدانهن النسوى كما يتخلفن فى ميداننا . وتفوتهن بذلك الحسنيان .

صدقينى أيتها الأم الحصيفة . لا تجعلى من ابنتك رجلا . فان هـذا يكون منك بمثابة تكذيب للطبيعة التى خلقتها امرأة . بل اجعليها امرأة صالحة أمينة وثقى أنها ستكون بذلك أصلح لنفسها ولنا .

هل يترتب على ذلك أنها ينبغى أن تربى جاهلة بكل شىء ، حبيسة أعمال تدبير المنزل وحدها ؟ .

هل سيجعل منها الرجل خادما له أكثر من اتخاذه لها شريكة ؟ هل سيحرم بالقرب منها من أعظم مناعم الصحبة والمشاركة ؟ وهل سيتذرع الرجل لاسترقاقها بمنعها من كل احساس ومن كل معرفة ؟ .

كلا ! ولا مراء . فما بهذا قالت الطبيعة حين أعطت النساء ذهنا لماحا مرنا . بل أرادت الطبيعة بتلك المنحة عكس ذلك تماما . أرادت أن تفكر النساء ويحسن الحكم على الأمور ويحببن ويعرفن . وأن يجملن عقلهن كما يجملن ظاهرهن وهيئتهن . فهذا هو السلاح الذى منحته الطبيعة للنساء ليعوضهن عن القوة البدنية التى تنقصهن ، ولكى يواجهن به قوتنا .

ينبغى أن تتعلم النساء أمورا كثيرة جدا . وكل ما هنالك أن يقتصر تعلمهن على تلك الأمور التى يليق بهن معرفتها .

وسواء نظرت الى الغاية الخاصة للجنس ، أو نظرت الى ميول الجنس ، أو نظرت الى واجبات المرأة ، فكل ذلك يعين على ارشادى الى صورة التربية التى تلائم المرأة .

ان المرأة والرجل قد جعل كل منهما للآخر . ولكن تبعية كل منهما للآخر ليست متكافئة . فالرجال يتبعون النساء عن طريق رغباتهم . أما النساء فيتبعن الرجال عن طريقين : من طريق رغباتهن ومن طريق حاجاتهن . فنحن الرجال أقرب الى القدرة على البقاء بدونهن منهن على البقاء بدوننا . فلكى يحصلن على الضرورى للمعيشة وللمظهر الاجتماعى ، يجب أن نعطيهن نحن هذا الضرورى ، وأن نراهن جديرات بذلك . وهن كذلك خاضعات لعواطفنا ولتقديرنا لمحاسنهن الجسدية وفضائلهن الخلقية .

وقد شاء قانون الطبيعة نفسه أن تكون النساء تحت رحمة آراء

الرجال فيما يخصهن وفيما يخص أبناءهن . فلا يكفى أن يكن جميلات ، بل يجب أن يرقن للرجال بجمالهن . ولا يكفى أن يكن حكيمات ، بل يجب أن يعترف لهن الرجال بالحكمة . ولا يكفى أن يكون لهن شرف السلوك ، بل يجب أيضا أن يكون لهن شرف السمعة . فمن الممتنع أن تكون امرأة فاضلة تلك التى تسمح للريبة أن تغشاها .

أما الرجل فلا يخضع الا لذات نفسه وبوسعه أن يتحدى الرأى العام . وما كذلك المرأة . ويترتب على ذلك أن نظام تربيتها يجب أن يكون من هذه الوجهة نقيض نظام تربيتنا . فالرأى العام هو مقبرة الفضيلة بين الرجال ولكنه تاج الفضيلة بين النساء ! .

* * *

ان تكوين الأطفال يتوقف على حسن تكوين الأمهات . فعناية النساء هى الأساس الذى تقوم عليه التربية الأولى للرجال . وعلى النساء كذلك تتوقف أخلاق الرجال وعواطفهم وأذواقهم وطباعهم ومسراتهم ولذاتهم بل وسعادتهم نفسها .

ولهذا يجب أن تكون تربية النساء برمتها مرتبطة بالرجال . فان واجبات النساء فى جميع الأزمان هى ارضاء الرجال ونفعهم وتحرى محبتهم وتكريمهم ، وتربيتهم صغارا ورعايتهم كبارا ، وارشادهم بالمشورة والتسرية عنهم وتهوين الحياة عليهم .

وهذه الواجبات هى مايجب تلقينه للنساء منذ طفولتهن الأولى .وكلما ابتعدنا عن هذا المبدأ انحرفنا عن هدف تربيتهن . وذلك يعنى أن كل ما يلقن لهن لن يجدى عليهن فى جلب السعادة لهن ولنا .

ومع أن كل امرأة تريد الظفر باعجاب الرجال وينبغى أن تريد ذلك ، فهناك فرق جسيم بين الرغبة فى الظفر باعجاب رجل فاضل ممتاز حقا ، وبين الرغبة فى الظفر باعجاب هؤلاء الأحلاس من التافهين الذين يشينون جنسهم والجنس الآخر الذى يحاكونه بتخنثهم .

فلا الطبيعة ولا العقل يمكن أن يحملا المرأة على حب من يشبهونها من الرجال ، ولا ينبغى أن تتعلم طريقتهم فى السلوك رغبة فى الحصول على حبهم .

ان الفتيات الصغيرات يملن الى الزينة منذ ولادتهن تقريبا . فلا يكفيهن أن يكن جميلات . بل يردن أن يجدهن الناس كذلك . ونلاحظ فى سلوكهن الغض أن هذه الغاية تشغلهن منذ البداية . ومتى استطعن فهم ما يقال لهن يسهل توجيههن عن طريق اثارة اهتمامهن بما يقال عنهن . فى حين أن هذه الطريقة لا تؤثر فى صغار الغلمان مثل هذا التأثير . لأن الصبيان لا يهتمون كثيرا برأى الناس فيهم ما داموا مستمتعين بما يفعلون . ولن يقيموا وزنا لحكم الناس عليهم الا بمرور الوقت وبتكرر العناء .

ومهما يكن مصدر هذا الدرس الأول أو سببه فهو درس نافع . فزينة الجسم مطلوبة والجسم يولد كما يقولون قبل ولادة النفس . فأول تهذيب يجب أن يكون تهذيب الجسم . وهذا الترتيب مشترك بين الجنسين . بيد أن موضوع التربية البدنية مختلف فى الجنسين . فتربية بدن الرجل غايته زيادة القوة . أما تربية بدن المرأة فغايته زيادة الرونق . ولكن ذلك لا يعنى أن تخلو تربية بدن الرجل من الرونق تماما أو أن تخلو تربية بدن المرأة من القوة تماما . اذ ينبغى أن يكون للمرأة نصيب من القوة يتيح لها القيام بأعمالها ومهامها فى رشاقة . ويجب أن يكون للرجل نصيب من الرشاقة يتيح له القيام بمهامه فى يسر .

ان افراط المرأة فى الرخاوة يسبب رخاوة الرجال . فالنساء ينبغى أن تكون فيهن قوة لا تساوى قوة الرجل ولكنها تكفى لانجاب رجال فيهم قوة . ولهذا السبب تفضل تربية الأديرة ومدارس البنات الداخلية تربية البيوت . فهناك الطعام الخشن والألعاب فى الهواء الطلق والحدائق

متنوعة . أما فى البيوت فالنعومة والترف والاخلاد للراحة داخل الحجرات المغلقة مما يورث الرخاوة المتناهية . ويؤدى لانحلال الفتيات وضعف ذراريهن . وبذلك يتطرق الفساد الى أجساد الشباب والى قلوبهم .

لقد كانت الفتيات فى اسبرطة يمارسن التمرينات العسكرية شأنهن فى ذلك شأن الفتيان . لا ليذهبن الى القتال بل ليحملن يوما ما أطفالا جديرين بحمل الأعباء وتحمل المتاعب والعناء .

وليس هذا ما أنادي به . اذ ليس من الضرورى لانجاب جنود للدولة أن تكون أمهاتهم قد حملن من قبل البنادق وتدربن على الطريقة البروسية . بيد أنى أجد التربية الاغريقية على العموم مستنيرة من هذه الناحية . فكانت الفتيات يظهرن فى المجامع العامة ، لا مختلطات بالفتيان بل متجمعات فيما بينهن . فكان من النادر أن يمر احتفال أو عيد أو تقديم قربان لا تبرز فيه مجموعات الفتيات من أبناء عيون المواطنين متوجات بالأزهار مرتلات الأناشيد هازجات بأنغام الرقص ، حاملات السلال والزهريات والقرابين مما يبهر الأنظار ويبهج النفوس .

ومتى تزوجت الفتاة كفت عن الظهور فى المحافل العامة وأغلق عليها باب دارها ، وقصرت جهودها على تدبير بيتها ورعاية أسرتها .

وهذه هى الطريقة التى توحى بها الطبيعة والعقل معا فى شئون الجنس. ومن تلك الأمهات ولد رجال هم أصح الرجال أبدانا ، وأقواهم أجساما، وأجملهم قواما على ظهر الأرض . واذا استثنينا سوء السمعة الذى اختصت به جوار معينة ، فلن نجد أمة من أمم العالم بغير استثناء الرومان كانت نساؤها مثل نساء الأغريق الاقدمين حكمة واتزانا ولطفا وصيانة تجمع بين الخلق والجمال .

ومن المعلوم أن ثياب الاغريق المريحة التى لا تعوق حرية البدن لها

ضلع فى اتاحة هذا التناسق الرائع للأجسام فى الجنسين على نحو ما نشاهده فيما خلفوه لنا من تماثيل لم تزل نموذجا للفن ، بعد أن شوهنا نحن الطبيعة فلم يعد بين أحيائنا من يصلح نموذجا حيا .

لقد كانت نساء الاغريق يجهلن أنواع المشدات التى ترهق بها نساؤنا خصورهن طلبا للرهافة . ولا شك أن الافراط فى هذا الحجر على جسم المرأة سيؤدى لانحلال النوع واضمحلال السلالة . ومن فساد الذوق المبالغة فى دقة الخصر كأنما المرأة توشك أن تشطر شطرين . فان لكل شيء مداه المعقول وتناسقه الذى ان جرن عليه صار عيبا لا شك فيه . وهذه المبالغة فى دقة الخصر تكون عيبا فى جسم عار ، فكيف تكون جمالا تحت الثياب ؟ .

ومما لا شك فيه أن هناك مبررات لاستخدام المشدات ، كأن يكون الثدى متهدلا ، أو البطن متضخما ، الخ ... فكل ذلك منفر . ولا سيما فى امرأة فى العشرين من عمرها مثلا . ولكنه ينبغى ألا يدهشنا فى امرأة بلغت الثلاثين . ويجب على كل حال أن تكون أذواقنا مسايرة للطبيعة. والعيوب مهما تكن السن أقل ازعاجا للذوق من تصنع الرشاقة ، حتى أن بنت الأربعين تتظاهر أن لها رشاقة فتاة يافعة ! .

ان كل ما يناقض الطبيعة أو يعارضها ينم عن ذوق فاسد . وهذا ينطبق على زينة الجسم كما ينطبق على حلية النفس . فالحياة والصحة والعقل والراحة يجب أن يكون لها المكان الأول . والرشاقة لا يمكن أن توجد بدون الارتياح . والرقة لا تعنى الشحوب والهزال . فلا ينبغى أن تكون المرأة عليلة كى تحوز الاعجاب . اذ أنها تثير الشفقة . فى حين أن الرغبة لا تثيرها الا النضارة والصحة .

ان الأطفال من الجنسين لديهم ألعاب كثيرة مشتركة . ولكن حينما يكبرون تتمايز الأذواق والملاهى . فالفتيان ينشدون فى لهوهم الحركة والضجة ، كألعاب الطبل والأسلحة والمركبات . أما الفتيات فيفضلن كل

ما يزيد جمالهن . فينشدن فى ملاهيهن المرايا والحلى والشرائط والدمى. فالدمية على الخصوص هى الألعوبة المفضلة لجنس المرأة . وهذا يدل بداهة على تأثير الغاية الجنسية فى تكوين الذوق والميل .

أنظر الى فتاة صغيرة تجدها تقضى نهارها حافلة بدميتها تنمق هندامها. تبدل ثيابها مائة مرة من غير أن تمل . وتتفنن فى تزيينها بطرق مبتكرة تتفاوت فى النجاح أو سوء الاختيار . فليس هذا هو المهم . ولئن كانت الاصابع تنقصها المهارة . والذوق ينقصه التكوين الا أن الميل الفطرى واضح للغاية .

وفى هذه المشغلة ينقضى وقت الطفلة وهى لا تحس بمروره . وتمر الساعات وهى لا تدرى . حتى انها قد تنسى طعامها . ذلك أن جوعها الى الزينة أقوى وأشد من جوعها الى ألوان الغذاء .

وقد تعترض بأنها تزين دميتها لا شخصها . وهذا حق لأنها ترى دميتها ولا ترى شخصها . فهى لا تستطيع الآن لشخصها شيئا .وتكوينها الشخصى لم يتم . وذوقها وموهبتها وقدرتها لم تنضج . ولهذا فهى تصرف كل خلاعتها وتبرجها الى دميتها .ولكن ذلك أمر موقوت .انتظارا منها للحظة تغدو فيها دمية نفسها .

هاكم اذن ذوق الفتاة الأول واضح المعالم . وليس عليكم الا تتبعه وتنظيمه . فمن المؤكد أن الصغيرة تريد من كل قلبها أن تتعلم كيف تزين دميتها ، وتحذق جميع فنون التنسيق والتنميق وأسرار ارتداء الثياب النسوية الأنيقة . ومن التقصير أن تنشأ الفتاة جاهلة بذلك كله فتكون عالة مستقبلا على المواشط والخياطات والوصيفات وتحت رحمتهن . فاستغلال الذوق الأول للطفلة ومساعدتها على حذق تلك الفنون فى دميتها خدمة كبرى لمستقبلها ، فى قالب لهو لا فى قالب تكليف .

ان كل الفتيات تقريبا يجدن غضاضة وعناء فى تعلم القراءة والكتابة.

أما أشغال الابرة فانهن يتعلمنها عن طيب خاطر دائما . لأنهن منذ الطفولة يتخيلن أنفسهن كبيرات ، ولأن هذا الفن يساعدهن على اتقان التزين والأناقة .

ان هـذا الطريق الأول الممهد من السهل جدا السير فيه بحيث تأتى دروس الحياكة والتطريز والمخرمات (الدانتيلا) من تلقاء نفسها . أما أعمال الطنافس لتزيين الأثاث فليس هذا دورها . لأن الفتاة الصغيرة مهتمة بشخصها . ولا تهتم بأثاث البيت الا حين تنضج أنوثتها . فمن الصعب اثارة اهتمام الصغيرات بتطريز الطنافس .

وهذا التدرج الاختيارى التلقائى ينتهى بسهولة الى فن الرسم. فليس الرسم غريبا عن أناقة الملبس والزينة . ولست أعنى الرسم من حيث هو فن شامل يحاكى الطبيعة . بل أقصد أنواع الرسم المتصلة مباشرة بزينة الثياب والأناقة ، بحيث تستطيع الفتاة أن تنهض يوما بتصميم زينة ثيابها بنفسها ان لم تجد نموذجا تحت يدها .

ومهما قال المازحون والمتملقون فان البداهة السديدة مقسومة على السواسية بين الجنسين . فالفتيات على العموم أسلس قيادا من الفتيان . وينبغى سياستهن بمزيد من السلطة كما سأبين فيما بعد . ولكن ليس معنى هذا أننا ينبغى أن نطالبهن بشىء لا يقتنعن بمنفعته لهن . وحذق الأمهات يقوم على توضيح منفعتهن فى كل ما يطالبنهن به .وهذا ميسور لأن الذكاء لدى الفتيات أسرع الى التيقظ مما لدى الفتيان .

وهذه القاعدة ترفع عن كاهل جنسهن كما ترفع عن كاهلنا جميع الدراسات الطفيلية التى لا خير فيها ولا تجعلهن أحظى لدى الناس . وكذلك تعفيهن من جميع الدراسات التى لا تدرك منفعتها فى مرحلة الطفولة ، ويكون أوانها حين تتقدم بهن السن شيئا ما ويتهيأن لادراك مدى جدواها .

ولئن كنت آنادى بعدم اجبار الفتى على تعلم القراءة . فمن باب أولى أنادى بعدم اكراه الفتاة على ذلك قبل أن تقتنع وتحس بما للقراءة من نفع لديها . ثم ما وجه الضرورة فى تعليم الفتاة القراءة والكتابة فى سن مبكرة ؟ .

ما أكثر من يسئن استخدام تلك المعرفة . وما أكثر من يجبرن على تعلمها اجبارا غاشما لعدم ميلهن اليها . وكلهن مع ذلك سيظهر لديهن الميل لتعلمها لو تركن لشأنهن حتى الأوان المناسب .

أما تعلم الحساب فقد يكون ألزم للفتاة من تعلم الكتابة والقراءة لحاجتها الى ذلك الفن قبل حاجتها الى القراءة والكتابة . واذا رفضنا أن نعطى الصغيرة الفاكهة الا جزاء على عملية حسابية شفوية بسيطة ، فسرعان ما تتعلم الحساب .

وأعرف فتاة صغيرة تعلمت الكتابة قبل القراءة . وبدأت تكتب بخيوط الابرة قبل أن تكتب بالقلم . واستعملت اشكال الحروف فى التطريز .

ولست أنادى بالفراغ للفتيات . بل أنادى دائما بشغلهن ولكن بمشاغل توافق ميولهن . أما الفراغ فهو أخطر رذيلة تتعرض لها الفتاة وهو عادة يصعب اقتلاعها متى رسخت فى الصغر .

ان الفتيات يجب أن يكن نشطات دائبات على العمل . فليس أفضل من الفتاة الصناع .

ويجب تعويدها من الصغر على تحمل الضيق والمتاعب وكبت نزواتها. فهذا هو ترويض رغائبها بل وارادتها على الخضوع لارادة سواها . ولهذا يجب بين الحين والحين منع الفتاة من العمل وهى أشد ما تكون رغبة فيه وارغامها على البقاء ساكنة فترة ما . حتى يتلاشى لديها جموح الرغبة ويمحى هذا الدلال الذى يفسد أخلاق النساء . فان الانحلال

النسوى مرجعه الأول الى هذا التدلل . والفتاة المدللة لا تعرف كيف تكبح نفسها . ومن هنا الخطر . فان حياة المرأة الفاضلة هى حياة صراع متصل ضد نفسها .

وينبغى أيضا أن يكون السأم ممزوجا باللهو فى ألعابها حتى لا ينقلب اللهو موضوعا للشهوة . ومن المشاهد أن المسرات المسموح بها للفتيات تكون فرصة لأندفاعهن فيها . ولهذا نلاحظ أن ألعاب الفتيات المحدودة تمارس باندفاع أشد من اندفاع الفتيان فى ألعابهم . فيجب وضع حد لهذا الاندفاع لأنه يشكل اخلاقها وطبعها تشكيلا جامحا .. ينتقل عند غيرها من مجال اللهو واللعب الى مجالات أشد خطرا وأبعد فى حياتها وحياتنا أثرا .

ويجب كذلك وضع حد لتقلب ذوق الفتاة فى ملاهيها . فان هذا التقلب هو الأساس الأول لطباع الخفة والنزق التى تعاب على المرأة عندما تكبر . ومتى تعودت ذلك فى صغرها وأرخينا لها العنان ، فمن العسير جدا ردعها عن هذا الخلق فيما بعد . ولست أنادى بقتل المرح فى الصغيرة وخنق الضحك والمعابثة البريئة فى ألعابها . بل أنادي بالحيلولة دون سرعة عزوفها عن ملهى لاندفاعها الى ملهى سواه . فان سرعة السأم بعد سرعة الاقبال هى الجموح الذى ينبغى أن نعد له اللجم .

عودوهن على تلقى الأمر بالكف عن ملهى وهن فى ذروة النشوة به لينصرفن فورا الى مهمة مختلفة عنه تماما ، من غير تردد ومن غير تذمر . وتكوين هذه العادة ترياق كاف للنزق والذبذبة . فان العادة طبيعة ثانية . وهذه العادة بالذات سند مساعد للطبيعة .

وخليق أن ينجم عن هذا الضغط والتعود عليه نوع من الدماثة التى ستحتاج اليها المرأة طوال حياتها . فانها لا تنى خاضعة اما لرجل ، أو

لأحكام الناس ، وليس مسموحا لها أن تتعالى على سلطان تلك الأحكام.

ان الرقة هى أول وأهم مزايا المرأة . فقد خلقت المرأة لاطاعة كائن ناقص هو الرجل . وكثيرا ما يكون طافحا بالرذائل ، ودائما ما يكون حافلا بالعيوب . فيجب أن تتعلم منذ البداية كيف تخضع للغبن والظلم ، وكيف تتحمل أخطاء زوجها بغير تذمر . فمن أجلها هى لا من أجله يجب أن تربى على الرقة والدماثة ! .

ان حدة الطبع والعناد فى المرأة يزيدان دواما من شرور الأزواج وشذوذ طبعهم . لأن الأزواج يشعرون أنه ما بهذا السلاح ينبغى قهرهم. وما خلقت السماء المرأة ضعيفة كى تتحكم . ولا خلقتها رقيقة الملامح كى تشوهها بالغضب . فعندما تغضب المرأة تنسى نفسها ، وقد تكون على حق فى التذمر والشكوى . ولكن لا حق لها فى اللوم والتقريع ، فكل جنس ينبغى أن يحتفظ بطابعه الخاص .

فالزوج الرقيق أكثر مما يجب قد يجعل المرأة وقاحا . ومهما يكن الزوج وحشا ضاريا فان رقة المرأة ودماثتها تردانه الى سواء السبيل ان عاجلا أو آجلا .

* * *

ينبغى أن تكون الفتاة على الدوام ممتثلة خاضعة . ولكن ليس معنى هذا أن تكون الأمهات على الدوام خاليات من الرحمة بهن . فليس من الضرورى لتعويد الفتاة الامتثال أن نشقيها . وليس من الضرورى كى نعلمها خفض الجناح أن نقسو عليها دائما . بل انى على العكس من ذلك لا أمانع فى أن ندع للفتاة فرصة استخدام شىء من الحيلة لا للروغان من العقاب حين تشق عصا الطاعة ، بل للافلات من واجب الطاعة . فليس الموضوع متعلقا بتكريه وضعها الى نفسها وتنغيص احساسها بالتبعية . بل يكفى أن نجعلها تحس تبعيتها مجرد الاحساس وتروض نفسها عليها .

ان المكر أو الحيلة موهبة طبيعية من مواهب الجنس ولاسيما جنس المرأة . وانى مؤمن بأن جميع الميول الطبيعية طيبة ومستقيمة بذاتهـا . ولذا أرى أن تنمى موهبة الدهاء الطبيعية كما تنمى سائر المواهب الأخرى. وكل ما علينا هو الحذر من سوء استخدامها .

وأستشهد على صحة هذا الرأى كل من له فطنة . ولا أقصد امتحان النساء أنفسهن فى تلك الملكة . بل أقصد امتحان الفتيـات الصغيرات اللواتى لم تشحذ قريحتهن تجـربة الأيام . ولنقـارن دهاءهن بدهاء أندادهن من الغلمان . وسترى كيف يبدو الغلمان أغبياء ثقـال الفهم غلاظ الحس ، وسأورد مثلا واحدا غاية فى السذاجة يكفى للدلالة على الفارق .

من المعروف والشائع جدا أن يحرم على الأطفال طلب شيء وهم على مائدة الطعام . فلو فرض أننا طبقنا ذلك على غلام صغير . لضـاق ذرعا وصرخ قائلا انه جائع ولابد له من الألوان التى حرمت عليه . وهذا تصرف مستقيم لا دهاء فيه .

أما اذا أصدرنا ذلك التحريم الى فتاة صغيرة .فانها تتحايل على خرق القاعدة من غير أن تعرض نفسها للعقاب . وهاكم ما حدث أمامى . فقد رأيتها تأكل من الألوان التى قدمت اليها . أما اللون الذى لم يقدم اليها وكان أفخر الألوان وأشهاها الى نفسها . فقد جعلت تنظر اليه بحسرة ولا تتكلم . ثم اذا بها تمد أصبعها الصغيرة برشاقة محببة وتشير الى الأطباق واحدا تلو الآخر ، وهى تستعرضها قائلة :

ـــ أكلت من هذا . وأكلت من هذا .

ثم تصنعت بصورة واضحة أن تمر باصبعها ببطء على الطبق المحرم من غير أن تقول شيئا . فسألها احدهم :

ـــ ومن هذا ألم تأكلى ؟ .

فغضبت جفنيها بدلال وتنهدت قائلة :

— أوه . كلا للأسف .

وهذا منتهى الدهاء فى الوصول الى التـذكير والطلب مـن غير استخدام صيغة الطلب .

وهذه المهارة الخاصة المتاحة لجنس المرأة انما هى تعويض عادل جدا عن القوة التى حرمت منها . وبدون هذه المهارة ما كانت المرأة لتصلح شريكة للرجل . بل كانت تغدو أمته . فان المرأة بهذا التفوق فى موهبة الدهاء تتمكن من حفظ مركزها ندا له ، بل وتحكمه من حيث تطيعه .

ان المرأة فى وضع جائر . فهى فى مواجهة أشياء كثيرة تناهضها . منها عيوبنا وخجلها وضعفها . وليس لها من سلاح ازاء ذلك الا حيلتها وجمالها . أليس من العدل اذن أن تتعهد بالنمو هذين الأمرين معا . ؟ الا أن الجمال ليس حظا مشاعا بين النساء . وقد يذهب بسبب عارض ، أو يذوى بفعل السنين ، أو تقضى على جدته وتأثيره العادة المألوفة . أما القريحة وحدها فهى السند الحقيقى لجنس المرأة . ولست أعنى بالقريحة الوقادة تلك الأساليب التى شاعت فى الأوساط الراقية والتى لاتعين على تحصيل السعادة فى الحياة . بل أعنى سعة الحيلة التى تساعد المرأة على تحسين ظروفها وتحسين ظروفنـا وسلوكنا فى الوقت نفسـه . بحسن التوجيه واستثارة المزايا .

وليس هناك مدى لجدوى هذا الدهاء النسوى علينا . فان المرأة تضفى سحرا بهذا الدهاء اللطيف على حياتنا وصلتنا بها . كما تستخدمه فى روح نزق الأطفال وكبح جماح الأزواج ذوى الفظاظة . ولولا حسن حيلتها وكياستها لتبدد شمل الأسرة .

ولست امارى فى أن النساء المتكلفات الخبيثات يسئن استخدام الدهاء . ولكن أى شىء تعف الرذيلة عن مسخه واساءة استغلاله ؟ فلا

ينبغى اذن أن نقضى على أدوات السعادة وندمرها خشية أن يستخدمها الخبثاء والأشرار أحيانا فى الاساءة والاضرار .

* * *

وأما الزينة فانها قد تلفت الأنظار وتبهرها . بيد أن الشخصية هى التى تظفر بالاعجاب . ومن الأسف أن تربية الفتيات الصغيرات فى هذا الصدد تتردى فى خطل مبين . فكثيرا ما نغرى الصغيرات على الطاعة بأن نعدهن بالحلى . ونحملهن على حب أفانين الزينة المغالى فيها . فنقول للفتاة حين تفرط فى التزين :

— ألا ما أجملها وأحلاها ! .

مع أننا كان ينبغى على العكس أن نفهمها أن كل هذا التزين لا يمكن أن تنشده المرأة الا لستر عيوب فيها . اما الجمال الحقيقى فيزدهى بذاته وحدها .

ان حب الموضة من فساد الذوق . لأن الوجـوه لا تتغير بتغير الموضات . وما يلائم الوجه مرة ينبغى أن يلائمه على الدوام .

انى عندما أرى فتاة تميس فى زينة متبرجة يساورنى القلق على قوامها الذى أخفته ذلك الاخفاء التنكرى . وأقول :

— لو أنها كانت جميلة لما ركبت كل هذه المشقة . فلابد أنها عاطلة من الجمال بحيث لا تستطيع الاستغناء عن كل هذه التمويهات .

ومتى سمعتنى الفتاة أقول ذلك عنها ستكون هى الساعية كى تخلع عنها تلك الزينة المتبرجة ، كى نحكم على جمالها الحقيقى الذى تعتز به كل فتاة . ومتى فعلت ذلك فانى سأصفق لها اعجابا ، ان كان جمالها يستأهل التصفيق . ولكنى لن أطريهـا الا اذا كانت فى زينـة بسيطة للغاية .

وعندما تنظر الفتاة الى التزين باعتباره عاملا مساعدا على الرشاقة

الطبيعية والجمال الفطرى ، سترى أن التبرج هو اعتراف ضمنى واضح بحاجتها الى أدوات صناعية للظفر باعجاب الناس . وعندئذ لن تكون فخورة بزينتها وحليها . بل ستجد فيها موجبا للخجل . وحينما تتبرج فوق العادة وتسمع من يمتدح جمالها سيحمر وجهها خزيا .

* * *

وعلى كل حال . لئن كانت هناك سحن تحتاج الى التزين ، فليست هناك سحنة اطلاقا يلزم لها البذخ فى التزين . فتلك هى آفة المظاهر الكاذبة والعرف الأبله الذى يكبد الناس نفقات مدمرة .

ان المرأة ذات الذوق الأصيل تعرف كيف تختار زينة جيدة تناسبها وتثبت عليها . أما من لا ذوق لها فلا تعرف ماذا تختار لنفسها ، فلا تثبت عند زى أو زينة . وتختار كل يوم جديدا .

ان الفتيات الصغيرات والآنسات الحديثات السن لا تلزم لهن زينة باهرة . فان العمل والدروس تشغل أوقاتهن . ومع ذلك يبدو عليهن فى الغالب أنهن أحسن ذوقا فى مظهرهن . لاقتصادهن فى أصباغ الوجه .

ان المرأة التى تمضى فى تزيين وجهها ست ساعات كل يوم لا يمكن أن تبدو أجمل من أختها التى لا تنفق فى زينتها الا نصف ساعة .وأظن أن النساء ينفقن هذا الوقت الطويل فى زينتهن يوميا بدافع الملل لا بدافع الغرور . فالتشاغل بتجميل أنفسهن أفضل عندهن ولو كان عبثا من سأم الفراغ . ويجب ألا ننسى ما تستلزمه الزينة المفرطة من جلسات مسلية فى الحوانيت لانتقاء المساحيق والثياب والعطور والثرثرة مع التجار والحائكات . فهذا كله يساعد على تزجية الفراغ تهربا من الملل .

ان العلاج الشافى أن نربى المرأة تربية نسوية صالحة بحيث نطبعها

على حب مهام جنسها . والاشراف على بيتها والتسلى بأعمال التدبير وفنون البيت والأسرة . وعندئذ سوف تنهار عادة التبرج الذميمة ، وتغدو المرأة أبهى منظرا وأقل بذخا وأرقى ذوقا .

* * *

وأول ما تلاحظه الفتاة حين تشب عن الطوق ، هو أن الجمال ليس من المستطاع اكتسابه على حسب المشيئة . وقد لا تسمح الظروف بالتفنن فى التبرج وهن بعد آنسات صغيرات السن . فليس أمامهن الا التميز بحركات خاصة . كرنة معينة فى الصوت ، أو خطرة معينة فى المشية ، لابراز ما وهب الله الفتاة منهن من محاسن أو مفاتن . وكل فتاة لها فنها الخاص فى استلفات الأنظار اليها واكتساب طابع شخصى خاص بها .

وأنا أعلم أن أهل التشدد من المربين يريدون منا ألا نعلم الفتيات غناء أو رقصا أو أى فن من الفنون الجميلة التى تساعد على الفتنة .وانى لأعجب لمن نعلم هذه الفنون ان لم نعلمها للفتيات ؟ أنعلمها للفتيان اذن ؟ وأى الجنسين أحرى باكتساب هذه المواهب وتنميتها ؟ .

لعلهم يرون الا نعلم تلك الفنون لاحد اطلاقا . فالأغانى غير الدينية فى نظرهم جريمة . أما الرقص فبدعة من الشيطان . ولا ينبغى فى رأيهم أن يكون للفتاة ما يلهيها أو يسليها اللهم الا العمل والصلاة ! .

ويالها من حياة بهيجة لبنت العاشرة ! .

وكم أخشى أن الصغيرة التى نرغمها على قضاء حداثتها فى الابتهال الى الله ، سوف تقضى شبابها فى عكس ذلك تماما ، وتعوض بالاباحية بعد الزواج ما فاتها بالتزمت قبله .

انى أنادى أن نراعى اعتبار السن واعتبار الجنس معا .

فلا يصح أن تحمل فتاة صغيرة على نمط جدتها فى المعيشة بل يجب

أن تستمتع بحياتها ، وتغني وترقص ما شاء لها الهواء . وتتذوق لذات عمرها البريئة . فعن قريب سوف تفرض عليها الأيام سمت المجد .

* * *

ويتساءل الناس هل نعهد بالفتيات الى معلمين أو معلمات ولست أدرى بماذا أجيب . فكم كان بودى لو استغنت الفتاة فى تربيتها عن معلم ومعلمة على السواء . وأن تتعلم بحريتها التامة كل ما تهفو نفسها الى تعلمه . ولا سيما الفنون . فان الاستعداد الفطرى يسهل على الفتاة التعلم بغير عناء من الأب والأم والأخ والأخت والصديقات والوصيفات . بل ان المرآة قد تكون معلما كافيا للفتاة فيما تميل اليه من أنواع الفنون.

وعلى كل حال يجب ألا نفرض الدروس والمعلمين على الفتيات . بل ندع الفتاة تطلب تلك الدروس عند شعورها باحتياجها اليها .ويجب أكثر من ذلك ألا ندفع الفتاة فى طريق التعلم دفعا . بل نتركها لميلها الفطرى .

* * *

وأما ان تقرر الدرس ، فليس بذى أهمية عندى أن يكون المعلم رجلا أو امرأة .

ان الذوق يتكون بالموهبة وبالاجتهاد . وبالذوق يتفتح الذهن لا شعوريا لمعانى الجمال بكافة أنواعه . ثم للمعانى الأخلاقية التى ترتبط به .

ولعل هذا فى جملة الأسباب التى تجعل احساسات اللياقة والشرف تتأصل لدى الفتيات فى سن مبكرة عن تأصلها لدى الفتيان . وليس صحيحا أن تلك الاحساسات المبكرة من صنع الوصيفات والحاضنات . فان هذه الفئة دون ذلك بكثير .

وموهبة الكلام تحتل المكان الأول بين فنون الاعجاب . وبالكلام

وحده يمكن اضافة سحر جديد الى السحر المقرون عادة لدى الحواس . فان تتابع الاحساسات والأفكار فى الذهن يبعث الحيوية فى السحنة عند التعبير عنها . ولهذا فيما أعتقد تميل الفتيات الصغيرات الى اتخاذ طريقة خاصة فى الكلام يلذ للرجال الاصغاء اليها .

والفتيات أسرع الى تعلم الكلام من الفتيان وأشد منهم طلاقة . بل ان الفتيات قد يتهمن بالثرثرة . وهذا طبيعى وأقرب الى المزية منه الى النقص . فللفم والعينين وظيفة واحدة عند الفتاة . ولئن كان الرجل يقول ما يعرفه . فان المرأة تقول ما يثير الاعجاب . فالرجل بحاجة الى المعرفة كى يتكلم . اما المرأة فبحاجة الى الذوق كى تتكلم . أى أن الرجل يتكلم فيما يراه نافعا ، أما المرأة فتتحرى ما يطيب للناس سماعه .

ولهذا السبب لا ينبغى أن نقوم لفظ الفتيات وطريقة كلامهن كما نقوم الفتيان . فالفتاة تتوخى التأثير بكلامها ولا تتوخى الاقناع . والمهم ان نعود الفتاة منذ نعومة أظفارها ألا تقول الا ما هو لطيف جميل يروق لسامعيها . بحيث تشب على هذه العادة . ولكن فى حدود ألا تقترف الكذب ارضاء لسامعيها . وهذا هو وجه الصعوبة الوحيد فى موهبة الارضاء بالكلام .

وقد تكون هناك صعوبات أخرى . ولكنها تلحق بسن تالية لسن الطفولة . أما فى الطفولة فيكفى أن تكون الفتاة صادقة فى غير خشونة أو غلظة . وبطبيعة الحال تنفر الفتيات من الخشونة . ولهذا من اليسير جدا تربيتهن على تجنبها .

وألاحظ على العموم أن آداب الرجال أقرب الى الرسميات . أما آداب النساء فأقرب الى الرهافة واللطف . وهذا الاختلاف ليس نتيجة العرف بل هو وليد الطبيعة . فالرجل حين يجاملك ينشد أن يقدم لك خدمة . أما المرأة حين تجاملك فتنشد أن تسرك .

ويترتب على هذا أنه مهما كان من أمر طبائع النساء فان تهذيبهن أقل غشا من تهذيبنا . لأن تهذيب المرأة ليس الا بسطا لغريزتها الأولى . أما حين يزعم رجل أنه يفضل مصلحتى على مصلحته الخاصة ، فمهما موه تلك الأكذوبة ، سأدرك على كل حال أنه يكذب فيما يزعمه .

ان الدرس الأول فى تهذيب الفتاة يأتيها من الطبيعة . أما الاكتساب فلا يأتى الا سندا للطبيعة وتوجيها لنبوغها الأصلى فى مجارى عرفنا وعاداتنا الاجتماعية .

أما حين تخلو النساء الى أنفسهن ، ترتد المجاملات فاترة ، محفوفة بالتكره . ولا يكدن يخفين ضيق بعضهن ببعض . بيد أن الفتيات الصغيرات قد تنعقد بينهن صداقات أشد صراحة واخلاصا . ويربط بينهن اللهو البرىء والمرح الصادق .

* * *

ولئن كان التطفل فى السؤال محرما على الصبيان . فهو من باب أولى محرم على الفتيات . ولا سيما أن الفتاة أشد فطنة الى مواطن الأسرار التى نخفيها عنها . ولكن يجب فى الوقت نفسه أن نطلق للفتيات العنان لاتقان فن الحديث . وبحيث يتعلمن رغم الطلاقة فى الكلام تجنب المواطن الشائكة والأسئلة الحرجة . وهذا هو سر الرشاقة واللباقة فى الحديث .

ولئن كان الأطفال الذكور بعيدين عن تكوين فكرة صائبة سليمة عن الدين ، فمن باب أولى تكون هذه الفكرة فوق مستوى عقول الفتيات . ولهذا أوصى بمفاتحة الفتاة فى الدين قبل الفتى . لأننا لو انتظرنا الى أن تتهيأ عقليتها لادراك هذه الأمور السامية ، فربما انتظرنا الى الأبد ولم تتح لنا فرصة مفاتحتها فى موضوع الدين .

ان عقلية النساء عقلية عملية ، تتيح لهن الوصول الى هدفهن المحدد ببراعة . ولكن هذه العقلية تعجز عن تحديد ذلك الهدف لنفسها .

ومن حسن الطالع أن العلاقة الاجتماعية بين الجنسين تكمل هــذا النقص . فيخرج لنا من المجتمع شخص اخلاقى ، المرأة منه بمثابة العين والرجل منه بمثابة الذراع . وكل منهما مرتبط بالآخر . بحيث تتعلم المرأة من الرجل ماذا ينبغى أن تراه . وبحيث يتعلم الرجل من المرأة ماذا ينبغى أن يفعل .

ولو أن المرأة استطاعت أن تصعد كالرجل الى المبادىء فى يسر ، ولو أن الرجل استطاع أيضا أن يصل كالمرأة الى التفاصيل ، لما عاش الاثنان فى توافق تام ، ولما استطاعت شركتهما أن تصمد على الزمن . أما وهذا التوافق التكاملى سائد ، فكل منهما يكمل نقص الآخر ، ويحتاج الى الآخر .

ان سلوك المرأة خاضع للرأى العام . وعقيدتها خاضعة للسلطة . ولهذا يجب أن تعتنق كل فتاة ديانة أمها . وأن تعتنق كل زوجة ديانة زوجها . ان المرأة يجب أن تتلقى حكم أبيها وزوجها كما تتلقى أوامر الكنيسة .

ان النساء لا يستطعن من تلقاء أنفسهن استخراج قاعدة الايمان . ولا يستطعن وضع الحدود العقلية لذلك الايمان . بل ينقدن لآلاف النزعات الغريبة . مما يبعدهن دواما عن الحق .

ان النساء بحكم تطرفهن العــاطفى اما أن تكون الواحــدة منهن مستهترة أو تقية . ولا تعرف كيف تجمع بين الحكمة والتقوى .

وأساس البلاء ليس فى طبع جنسهن الجامح فحسب ، بل أيضا فى سلطتنا المتهورة .

وما دامت السلطة يجــب أن تنظم ديانة النســاء . فليس المهم أن نفسر لهن الأسباب الداعية للاعتقاد ، بل أهم من هذا أن نبسط لهن بوضوح ماذا ينبغى أن يعتقدن . لأن الايمان بافكار غامضة هو السبب الأول للتعصب . وأما الايمان باشياء سخيفة غير معقولة فيقود الى

الجنون أو السذاجة . ولست أدرى أالى الزندقة تقود تعاليمنا الدينية أم الى التعصب . ولكنني واثق أنها تقود حتما الى هذا أو تلك ! .

فلكي نعلم الدين للفتيات الصغيرات يجب ألا نجعل الديانةموضوعا للضيق أو الكآبة ، أو واجبا ثقيلا مفروضا . ولهذا لا تعلموهن اطلاقا شيئا عن ظهر قلب ، حتى ولا الصلوات . ويكفى أن تؤدوا صلواتكم أمامهن بانتظام من غير أن تجبروهن على الاشتراك فيها . ولتكن تلك الصلوات قصيرة كما أوصانا بذلك السيد المسيح . ويكفى أن تكون محفوفة بالوقار من غير تصنع . فهذا كل ما يطالبنا به المولى . أما الألفاظ فليست من الأهمية كما نتوهم .

يجب أن تحب الفتاة ديانتها حين تعرفها . لا أن تعرفها معرفة جافة تنفرها من الدين والتقوى . ولهذا من الاجرام تخويف الفتيات الصغيرات من المولى ، وتصويره لهن غاضبا عليهن ، أو استغلال اسمه ووصاياه لمطالبتهن بالقيام بواجبات شاقة يرين بأنفسهن أنكم لا تقومون بها بأنفسكم .

لا شك أن الفتيات سيتهمن المولى بالمحاباة . ويتلهفن على يوم يكبرن فيه لكى يصلن الى سن المعافاة مثلكم من تلك الأوامر الثقيلة على النفس .

القدوة ! القدوة . بغير القدوة لن تفلحوا فى تعليم الصغار أى شىء ، حتى ولا الدين ! .

وحينما تشرحون للفتيات قوانين الايمان . ليكن التعليم مباشرا ، لا بصفة السؤال والجواب . اذ ينبغى ألا تجيب الفتاة الا بما تراه بعقلها . ونحن نريدها أن تعرف الدين كما هو لا كما يتراءى لها . ولهذا تكون طريقة التعليم الدينى بالسؤال والجواب طريقة ضالة مفسدة للعقل والدين معا .

وسأسوق هنا نموذجا من تلك الأسئلة والأجوبة التي أجدها في كتب التعليم الديني الكثوليكي . كي نرى مقدار مجافاتها لما ينبغي في تعليم الفتيات الدين .

* * *

ان أول سؤال وجدته في تلك الكتب هو :

— من الذي خلقك وأودعك هذا العالم ؟ .

وبديهي أن الفتاة تعتقد تماما أن أمها هي التي خلقتها وأتت بها الى الدنيا . ومع ذلك فعليها أن تجيب بغير تردد ان خالقها والآتي بها الى الدنيا هو الله . وكل ما تستفيده من السؤال والجواب . أنها أجابت عن سؤال لا تدرك معناه باجابة لا تدرك معناها اطلاقا .

وكم أود لو أن رجلا خبيرا بعقلية الأطفال وضع لهم كتابا في التعليم الديني خاصا بهم . ولو فعل لكان ذلك الكتاب على الأرجح أنفع ما كتبه المؤلفون في نظري ، ومما يشرف به مؤلفه ولا شك شرفا كبيرا . واني واثق أن ذلك الكتاب ان جاء كما ينبغي فلن يشبه في شيء كتب التعليم الديني التي بين أيدينا الآن .

ان كتابا في التعليم الديني لا يمكن أن يكون صالحا وافيا بغرضه الا اذا تولى الطفل الاجابة على السؤال بوحي من عقله لا بوحي من حفظه وذاكرته . ولا جدال في أن الطفل قد يتولى السؤال في بعض الأحيان . ولتوضيح غرضي سأقدم نموذجا صغيرا . وسأحاول على الأقل أن أعطي فكرة يسيرة عن المطلوب .

سأتخيل أن كتاب التعليم الديني ينبغي أن يبدأ على النحو التالي لكي نصل الى المسألة الأولى من مسائله .

الوصيفة

أتتذكرين الوقت الذي كانت فيه والدتك فتاة ؟ .

البنـــت

كلا لا أذكر ذلك يا وصيفتى .

الوصيفـــة

ولم لا ؟ مع أن لك ذاكرة قوية .

البنـــت

لم أكن أتيت الى الدنيا بعد .

الوصيفـــة

أنت اذن لم تكونى على قيد الحياة دائما فى الماضى ؟ .

البنـــت

كلا .

الوصيفـــة

وهل ستعيشين دائما فى المستقبل ؟ .

البنت

نعم .

الوصيفـــة

هل أنت صغيرة السن أو عجوز ؟ .

البنـــت

أنا صغيرة .

الوصيفـــة

وجدّتك . أشابة هى أم عجوز ؟ .

البنـــت

جدتى عجوز .

الوصيفـــة

هل كانت شابة فى يوم من الأيام ؟ .

البنـــت

نعم .

الوصيفــة

لماذا لم تعد شابة ؟ .

البنـــت

لأنها تقدمت في السن .

الوصيفــة

هل ستتقدمين مثلها فى السن ؟ .

البنـــت

لا أدرى .

الوصيفــة

أين ملابسك فى العام الماضى ؟ .

البنـــت

تصدقنا بها .

الوصيفــة

لماذا ؟ .

البنـــت

لأنها صارت صغيرة جدا .

الوصيفــة

ولماذا صغرت عليك ؟ .

البنـــت

لأنى كبرت .

الوصيفــة

وهل ستكبرين أكثر وأكثر ؟ .

البنـت

أوه . طبعا ! .

الوصيفـة

وماذا تصبح الفتيات الكبيرات ؟ .

البنـت

يصبحن نساء .

الوصيفـة

وماذا تصبح النساء ؟ .

البنـت

يصبحن أمهات .

الوصيفـة

وماذا تصبح الأمهـات ؟ .

البنـت

يصبحن عجائز .

الوصيفـة

وهل ستصبحين أنت اذن عجوزا ؟ .

البنـت

عندما أصبح أما .

الوصيفـة

ماذا تصبح العجائز ؟ .

البنـت

لا أدرى .

الوصيفـة

وماذا أصبح جدك ؟ .

البنت

توفى .

الوصيفة

ولماذا توفى ؟ .

البنت

لأنه كان عجوزا .

الوصيفة

وماذا يصبح العجائز اذن ؟ !

البنت

يموتون .

الوصيفة

وأنت عندما تصبحين عجوزا ماذا ...

البنت (مقاطعة)

من فضلك لا أريد أن أموت .

الوصيفة

يا طفلتى . لا أحد يريد أن يموت وكلهم مع ذلك يموتون ! .

البنت

كيف ؟ وهل ستموت والدتى أيضا ؟ .

الوصيفة

مثل جميع الناس . فالنساء يشخن كالرجال . والشيخوخة تؤدى الى الموت .

البنت

وماذا ينبغى أن أعمل حتى تتأخر شيخوختى جدا ؟ .

الوصيفة

توخى الحكمة فى مدة شبابك .

البنت

سأكون عاقلة حكيمة دائما .

الوصيفة

هذا أفضل لك . ولكن هل تظنين أنك ستعيشين أبدا ؟ .

البنت

عندما أصير عجوزا . عجوزا جدا ...

الوصيفة

ثم ماذا ؟ .

البنت

عندئذ .. أنت تقولين ان العجائز جدا لابد أن يمتن .

الوصيفة

ومن الذى كان يعيش قبلك ؟ .

البنت

أبى وأمى .

الوصيفة

ومن كان يعيش قبلهما . ؟

البنت

أبواهما وأماهما .

الوصيفة

ومن سيعيش من بعدك ؟ .

البنت

أولادى .

الوصيفة

ومن سيعيش من بعدهم ؟

البنت

أولادهم .

وعلى هـذا المنوال ستصل الفتاة الى مبدأ حتمي للجنس البشري ولجميع الأشياء . ولابد من سلسلة طويلة جدا من الأسئلة المماثلة لاعداد ذهن الطفلة للمسألة الأولى من مسائل التعليم الديني ألا وهي مسألة الخلق . وعندئذ يمكن توضيح هذا السر . وعندئذ فقط تستطيع الطفلة أن تدرك الموضوع .

ويجب تحاشي الموضوعات المذهبية الجافة والخفية التي لا تعني الا الفاظا بغير مفهومات . ولنوجه العناية الكبرى للتعليم الديني للبنت الى المبادىء الدينية المتصلة بالأخلاق عن قرب . فليس أنفع للأطفال من الجنسين وللفتيات على الخصوص من تعلم المبادىء التي تجعلهم يحسنون السلوك ويفعلون الخير .

لا تجعلوا من بناتكم فقيهات في العلوم الالهية أو مجادلات جدلات. فلا تعلموهن من أمور السماء الا ما يفيد في الحكمة البشرية .والفضيلة الدنيوية . علموهن وعودوهن الشعور دائما بأنهن تحت أنظار الله ، فهو شاهد دائم على أعمالهن وأفكارهن وفضيلتهن وملذاتهن . وعودوهن أن يصنعن الخير لأن الله يحب الخير . وأن يتحملن الألم بغير تململ ، لأنه سبحانه سيعوضهن عن ذلك الألم ويجزيهن خيرا .. وان يكن في كل يوم من أيام حياتهن على النحو الذي يحببن أن يظهرن به أمام مجده يوم الدين .

هذه هي الديانة الحقة التي لا يدركها الفساد بسوء التأويل أو الزندقة أو التعصب . فبشروا بهـذه الديانة التي لا أعرف لي ديانة سواها .

ومن المستحسن أن يراعى حتى يصل الى السن التي يتفتح فيها الذهن ويوقظ فيها الوجدان الضمير ، يكون الخير والشر لدى الصغار هما ما يعتبره الكبار من حولهم خيرا أو شرا . فما يوصونهم به هو الخير ، وما يذودونهم عنه هو الشر . ولا ينبغي أن يعرفوا عن الخير والشر أكثر من هذا القدر .

ومن هنا يتضح ما للمخالطين من الكبار من أهمية كبرى . فيجب تخير من لهم سلطان على الطفل تخيرا دقيقا حسنا . الى أن يصل الى ادراك الأمور والحكم عليها بنفسه . فعندئذ يجب تغيير خطة تربيته .

* * *

ولكن ألا نبخس المرأة قدرها حينما نجعل قانونها الأوحد العرف العام ؟ أليس فى هـذا تنقص من قيمـة ذلك الجنس الذى يحكمنا ويسوسنا ؟ .

ان لدى النوع البشرى بأسره قانونا سابقا على العرف . ويجب أن تخضع جميع القواعد لهذا القانون الأساسى الذى منه تتفرع كلها . والذى له السيادة على العرف نفسه . وما لم يتفق رأى الرجال مع ذلك القانون ، لا يكون لهذا الرأى أى قيمة أو سلطان علينا وعلى المرأة .

هذا القانون الأعلى هو الاحساس الداخلى ، وما لم يسيطر على تربية المرأة هذا القانون الى جانب احترام العرف العام وآراء الرجال خاصة ، تكون تلك التربية شوهاء .

ان الاحساس الداخلى اذا نما لدى المرأة من غير مراعاة للعرف ، شبت المرأة خالية من رقة الروح التى تزدان بها الأخلاق الفاضلة فى المجتمع . أما سيطرة العرف من غير احساس داخلى لدى المرأة فتجعل منها امرأة فاسدة غير فاضلة . منافقة تستعيض عن الفضيلة الحقيقية بالمظهر المموه .

وينبغى للمرأة أن تكون لديها حاسة خاصة توفق بين القانونين : قانون الاحساس الداخلى وقانون العرف العام ، فلا يضل ضميرها . وتقوم من اخطاء العرف التى يقع فيها أحيانا . وهذه الحاسة الخاصة هى العقل . وما أكثر المشكلات التى تثور حول عقـل المـرأة . أهى قادرة على التفكير المنطقى والمناقشة العقلية ؟ وهل يجب تثقيفها عقليا ؟ وهل تفسد الثقافة العقلية ما ينبغى للمرأة من البساطة ؟ .

ان التطرف فى الرد على هذه الأسئلة يجعل البعض يقصرون أعمال المرأة على الحياكة والغزل فى بيتها مع الخادمات . فهى رئيسة خدم أو الخادمة الأولى لسيدها ومولاها الزوج .

أما البعض الآخر فيهيل على المرأة حقوقها وحقوق الرجال معا ،فاذا بالمرأة فى نظر هؤلاء حائزة لحقوقها وحقوق الرجل معا ،وبذلك تستولى على الأفضلية التى منحتها الطبيعة نفسها للزوج .

ان العقل الذى يقود الرجل الى معرفة واجباته ليس شديد التعقيد . والعقل الذى يقود المرأة الى معرفة واجباتها أكثر بساطة .فالطاعة والوفاء اللذان تدين بهما لزوجها . والحنان والعناية اللذان تدين بهما لأولادها انما هى نتائج طبيعية جدا ومعقولة جدا لحالتها التى لا تستطيع المرأة أن تنكرها أمام احساسها الداخلى الذى يسوسها .

ولا أعارض بغير تحفظ قصر المرأة على أعمال جنسها وحدها . وأن تظل فى جهل عميق بكل ما عدا ذلك من الأمور ولكن يجب فى هذه الحالة أن تكون الأخلاق العامة ساذجة جدا وسليمة جدا . أو تكون طريقة المعيشة متخلفة جدا . أما فى المدن الكبرى وبين من فسدت أخلاقهم من الناس . فتلك المرأة الجاهلة جدا سيكون من اليسير غوايتها جدا . ان معرفة أحوال الدنيا أحفظ للمرأة من شرور الرجال والاعيب الغواية . يجب أن تعرف المرأة سلفا ماذا يمكن أن يقال لها . وماذا يجب أن تراه وتظن فى ذلك الذى يقال حتى لا تخدع بمعسول الأقوال . ومع أن المرأة خاضعة لأحكام الرجال ، الا أنها ينبغى أن تكون جديرة بتقديرهم . وينبغى على الخصوص أن تكون جديرة بتقدير زوجها . لا ينبغى أن تجعله يحب شخصها فحسب ، بل أن تجعله أيضا يقر سلوكها ويرضاه . وينبغى أن تبرر أمام الجمهور اختياره لها ، فيرتد على الزوج ذلك التكريم والتشريف الذى يضفى على الزوجة .

وكيف يمكن أن تنهض المرأة بكل هذا ان كانت جاهلة بالنظم والتقاليد والعرف والأحوال الجارية ؟ ان كانت جاهلة بالمبادىء التى تقوم عليها آراء البشر وأحــكامهم والعواطف التى تسيطر على تلك الآراء والأحكام ؟ .

ان المرأة من حيث انها خاضعة فى آن واحــد لضميرها الشخصى ولآراء سواها ، يجب أن تتعلم كيف تقارن بين هذين القانونين ،وكيف توفق بينهما ، ولا تغلب قانون الضمير على قانون العرف الا حينمــا يتعارضان تعارضا لا حيلة فيه .

ان المرأة بذلك تغدو قاضية لقضاتها ، لأنها هى التى تقرر متى ينبغى أن تخضع لهم ، ومتى ينبغى أن ترد سلطانهم وتند عنه .

انها قبل أن ترفض العــرف أو تقبله ، يجب أن تزن الموضــوع . وتراجعه عسى أن تجد لها مخرجا من العصيان ومندوحة من المخالفــة الصريحة التى تجلب ملام الناس . وأنى للمرأة أن تستطيع ذلك من غير ثقافة الروح وثقافة العقل ! .

* * *

وليس معنى تعليمها مبادىء الأخلاق أن يكون ذلك بطــريق آراء مجردة وصيغ علمية . فالحقائق المجردة ليست مما يوافق طبيعة المرأة . بل ينبغى أن تكون جميع دراسات الفتاة متصلة بالعمل مباشرة .

ان مجال المرأة أن تطبق المبادىء التى يكتشفها الرجال . كما أن مجالها أيضا تجميع المشاهدات والفطنــة الى الملاحظات التى تســوق الرجال الى اقامة تلك المبادىء . وجميع أفكار النســاء فيما لا يتصــل مباشرة بواجباتهن يجب أن تتجه الى دراسة الرجال والمعلومات الهينة الخاصة بفنون التحبب والامتاع . فهن ميسرات بطبعهن وذوقهن لذلك فحسب . أما اعمال العبقرية فانها تتجاوز ذرعهن .فليس لهن من الدقة

والعمق ما يكفل لهن النجاح فى العلوم المضبوطة . فالمرأة بضعفها لاتهتم الا بما يكسبها قوة . وما يكسبها قــوة هــو عواطف الرجال . فذلك ميدانها .

ان كل ما لاتستطيع المرأة أن تصنعه بنفسها بسبب ضعف تكوينها ، ويكون ضروريا لها أو جالبا لسرورها ، يجب أن تكون لديها الحيلة فى دفعنا للميل اليه كى نؤديه لها بما لدينا من حول وقوة . ولهذا يجب أن تدرس المرأة نفسية الرجل . لا دراسة علمية مجردة . ولا دراســة تشمل الرجال على اطلاقهم ، بل الرجال المحيطين بها ، أولئــك الذين تخضع لهم وترتبط بهم اما بحكم القانون واما بحكم العرف . ويجب أن تتعــلم كيف تستشف نفسيتهم من أقــوالهم وأعمالهم ونظراتهم واشاراتهم وحركاتهم .

يجب أن تكون تلك الأقوال والأفعال والنظرات والحركات كافية لها لكى تعرف بواطنهم . ويجب أن تكون قادرة بأقوالها هى وأفعالهــا ونظراتها وحركاتها على تحريكهم لفعل ما تريده منهم من غير أن يفطنوا الى ذلك .

ان المرأة أشد من الرجل فطنة ،والرجل أعظم منها عبقــرية . ان المرأة تلاحظ أما الرجل فيفكر . ومن تكامل العنصرين تحصل البشرية على أكمل علم يستطيع الذهن الانسانى أن يصل اليه .

ان الدنيا هى كتاب المرأة . ومن أساءت المطالعة فيه فهذا ذنبها ، لنقص فيها أو لهوى يعميها . ومع هذا فان الأم بمعنى الكلمة ليست امرأة دنيا (أى سيدة مجتمع) بل هى أشبه بعزلتها فى بيتها أن تكون راهبة متبتلة فى صومعتها .

ان العادة فى فرنسا أن تعيش الفتيات فى الديور . وأن تنطلق النساء المتزوجات فى عرض الدنيا وطولها . أما الأقدمون فكان الأمر لديهم على

العكس . بل كانت الفتيات يتمتعن بحفلات عامة مرحة كثيرة العدد . والنساء يعشن منطويات فى البيوت ، وهذا النظام أقرب للعقل وأحفظ للأخلاق .

أيها الأمهات ، اجعلن بناتكن رفيقات لكن على الأقل فى الحفلات والمجتمعات . هذبن نفوسهن صغيرات وأسسن أخلاقهن على الطهر والصدق والشرف . ثم أطلعوهن على حقيقة متعة الدنيا ، فى المراقص والولائم والمسارح . وحتى لا يتهافتن على كل ذلك بعد الزواج تهافت المحروم الذى لا يعرف القصد ولا يقف فى اندفاعه عند حد .

ان المرأة كى تحب حياة المنزل الهادئة وهى زوجة يجب أن تكون عرفتها واستطابت طعمها من قبل وهى طفلة . ففى بيت أبيها تتعلم الزوجة قيمة بيت زوجها . فمن أحبت الحياة فى بيت أبيها وشبت على التعلق بالهدوء والحنان فيه ، ستحرص على كيان بيت زوجها وتجد فيه مناط الحنان والهدوء . وكل فتاة لم تذق السعادة فى حجر أمها ورحاب بيت أبيها هيهات أن تسعد أطفالها .

* * *

كلما كانت المهمة شاقة وجب أن تكون الحجج الدافعة الى القيام بها قوية معقولة . وهناك لغة يستعملها المتزمتون فى مخاطبة الفتيات فى شئون الحياة والشباب والنزعات الطبيعية للجنس . وهى لغة طنانة رنانة تملأ آذان الشابات والفتيات من غير أن تصل الى اقناعهن .

أجل ان الفتاة التى ربيت على التقوى الحقيقية لا اللفظية تملك أسلحة قوية ضد الغواية . أما الفتاة التى سلحت بتلك الخطب والمواعظ اللفظية فحسب ، فستكون فريسة سهلة لأول مغو بارع يتحرى الايقاع بها . فما من شابة جميلة يمكن أن تقتنع بما تردده تلك المواعظ من أن جسدها الفاتن حقير دنس . ولا يمكن أن تقتنع بأن لذات الهوى التى

أودع الله الاستعداد لها فى تكوينها يمكن أن تكون بدعة وشركا من صنع الشيطان ! .

قدموا لهن حججا أقوى من هذه منطقا والا فلا جدوى من الوعظ والارشاد . وان كنتم تريدون اقناعا جديا للفتاة بالطهر والعفة فليكن ذلك بابراز العفة والطهر وموافقتهما للميول الطبيعية نفسها .

صوروا للفتاة الرجل الفاضل الرائع الذى تحلم أن تحصل عليه زوجا وحبيبا . ثم بينوا لها أن هذا الرجل لن يقدر الا فتاة طاهرة عفيفة. وان الجمال الجسدى وحده لا يكفى لكسب قلب الرجل واحترامه وان كان كافيا لتحريك شهوته واثارة نزوته . فبذلك وحده تحب الفتاة العفة والوقار فى السلوك . وتحترم نفسها . وتحتقر الرذيلة والاستهتار.

* * *

بهذه الروح ينبغى أن تربى صوفى . تربية فيها من العناية أكثر مما فيها من العناء . ومن السعادة أكثر مما فيها من التضييق .

والآن حان أن نذكر شيئا عن شخصها كما صورتها لاميل ، وكما يتخيل هو شخصيا الزوجة التى يمكن أن تسعده .

صوفى

آحب أن أؤكد انى لا أتحدث فى كتابى هـذا عن النوابغ ، فليس اميل نابغة . وليس صـوفى نابغة كذلك . وانما اميـل رجل كسـواد الرجال . وصوفى امرأة كسائر النساء وهذا حسبهما مفخرة . ففى هذا الموقف الذى اختلطت فيه مميزات الجنس بين اظهرنا . يكاد يكون من عداد النابغين من يحافظ على خاصة جنسه .

صوفى طيبة المولد ، سليمة الفطرة ، ذات قلب شديد الحساسية . وهذه الحساسية المفرطة تتيح لها أحيانا نشـاطا فى المخيلة يصعب كبح جماحه . وذهنها يتميز بالنفاذ الثاقب أكثر مما يتميز بالدقة والعـدل . ومزاجها لطيف ولكنه غير متشابه الأطوار وخلقتها عادية شائعة الا أنها لطيفة . فهى ذات سحنة تنبىء عن روح . ولا تعرف الكذب . وقد يتصل بها المرء وهو غير مكترث ، بيد أنه لا يفارقها من غير تأثر .

قد تكون لدى كثيرات غيرها مزايا تنقصها . أو قد تحظى غيرها بنصيب أوفر مما لديها من المزايا . ولكن ما من واحدة منهن تتفق اشتات مزاياها بهذه الصورة التى تدل على طبع موفق سعيد . فهى تعرف كيف تستفيد حتى من عيوبها . فلو كانت أكمل مما هى ، لكانت أقل حظوة لدى الناس .

وليست صوفى بالجميلة . بيد أن الرجال ينسون فى محضرها جميلات النساء . وجميلات النساء فى محضرها لا يرضين عن أنفسهن .

انها لا تكاد تبدو جميلة لأول وهلة . ولكن كلما تكرر النظر اليها

ازدادت جمالا . فهى الرابحة حيث تخسر الأخريات .وما تربحه لاتخسره بعد ذلك اطلاقا .

أجل قد يرى المرء عينين أجمل من عينيها وفما أجمل من فمها . ووجها أروع من وجهها . ولكن من العسير أن تكون لامرأة قامة أجمل من قامتها ، وبشرة أجمل من بشرتها ،ويد أشد بياضا من يدها ، وقدم أدق من قدمها ، ونظرة أرق من نظرتها ،وسحنة أبعد تأثيرا من سحنتها . فهى تؤثر من غير أن تبهر . فتسحر حيث لا يدرى المسحور ماذا سحره!.

وصوفى تحب الزينة والأناقة . وهى بهما خبيرة . فليس لأمها وصيفة خاصة سواها . ولها ذوق جم . الا أنها ترفض الملابس الساذجة . فملابسها على الدوام تجتمع فيها البساطة والأناقة . ذلك أنها لا تحب ما يبهر ، بل ما يعجب ويريح . انها تجهل ما هى ألوان موضة هذه السنة . ولكنها تعرف على أحسن وجه ما يناسبها من الألوان . فليست هناك شابة أقل منها تكلفا فى الملبس ، ولا أكثر اتساقا .

فهى لا تنتقى شيئا حيثما اتفق . ولكن العناية الفائقة التى تنتقى بها كل شىء ، لا تبدو على شىء مما ترتديه .

انها ذات حياء فى ملبسها ،وهى متبرجة فى الوقت عينه . فلئن كانت لا تبدى مفاتنها بمعنى انها لا تكشف عنها بل تغطيها وتسترها ، الا أنها تسترها بصورة تساعد المخيلة على ابداع تصورها . فحينما يراها المرء يقول : هذه فتاة حيية رزان . ولكنه ما لبث بجوارها ، أن جالت نظراته وقلبه فى شخصها . لا يستطيع عن ذلك حولا . فكأنما كل هذه الأزياء لم توضع على جسدها الا لكى تنزع قطعة قطعة بعين الخيال ! .

وصوفى ذات مواهب طبيعية ، وهى تشعر بها ولا تهمل أمرها . ولكنها لم تستطع تنميتها كما ينبغى . فاكتفت بتدريب صوتها الجميل على الغناء السليم بذوق حسن ، وتدريب قدميها الدقيقتين على المشى

بخفة ويسر ورشاقة . وعلى الانحناء بأدب فى كافةالمواقف منغير تحرج أو اضطراب . ولم يكن استاذها فى الغناء سوى والدها . ولم تكن أستاذتها فى الرقص سوى والدتها ولاعب أرغن من سكان الجوار قام بتلقينها مبادىء العزف. ثم ثابرت هيبعد ذلكعلىالتمرينبنفسها. وشيئا فشيئا نمت حساسيتها لتوافق النغمات . ولما شبت عن الطوق زاد عشقها للموسيقى . بدافع من الذوق لا الموهبة الكبيرة . فهى لا تعرف كيف تقرأ النوتة الموسيقية .

اما ما تحذقه صوفى وكان ذووها حريصين على تعليمها اياه ، فهو الفنون النسوية . حتى ما لا تطالب به بنات طبقتها . مثل قص الثياب وحياكتها . وليس هناك فن من فنون الابرة على اختلافها لا تحذقهصوفى غاية الحذق . ولا تقوم به وهى مسرورة . ولكن المخرمات (الدينتيلا) هى أحبها الى نفسها .

وهى ذات حذق فى كافة أعمال المنزل . منالطهو الى التدبير ، ولها معرفة بأسعار السلع ومواد الغذاء .ولها قدرة على ضبط الحساب .فهى مدبرة البيت نيابة عن أمها والمشرفة على خدمته . فهى مهيأة لأن تكون ربة بيت فى يوم قريب وأم أسرة . فهى اذ تعلمت ادارة بيت أبيها ستعرف كيف تدبربيت زوجها وبيتها . وفى مكنتها أن تحل محل الخدم وتقوم بمهامهم بارتياح .

وعملها فى الوقت الحاضر هو عملالبنت البارة التى تخفف عن كاهل أمها جانبا من أعبائها وتنهض بخدمتها وطاعتها عن طيب نفس . ولكن من الخير والانصاف للحقيقة أن نقول انها لا تقوم بجميع هذه الأعمال بدرجة واحدة من السرور . فمع أنها أكول ، الا أنها لا تحب الطهو .فما فيه من تفاصيل تقزز نفسها بعض الشىء وتعتبره عملا غير نظيف .فهى من حيث ما يمس النظافة شديدة الحساسية . وتطرفها فى هذا يجعلها معيبة الى حد ما . فهى مستعدة لأن تدع الوجبة طعمة للنار ان كان انقاذها يؤدى الى اصابة كمها بشىء من الوضر .

وهى لمثل ذلك السبب لا تقبل على مراقبة البستانى فى اشغال الفلاحة . فالأرض تبدو لها شيئا قذرا . ورائحة السماد على الخصوص تزعجها . وهى تتخيل تلك الرائحة كلما وقع نظرها على السماد عن بعد .

وهذه العيوب المسئولة عنها فى الواقع والدتها اذ هى التى غرست فى نفسها ذلك الاحساس بالحاحها على أهمية النظافة ووجوب الابتعاد عن كل ما يوسخ الثياب . وذلك ايمانا من الأم بأنه ما من شيء أشد ايذاء للنفس من منظر امرأة قذرة . والزوج الذى يتقزز من امرأة قذرة محق فى ذلك التقزز . وكان لهذا التشديد أثره فى الفتاة . حتى صارت تفزع من القذارة أو شبهها فزعا غريزيا . وصار همها الأول ليس اتقان ما هى بصدده من العمل ، بل المحافظة على النظافة قبل كل شيء . ولكن ذلك كله لم يصبها بالانحلال أو التكلف أو الرخاوة . فليس فى جناحها من الطيب سوى الماء وعبير الزهور الطبيعية . ولن يشم منها زوجها سوى طيب أنفاسها العذبة . وليست طهارة جسدها على حساب طهارة نفسها . فهى تتصف بالنقاء والطهر كما تتصف بالنظافة وطيب العرف .

وقد وصفت صوفى بأنها أكول . وكان هذا صحيحا بحكم فطرتها . ولكنها ثابت الى الاعتدال بفعل التعود ، حتى صار الاعتدال فى المآكل احدى فضائلها . فقل بين الفتيات والفتيان من لا تتحكم فيه شهوة الطعام . وهى شهوة أخطر من أن تترك بغير تكوير أو كبح .

وكانت صوفى فى صغرها تدخل مخزن الطعام ولاتخرج بيدها فارغة . وتتسلل الى حجرة أمها فتختلس كميات من الحلوى . الى أن ضبطتها أمها وعاقبتها بالصوم . ثم تمكنت من اقناعها بأن الحلوى تفسد الأسنان . وأن الاكثار منها يفقد الخصر رقته والقامة رشاقتها . فقومت من سلوكها . وأصبح من عادتها عندما كبرت أن تصد نفسها عن الطعام فى غير موعده . فتغلبت على تلك الشهوة الدنيئة .

والواقع أن الشراهة لا تستولى على الفتيان أو الفتيات الا اذا كان القلب غافيا ، ومتى صحا الفؤاد تراجعت الشراهة عن مركز السيطرة ،لأن البطن لا قبل له بمزاحمة القلب .

وصوفى تأكل مستخرجات الألبان وتحب المسكرات ،ولكنها لاتقبل كثيرا على أكل اللحوم . ولم تذق فىحياتها كلها طعم النبيذ أو الخمور . وما تأكل منه تأكل منه باعتدال . والحقيقة أن جنسها أقل حاجة من جنسنا الى تجديد قواه ، لأن جنس النساء أقل اهدارا لقوته منا . وهى فى كل شيء ذات ذوق واعتدال . وتعرف كيف تستغنى عن أى شيء تحت ضغط الظروف من غير أن تجد فى ذلك عناء .

وقريحتها صافية ، وان لم تكن وقادة . وتفكيرها سليم وان لم يكن عميقا . وتجتهد الا تنتابها النزوات . وتغيرات المزاج . الا أنها حساسة بحيث يتعذر عليها الاحتفاظ باعتدال المزاج فىمستوى لايتغير. ولكن حين يتعكر صفوها لا تعنى بذلكأحدا سواها .حتى انها لاتقطب جبينها . استياء حين تؤلمها كلمة ، غير أن قلبها يدمى تحت تأثير تلك الكلمة . وتبادر بالانزواء كى تذرف دموعها . واذا نادتها أمها أو ناداها أبوها وهى فى نوبة البكاء وقال لها كلمة ترضية واحدة ،لجففت دموعها وأقبلت على اللعب والضحك كأن شيئا لم يحدث .

وهى ليست بريئة كل البراءة من النظرات . فأحيانا تنسى نفسها وتندفع . ولكن اذا تركت لنفسها ثابت الى صوابها وبادرت الى محو آثار خطئها . وتلك فضيلة تحمد لها . واذا عوقبت على خطئها اذعنتولم تتمرد . وركبها الخزى لا من العقاب بل من الخطأ الذى وقعت فيه .

انها مستعدة لتقبيل الأرض بين يدى أقل خادم لتطلب صفحهعن خطأ ارتكبته فى حقه . ولا تجد فى ذلك غضاضة .وقصارى القول انها تتحمل خطأ الناس فى حقها بجلد ، ولا ترد الاساءة بالاساءة . وتبادر لاصلاح

خطئها نحو الغير بكل سماحة . وهذه هى فطرة المرأة الاصلية قبل أن تفسدها نحن بمظالمنا . فالمرأة خلقت لتخضع للرجل وتتحمل منه اخطاءه وجوره . ولم يخلق الفتيان لمثل ذلك . لهذا يجب ألا نطبع الفتيان على مثل ذلك الخلق . فان لديهم احساسا داخليا يجعلهم يتمردون على الجور ويثورون عليه .

* * *

وصوفى ذات دين . ولكنه دين معقول بسيط : تعاليمه قليلة . وطقوسه قليلة . ولا تكاد تكون له مبادىء وأصول سوى القواعد الاخلاقية . فهى تخصص حياتها كلها لخدمة الله عن طريق عمل الخير .

وقد عودها والدها منذ الصغر على الخشوع والاجلال لهما . وصوفى تحب الفضيلة حتى صار ذلك الحب شغفا مستوليا على نفسها . فهى تحب الفضيلة لأنه ليس فى العالم ما هو أجمل منها . وتحبها لأنها تاج المرأة ومجدها . فالمرأة الفاضلة صنو الملائكة . فهى تحبها لأنها الطريق الوحيد الى السعادة الحقيقية . ولأنها لا ترى فى حياة المرأة الساقطة الا الشقاء والعناء والابتذال . وتحب الفضيلة أيضا من أجل محبة أمها وأبيها . فان هذين الوالدين لم يكفهما أن يكونا فاضلين ، فأبيا الا غرس الفضيلة فى كيان ابنتهما .

كل هذه المشاعر تضافرت على تعلق صوفى بالفضيلة . بحيث ستظل متمسكة بأهدابها حتى نفسها الأخير . فقد أقسمت على ذلك فى أعماق سريرتها .

ومن كمال تربية صوفى أنها تعرف نفسية الرجال وعيوبهم . كما تعرف أيضا رذائل النساء . معرفتها للفضائل والمزايا . لأن الزوجة يجب أن تعرف مقدما أن الزوج مخلوق ناقص لتوطن نفسها على معاشرته وسياسته . والواقع ان النساء يصلحن للحكم على الرجال كما يصلحن للحكم على النساء بسبب استعدادهن الطبيعى .

انها تعرف مثلا ان النســاء يكثرن من الغيبــة والنميمة . ولكنها لا تتحدث فى غيبة أحد الا بكل طيب ، ولا سيما فى حق النساء . ذلك أن النساء لا يظلمن الا عندما يتحدثن عن بنات جنسهن . أما رأيهن فى الرجال فنزيه لتجرده من الغرض .

ولئن كانت صوفى لم تكثر من ارتياد المجتمعات . الا أنها لطيفة اللقاء مهذبة رشيقة فى كل ما تصنعه ،وهى مهذبة تهذيبا عميقا لا تهذيب الأساليب الخارجية فى السلوك فحسب . ولا تعرف كيف توجــه ألفاظ المجاملة التافهة السخيفة . ولا تبالغ فى التحيات والتشــكرات مبالغــة لفظية . الا أن كلمة التحية أو الشكر اليسيرة التى تخرج من فمها تحمل من حرارة الصدق وسحر اللطف ما يجعل لها وقعا فى السامع لا ينسى .

انها ليست من المحافظات على الصمت والاحترام مع النساء فحسب، بل وأيضا مع الرجال المتزوجين ومن هم أكبر منها فى السن بكثير على العموم . ولا تسمح لنفسها أن تتقدمهم أو تجلس فى مكان أعلى من مكانهم الا مرغمة ذلك أنها تعلم أن حقوق السن مقدمة على حقــوق الجنس ، فان السن المتقدمة توحى بالحــكمة . والحــكمة واجبــة التوقير . قبل كل شيء .

أما مع الشباب من اقرانها واترابها ، فالأمر مختلف . فمن كان منهم متواضعا محتشما ، فهى معه لطيفة وترفع التكليف . واجتماعاتها بهم مازحة بيد أنها بريئة ومهذبة . أما من كان منهم جادا ، فهى لا تخالطه الا فى حدود معينة ، وهى على كل حال لا تقبل الخوض فى مسائل الغزل المألوفة . فان اتفق أن فاتحها شاب جميل فى محاسنها على عادة الشبان. فانها قمينة أن تقاطعه قائلة بأدب :

— سيدى . أخشى أن أكون عالمة بهذه الأمور خيرا منك . فان لم يكن هناك موضوع أطرف من هذا نخوض فيه ، فانى اعتقد أن من المستحسن الاكتفاء من مقابلتنا بهذا القدر .

وتعقب ذلك بانحناء عظيم . ثم تبتعد على الفور . وليس ذلك لانها تكره الثناء . بل انها ترحب به ما دامت دوافعه سليمة تطمئن اليها . اما المدح الذى يستخدم فخا للفتيات فلا تستريح اليه .

ونظرا لنضوج تفكيرها الذى يجعلها فى حكم ابنة العشرين مع أنها فى الخامسة عشرة ، فلا يمكن أن تعتبر طفلة حتى فى نظر والديها . ولذا بصراها بواجبات الشباب التى ينبغى أن تدركها الفتاة فى مثل مرحلتها من العمر . وانى اعتقد أنهما قالا لها شيئا من هذا القبيل :

— يا صوفى . ها أنت ذى قد غدوت فتاة كبيرة . ونحن نريد لك السعادة . نريدها لك لا لنا . فان سعادتنا تتوقف على سعادتك . وسعادة الفتاة الشريفة فى أن تسعد رجلا شريفا . ولهذا يجب التفكير فى أمر زواجك . ويجب التفكير فى ذلك من وقت مبكر . فمصير الحياة يتوقف على الزواج . ولا يستكثر الوقت الذى ينفق فى التفكير فيه والتدبير له . وما من شىء أصعب من اختيار الزوج الصالح . اللهم الا اختيار الزوجة الصالحة . وستكونين أنت يا صوفى تلك المرأة النادرة . ستكونين فخر حياتنا وسعادة أيام شيخوختنا . ولكن مهما كانت مزاياك عظيمة ، فلا تعدم الدنيا رجلا أعظم مزية منك ، وكل رجل يشرفه الحصول على يدك . ولكن هناك كثيرون يشرفونك أكثر مما تشرفينهم. ومن بين هؤلاء يجب اختيار واحد يناسبك . تتعرف اليه ثم نعرفك به . واعلمى يا ابنتى أنك على عقلك وصلاحك واستقامتك وتقواك وتحليك بجميع المواهب التى تلائم المرأة الشريفة ، فتاة فقيرة . ولكن غنى المال عرضة للضياع . اما الغنى الذى لديك فلا يمكن أن يضيع . ولكنى لا أنصحك أن تتزوجى رجلا أرقى منك مكانة . بل يجب أن تدخلى فى أسرة تجد مصاهرتك شرفا لها . وليس معنى هذا أن تتزوجى رجلا ساقط القيمة . بل يجب أن يكون موهوبا مجملا بالمزايا الشخصية. جديرا باحترامك واحترام الناس .

وانى أتصور صوفى جديرة بحرية الرأى والاختيار . فهى مطبوعة على الحرية ولذلك ستدقق كثيرا فى اختيار سيدها الذى تنزل له عن حريتها. واتخيلها كذلك لها عواطف الايطالية ورزانة الانجليزية وأنفة الأسبانية.

واستجابة لرغبة والديها تقوم عمة لها أو خالة بتقديمها للأسرات الكريمة ، وتصحبها الى المجتمعات والحفلات ، كى يراها الناس . وهى بجمالها وذوقها وبساطتها تجتذب القلوب .فيتهافت الشبان الحسان على معرفتها . ولكنها بعد حديث أو حديثين تنفر منهم .لأنهم لا يوافقون هواها .

وبمضى الأيام تظهر على صوفى أعراض الشرود والهزال ،فتضطرب أمها وتقبل عليها تسألها ما خطبها . وبعد مراوغة سببها الخجل ،تنتهى صوفى بالاعتراف لأمها بحقيقة متاعبها .

— ما أشقانى يا أماه ! أشعر بحاجتى الى الحب . ولا أرى شيئا يسلينى عن تلك الحاجة . وقلبى ينفر من جميع من يجتذبون حواسى. أجل ما من واحد ممن رأيتهم الا وأثار رغباتى . ولكنى لم أر منهم واحدا يستحق احترامى . ورغبة بلا احترام لا يمكن أن تتقبلها الحياة .

وقد صدقت صوفى . فليس ما يلزمها أى رجل ، بل يلزمها رجل معين تحس صورته فى قلبها ولا تستطيع أن تحب أحدا سواه . ولا تستطيع أن تسعد أحدا سواه . ولا تسعد مع أحد سواه . انها تفضل الهزال والعناء بل الموت والشقاء على الحياة مع رجل لا تحبه ،يشقيها ولا تسعده .

وتحار الأم ثم تضبطها ذات يوم تبكى وعلى صدرها كتاب .فتتناول الأم الكتاب وتفتحه فاذا به مغامرات « تليماك » ولا تفهم السر فى أول الأمر . ولكن بعد استجواب طويل ومناورات تدرك أن ابنتها تعشق الفتى «تليماك» بطل القصة عشقا لا شفاء لها منه .وضحكت أمها وضحك أبوها من هذا الحب الخيالى وظنا أن بوسعهما صرفها عن ذلك

الحب بالحيلة والاقناع ،ولكنهما لم يلبثا أن اكتشفا صواب ذلك .فالفتاة متمسكة بحبها ، تعبد حبيبها وترفض أن تصرف أنظارها الى أحد من بني آدم الأحياء . وكانت حجتها في ذلك :

— أروني رجلا بهذا الكمال في المزايا وأنا على استعداد للزواج منه . أما قبل ذلك فلا تلوموني بل اعذروني . فأنا شقية عاثرة الحظ ولست مخبولة . وهل يخضع القلب للارادة ؟ هل الذنب ذنبي ان كنت أحب من لا وجود له ؟ اني لست مغالية في شيء . ولا أريد الزواج من أمير . ولا أريد كذلك الزواج من « تليماك » فهو ليس سوى صورة خيالية . ولكني أبحث عن شخص يشبهه .فلماذا يمتنع وجود هذا الشبيه؟ دليلي على ذلك اني موجودة ، وأنا أشعر أن لي قلبا يشبه قلب « تليماك » . لا ينبغي أن نسيء الظن بالبشرية . انها لم تعقم . ولا يليق أن تتصور أن تلك الفضائل الانسانية السامية محض أوهام . بل أن صاحب تلك الفضائل موجود على قيد الحياة . وربما كان يبحث عني الآن . يبحث عن نفس تعرف كيف تحبه . ولكن من هو ؟ وأين هو ؟ لا أدري ! ولكنه ليس واحدا من هؤلاء الذين رأيتهم . وأكبر الظن أنه ليس من بين من سأراهم . آه يا أمي ! لماذا غرست حب الفضيلة في قلبي ذلك الغرس المتين ؟ ليس الذنب ذنبي بل ذنبك ان كان ذنبا لأحد اني لا أستطيع أن أحب الا الفضيلة ! .

* * *

اني أكرر ما قلته مرارا من أن الرجل لا يليق به أن يتزوج من طبقة أعلى منه . بل يحسن به أن يختار من هم دونه قليلا أو على شاكلته .ومن المهم جدا مراعاة الكفاءة من حيث الثقافة والعقلية . فان المرأة الجاهلة السقيمة الفكر لا تصلح مربية لأطفالها . ولا شريكة لزوج ذي عقل وفطنة. ولكن لا أحبذ أن تكون المرأة من صاحبات النبوغ . فان النبوغ سيخلق

لها مجدا شخصيا يغنيها عن التماس الفخر فى انتسابها الى زوجهـا ، وقيامها بواجب الأم والعقيلة . وهذا هو السبب فى أنى أنادى بأن تبقى كل فتاة ذات نبوغ عانسا بغير زواج طول حياتها .

وننتقل بعد ذلك الى الشكل . فالشكل أول ما يهتم به الرجال عادة مع أنه آخر ما ينبغي الاهتمام به . فأنا أرى الجمال البارع أحرى أن يهرب منه العاقل الذى ينشد زواجا باقيا . ذلك أن الجمال تخلق جدته بالامتلاك ، وبعد ستة أسابيع لا تبقى له قيمة لمالكه . بيد أن أخطاره تبقى ما بقيت صاحبته على قيد الحياة .

ما لم تكن المرأة الحسناء ملاكا .فان زوجها يكون من أتعس خلق الله واشقاهم . وحتى لو فرضناها ملاكا ،فانجمالها سيخلق الاعداء لزوجها. فلو لم يكن القبح بغيضا ، لفضلته على الجمال البارع ! فبعد قليـل من الزواج يتساوى الأمران فى نظر الرجل من حيث الحس . ويكون الجمال مصدر ضيق ، والقبح مصدر راحة ! .

فخير ما أوصى به هو الشكل المقبول الذى لا يثـير الرغبـة بل الطمأنينة .

هذه هى الشروط التى عن لى أن أنشدها فى صوفى التى تربت على الطبيعة كما تربى اميل . فهى مجعولة له أكثر من أى امرأة أخرى . وهى ند له فى المولد الشريف والفاضل ، وان كانت دونه فى الثروة .

انها لا تسحر الناظر للوهلة الأولى . ولكن سحرها يزداد يوما بعـد يوم بالمعاشرة .فهو سحر يعمل تدريجا ولاينبلج الا بالمعاشرة والمخالطة. ولذا سيشعر به الزوج أكثر مما يشعر به سائر الناس .

وتربيتها لم تكن مفرطة فى الدرس ، فقـد حبتها الطبيعة ذوقا يغنى عن التعمق فى الدرس ، ومواهب بغير صقل أو صنعة ، وسداد رأى بغير معرفة واسعة .

انها على الجملة أرض خصبة لا ينقصها الا البذرة الصالحة كى تنبت نباتا حسنا . وسعيد ذلك الرجل الذى سيتولى بعد الزواج تثقيفها على شاكلته . فلن تكون أستاذة زوجها ، بل تلميذته . ولن تحاول ترويضه ، بل ستتشكل بأذواقه . وذلك أفضل له من أن تكون عالمة . وسيكون باعثا على سروره أن يعلمها كل شىء .

* * *

والآن حان أن نجمع بين اميل وصوفى . فلنبدأ فى التقريب بين خط حياتهما .

لقاء اميل وصوفى

رحلنا عن باريس وقد ملأ السأم منها نفس اميل ، وآمن أنه لم يجد عروسه المنشودة فى تلك البلدة التى تشبه بابل القديمة . واستقبلنا الحقول كالفرسان المتجولين ، نسير على هوانا ، مسرعين تارة ، ومتمهلين تارة أخرى . فقد ربيت تلميذى على الاستمتاع بالسفر ، بحيث لا ينظر اليه نظره الى وسيلة يتعجل الفراغ منها . فالغاية ليست وحدها سبب متعته . بل الرحلة كذلك . وساعد على هذا اعتدال مزاجه بحيث لا تستبد به اللهفة ولا تقضه الرغبة الملحة .

ولهذا لم نكن مسافرين كما يسافر سعاة البريد الذين همهم قطع المسافة فى أقصر وقت ، بل كمسافرين من الرحالة . ولم يكن حالنا حال الجالسين فى المركبات الفارهة ، كأنهم حيوانات فى أقفاص مقفلة ، وقد استولت عليهم الكآبة ، ولم نكن كذلك مسافرين فى رخاوة النساء ورهافتهن . بل فى الهواء الطلق وبين المناظر المبهجة . فاميل لم يدخل فى عمره مركبة بريد . ولن يستخدم البريد الا اذا كان على عجل من أمره . وما الذى يمكن أن يجعل اميل فى عجلة من أمره ؟ انه لا يستعجل شيئا سوى الاستمتاع بالحياة واسداء الخير كلما استطاع ذلك . لأن الخير انما هو أيضا استمتاع بالحياة .

انى لا أتصور الا طريقة واحدة أفضل عندى من ركوب متن الخيل . وتلك هى السير على الأقدام . ففى وسع الانسان أن يرحل وقتما يشاء . وأن يقف عندما يريد . وأن يتأمل المناظر ويدرس الاقليم ، متلفتا ذات اليمين وذات اليسار ، فاذا لمح نهرا سار على شاطئه أو غابة لفاء مشى

في ظلها . أو كهفا جاس خلاله ، أو منجما نظر فى معادنه .فأينما حلا له لبث واستقر .الىأن يدركه الملل ينصرف . فلا ارتباط له بالخيل ولا بالسياس .

وليس السائر على قدميه ملزما بتحرى الطرق الممهدة . فكل موضع يصلح لقدمه . لأنه غير مرتبط الا بنفسه ، ويستمتع بكل الحرية المتاحة لبشر . حتى اذا عاقه عن السير سوء الطقس ، فعندئذ يستطيع أن يركب الخيل حتى لا يحبسه المطر الوابل فى موضعه .

ان السفر راجلا ،هو مذهب طاليس وافلاطونوفيثاغورث فىالرحلة. فلست أدرى كيف يرحل فيلسوف الا راجلا ، حتى لا يحرم نفسه من مشاهدة كنوز الطبيعة التى تعرض نفسها على ناظريه . ومنذا الذىيحب الزراعة بعض الحب ولا يريد أن يعرف المنتجات الخاصة بجو كل موضع يجتازه ، وكيفية زراعته ؟ ومن ذا الذى يميل الى التاريخ الطبيعى بعض الميل وتطاوعه نفسه على اجتياز أرض من غير أن يفحصها ، أو حقل من غير أن ينظر فى اعشابه ونباته ، أو حصى من غير أن يمتحن مكوناته ؟ .

ان فلاسفة السكك يدرسون التاريخ الطبيعى فىمكاتب ،ويحفظون من الطبيعة الباهرة بضعة أسماء يسمونها علما ولا فكرة لديهم عن الطبيعة ذاتها . اما مكتب اميل فهو أغنى من مكاتب الملوك . فمكتبه هو الأرض بما رحبت .

كم من الملذات المتباينة تجتمع فى هذه الطريقة الرائعة للسفر والرحلة . هذا فضلا عن الصحة التى تتوثق أركانها ، والمزاج الذى يزداد بهجة . وقد رأيت كثيرين ممن يسافرون فى العربات الفارهة ، ساهمين شاردين ، سأمانين ساخطين أو معتلين . واما الراجلون فقد رأيتهم على الدوام خفافا لطافا مراحا راضين عن كل شىء ، راضين بكل شىء . فالقلب يهش عند الاقتراب من الوكر أو المأوى . وكم من وجبة خشنة تبدو بعد الرحلة علىالقدمين ذات قيمة ونكهة . وما أحلى الراحة

عندئذ أمام المائدة ! وما اصمق النوم الذى ينعم به الانســان فى فراش خشن ! .

من أراد الوصول الى غايته وكفى ، فعليه بالمركبات ومقاعد البريد. اما من أراد الرحلة حقا ، فليرحل راجلا .

* * *

وبعد خروجنا من باريس ببضعة أيام استهوتنا مناظرالأوديةالصغيرة وشعاب الجبل ،فضربنا فيها آكثر من المألوف . الى آن سدت المسالك فلم نستطع بعد ذلك تقدما . ولم نعثر على طريق العودة . فلم نفزع لهذا الضلال . فكل سبيل فى نظرنا طيب . مادام يوصلنا الى مكان نجد فيه طعاما وكنا جائعين .

ولحسن الطالع عثرنا بفلاح قادنا الى كوخه . فأكلنا بشهوة عظيمة طعامه اليسير .ولما رآنا الرجل متعبين للغاية وجائعين الى درجة كبيرة . قال لنا :

— لو أن الله هداكما الى السفح الآخر للتل . لوجدتما هنالكاستقبالا خيرا من هذا فى دار أهلها من ذوى الرحمــة والســخاء والطيبة . انهم ليسوا خيرا منى طيبة قلب ، ولكنهم أيسر حالا . وان قيل انهم كانوا أغنى من ذلك فيما مضى .

وفى هذه اللحظة هش قلب اميل لذكر طيبة القوم فقال وهو يلحظنى بنظرة ذات معنى :

— هيا بنا يا صديقى الى تلك الدار التى يشهد الناس لأهلها بالخير والبركة . فسوف يسرنى أن أراهم . وربما سرهم آنيرونا . فأنا واثق أنهم سيحسنون استقبالنا .

ووصف لنا الفلاح تلك الدار وصفا دقيقا ، فاتجهنا نحوها متجولين فى الغابات . وفاجأتنا فى الطريق الأمطار . فعوقتنا عن سرعةالسير ولكننا

لم تتوقف . فوصلنا الى البيت المقصود فى المســاء . وكان البيت على بساطته يبدو وجيها فى الضيعة التى تحيط به ، وهو منعزل بنفسه بين الحقول .

وتقدمنا وطلبنا القرى . وأقبل رب الدار فسألنا عن تقسينا بأدب . ولم تفصح له عن غرضنا من الرحلة . وكانت فى الرجل هيبة تنم عن عز سالف . وقد احتفظ من مكانته الغابرة بفطنة خاصة أدرك بها معــدن ضيفيه من سلوكهما فى الكلام . فأدخلنا الدار على الفور . وقادنا الى جناح صغير جدا بيد أنه نظيف وثير ، وأوقدت النيران ، ووجدنا الفرش نظيفا ناصع البياض . والمفارش ذات عطر طيب . وهناك على الجملة كل ما نحتاج اليه . فقال اميل فى دهشة :

ــ كأنما كان هناك من ينتظرنا ! لقد كان الفلاح على حق . فيالها من رعاية ويالها من طيبة وياله من كرم ! ولمجهولين تماما ! كأنى أعيش فى عهد هومير الذى كان أهله يحسنون استقبال الضيف دواما .

وبعد أن جفت ثيابنا المبتلة بماء المطر واسترحنا قليلا ذهبنا الى قاعة الجلوس فلحقنا برب البيت ، الذى قدمنا الى زوجته . فاستقبلتنا بكل أدب ولطف وطيبة . وكانت نظراتها الفاحصة موجهة الى اميل . فكل أم فى مثل ظروفها لا تقع عينها على شاب فى سنه من غير أن تهتم وتتساءل بينها وبين نفسها ، ولو من غير أن تدرى .

وقدم موعد العشاء من أجلنا . فلما دخلنا قاعة المــائدة رأينا فوقها خمسة أطباق . وجلسنا وظل مكان منها شاغرا . ثم دخلت شابة فانحنت بأدب وجلست بحياء فى المكان الخالى من غير أن تتكلم . وحياها اميل ثم انصرف الى طعامه والى الحديث مع رب الدار . وكان الكلام دائرا حول ضلالنا فى شعاب الجبل . فقال رب الدار لاميل :

ــ يبدو لى يا سيدى أنك شاب ظريف عاقل . وهذا يدعونى الى الاعتقاد أنكما وصلتما الى هنا مكدودين . كأبطال قصة تليماك .

ولم يكن اميل قرأ تليماك . بل قرأ « الاوديســية » . فلم يجب بشيء . أما الفتاة فرأيتها تتضرج حمرة حتى جفنيها اللذين عضتهما فوق طبقها . ولاحظت أمها ارتباكها . فأومأت الى الأب فأسرع يغير موضوع الحديث . وجعل يكلمنا عن عزلة حياته بعد أن سلبه الدهر ماله الطائل. وحدثنا عن اخلاص زوجته والعزاء الذي يجده في صحبتها . والحيــاة الطيبة الهينة الهادئة التى يجدها فى عزلته هذه .

ولم يشر فى كلامه الى شيء عن تلك الفتاة .ولكن حديثه كانشيقا. فكف اميل عن الأكل وأخذ ينصت . وعندما أطنب الرجل فىمزايا زوجته وفضلها عليه وعلى سعادته ، اشتدت حماسة اميل فشد على يد الرجل وعلى يد زوجته بحرارة . وتأثرت الفتاة لهذا الصفاء . فجعلت ترمقــه بنظراتها خلسة كي تتمعن في ملامحه . فوجدت فيهشبها كبيرا بمعبودها « تليماك » . وتملكها حياء خفى .

أما الأم فلم تكف طول الوقت عن ملاحظتها . فلما رأت اضطرابها كلفتها بقضاء حاجة . فنهضت ثم عادت بعد دقيقة وفىعينيها أثر البكاء . فعاتبتها أمها لبكائها كلما ذكرت على مسامعها متاعب والديها فىحياتهما.

— ألا تكفين عن هذا يا صوفى ؟ .

ووقع الاسم على أذنى اميل وقعا شديدا . فهذا هو الاسم الذى أطلقه على مثل المرأة التى ينشدها . وجعل يدقق فيها النظر فى شيء من الرهبة والحذر . فانه لا يرى لها تلك الملامح التى طالما خالها . وهــو لا يدرى أيضا هل التى يراها أفضل من التى خالها أم العكس .

وجعل يدرس كل لمحة . وكل حركة . وكل ايماءة . فزاد اضطرابه وزادت حيرته . وتمنى لو نطقت بكلمة واحدة كي يسمع صوتها . ونظر نحوى نظرة فهمت منها أنه يريد مني أن أخف لنجدته .

وكان اميل أقل أهل الأرض دراية بالتكلف والتمويه . وكيف يمكن

أن يخفى أعظم اضطراب عرض له فى حياته وهــو تحت أنظار أربعــة أشخاص يرقبونه . ولعلها أقلهم انتباها فى الظاهر اليــه ، وأشــدهم اهتماما به ومراقبة لحركاته . فلم تفتها الفطنة الى حالته . وأدركت أن هذا القلق ليس حبا بعد . ولكن ما أهمية ذلك ؟ انه مشغول بها وهذا حسبها .

وعيون الأمهات ليست أقل دقة من عيون الفتيات . لذا ابتسمت أم صوفى لنجــاح خطتها . وأدركت أن هــذا الفتى الرقيق الطيب أصلح ما يكون لابنتها . فيجب أن لا تضيــع الفرصة . فاستحثت ابنتها على الكلام .

وتحدثت الفتاة بعذوبةصوتها الطبيعيةوفىحياء زاد من تأثير صوتها. ومن أول مقطع أيقن اميل أن هذه هى فتاته بعينها . وتدفقت فتنة هذه الحسناء الصغيرة على فؤاده تدفقا أسكره . فوجم لا يتكلم . ولا يجيب عن الأسئلة . لأنه لا يرى شيئا سوى صوفى . ولا يسمع أحدا سوى صوفى . فان قالت كلمة فغر فاه . وان غضت بصرها غض بصره . وان تنهدت تنهد . فكأنما تحولت نفسه فى لحظة واحدة وارتبطت بروحها .

وهكذا ودع اميل حريته وانطلاقه وصار قلقا محيرا جبانا يخشى أن ينظر حوله خشية أن يجد العيون ترقبــه . ويخجله سلوكه فيزداد خجلا وارتباكا .

اما صوفى فكان اضطراب اميل يطمئنها . فهو آية انتصارها . وهى بذلك النصر مزهوة .

ولم تغير شــيئا من مسلكها الظاهــرى . الا أن قلبها كان يخفق مرورا رغم حيائها .

ومن البديهى أن تلك الليلة الأولى لم يقضها اميل فى النوم . بل قضاها ساهرا يحدثنى عنها . فهل جن جنونه حتى يلقى بمصيره ويفتتن

بفتاة مجهولة لم يتحدث اليها من قبل ولم يعرفها الا ذلك اليوم ؟ تريث أيها الشاب ودقق . فأنت لا تدرى على التحقيق من هم مضيفوك . ومن يراك الآن يعتقد أنك جملت من دارهم دارك .

ولكن الوقت لم يكن وقت وعظ . ومثل هذه الموعظة لا جدوى منها على كل حال . فهى لا تزيد الفتى الا ولوعا بالفتاة .

وفى الصباح صدق ما توقعته . فقد عنى بمظهره وزينته ما استطاع على غير العادة . وغالبت الضحك ، لأن الثياب الداخلية والقميص كانت مما اتحفنا به مضيفونا عوضا عن ثيابنا المبتلة القذرة من غبار السفر . وتوقعت أن أجد صوفى وقد تأنقت بمثل عنايته . ولكن خاب ظنى فان هذا التبرج الرخيص ليس من شيم مثلها . بل على العكس وجدتها فى ثوب أبسط من ثوب الأمس . وقد أهملت زينتها بعض الشيء . ولكن فى مستوى من النظافة لا يبارى . وأدركت أنها تهدف الى غاية بعيدة . فهى لا تريد أن تسحر بزينتها وزخرفها ، بل بشخصها .

فالمحب الحقيقى لا يعنيه ماذا ترتدى محبوبته وكيف تبدو .وصوفى واثقة بنفسها وسلطانها عليه . فأرادت أن تفرض ذلك السلطان بغير حيلة وبغير مساعفة من المظاهر ..

ولست أشك فى أن الوالدين تحدثا أيضا تلك الليلة فى صدد اميل. فاننا عندما طلبنا منهما الاذن لنا بمعاودة الزيارة وافقا على الفور ولم تقل صوفى شيئا ولكن وجهها احمر . وكان واضحا من طلبنا أن وراءه مغزى معينا . وان وراء اجابته استجابة لهذا المغزى .

لقد سمحا لنا بالعودة ولكنهما لم يدعوانا للبقاء . وهـذا تصرف سليم . فلا بأس بتقديم المأوى والطعام لشاب جائع عابر سبيل . ولكن ليس من اللائق أن يدعى عاشق للمبيت فى بيت مع معشوقته .

وما كدنا نغادر ذلك البيت المضياف حتى خطر لاميل أن نقيم فى

تلك الجـيرة لا نبرحها . وأن ننزل فى أقــرب كوخ . وكانّ يرى ذلك الكوخ أبعد مما ينبغى . فلو تركته لهوى نفســه ، لبات فى الخنــدق المحيط بدار المحبوبة . فقلت له فى لهجة الاشفاق :

— أيها الطائش ! هل ذهب الحب برشادك وأعمتك العاطفة ؟ ألا تقيم وزنا للياقة والعقل ؟ انك تظن نفسك عاشقا . فهل يقدم المحب الصادق على تلويث سمعة محبوبته ؟ ماذا سيقولون عنها اذا علموا أن شابا بات ليلته فى دارها ثم خرج ليقيم عن كثب منها لا يريد أن يتحول عن جوارها القريب ؟ أهذا هو جزاء كرم والديها ؟ .

فأجابنى بحماسة وحدة :

— ماذا يعنينى من كلام الناس وشكوكهم الهوجاء ؟ . ان تعلقى بها لم يسبب لها الخزى . بل الفخر .

فعانقته وأنا أقول له :

— انك تفكر فى نفسك . ففكر فيها قليلا .

وجعلت أبصره بما سيلحق بها من أذى ، من جراء سلوكه ذاك . وكيف أن سمعة الفتاة تخدشها الرهبة ، وليست كسمعة الرجل فى ذلك الصدد .

وفزع الشاب من النتائج التى أوضحتها له ، وتأثيرها السيىء على الفتاة التى أحبها قلبه . ولما كان اميل متطرفا دواما فى أفكاره ، فانه لم يعد يتصور أى مكان فى الاقليم يبعد بعدا كافيا عن دار صوفى . فضاعف الخطى كى يفر بأسرع ما يمكن عن هذا الموضع . وراح يتلفت فيمــا حوله كأنه يخشى أن يكون قد سمع نجوى قلبه سامع . فانه ليؤثر أن يضحى بسعادته ألف مرة على أن يعرض شرف محبوبته لأهون الأضرار . أجل انه ليفضل ألف مرة ألا يراها بعد ذلك بتاتا على أن يسبب لها أقل تكدير . وكانت هذه أول ثمرة جنيتها من تربيتى هذا القلب على الحب ، فشب يعرف كيف يحب محبة حقيقية .

ان المطلوب الآن هو العثور على مأوى بعيـد ، ولكنه على مدى الرحلة السريعة . وبحثنا ، وتقصينا ، فعلمنا أن هناك مدينة على مسافة مرحلتين . فذهبنا اليها نفتش فيها عن مسـكن ، وفضلناها على قرى أقرب منها يكون مقامنا فيها محل ريبة ومثـار فضـول . والى هنـاك وصل العاشق المحدث ، وقد طفح قلبه هياما ، وفاض أملا وسرورا ..

ولم ينس اميل أن علينا تجهيز أنفسنا فى مسكننا الجديد بما يلزم لمدة من الاستقرار ، بما فى ذلك من ثياب وجياد وخدمة . وما أن فرغ من ذلك ، حتى امتطينا متون الجياد وذهبنا فى أتم رونق ، وبأقصى سرعة الى قبلته المنشودة . وكانت هذه أول مرة أراه فيها يسرع فى الرحلة ، لأن مراده كان الوصول ، لا لذة الارتجال .. وهذا دأب الحب .. متى تفتح له القلب ، انصرف ملولا عن كل شىء عداه فى الدنيا ..

وأخيرا وصلنا الى غايتنا . وكان الاستقبال الذى قوبلنا به هـذه المرة أشد بساطة وحرارة من الاستقبال الأول ، لأننا لم نعـد غرباء . وتبادل اميل التحية مع صوفى فى شىء من التحرج ، ومن غير أن يتبادلا كلمة واحدة . وماذا عسى أن يقـولا فى حضـورنا وعلى مسمع منا ؟ ان الحديث الذى يمكن أن يدور بينهما ويشتاقان اليه ، حديث لاحاجة به الى شهود ! .

ونزلنا للنزهة فى البستان ، وقد ألحـق به حقـل للخضر مترامى الأطراف ، حديقة للفواكه المثمرة من جميع الأنواع والأصناف ،تخترقها الجداول والنهيرات ، وتتخللها أحواض الزهر اليانع المتباين الألوان والأعراف . .

وبعد قليل ، وجد الشابان المتحابان صعوبة فى تقييـد سرعتهـما الشابة بسرعة خطواتنا ، فاذا بنا نراهما وقد سبقانا بمسافة غير قليلة .

وكانت صوفى تبدو متيقظة هادئة ، اما اميل فكان يتكلم ويلوح

بيديه فى حرارة . ويبدو أن موضوع الحديث بينهما لم يكن مسئما لهمـــا ! .

وبعد ساعة طويلة قررنا العودة ، وناديناهما ليعودا ، فدارا ولكنهما أقبلا يمشيان ببطء هذه المرة . وكان واضحا أنهما يعملان على كسب الوقت . وأخيرا توقف الحديث بينهما فجأة ، قبل أن يصبحا على مرمى السمع منا ، وضاعفا سرعة خطاهما ليلحقا بنا .

وبدا اميل حين وصل الى موضعنا هاشا ، تفيض عيناه بالبهجـة . ولكنه حولهما نحو أم صوفى فى شيء من القلق ، ليرى كيف سيكون استقبالها له الآن .

واما صوفى ، فلم تكن مستطارة اللب فرحا مثله ، بل كانت شديدة الاضطراب لأنهـــا كانت فى خلوة مع الشـــاب ، وهى التى كانت فى مثل هـــذه الخلوة مع كثيرين جـــدا غيره ، من غير أن يظهـــر عليها الضيق اطلاقا ..

وأسرعت صوفى نحو أمها ، وقد تلاحقت أنفاســها بعض الشيء ، وأخذت تغمغم ببضع كلمات لاتعنىشيئا ،وكأنها تريد أنتدعىأنها كانت هناك منذ وقت طويل .

وأدركت أن هذا الحديث الانفرادى رفه كثيرا وخفف العبء عن قلبيهما الشابين . أجل انهما ليسا أقل تحفظا واحتشاما فى سلوك أحدهما نحو الآخر ، ولكن هذا التحفظ صار أقل تحرجا واضطرابا . انه تحفظ ليس له سبب الا احترام اميل لها ، وحياء صوفى الطبيعى ، ومن أمانتهما وشرفهما معا .. فقد يتجاسر اميل فيقدم على توجيه كلمة اليها ، وقد تتجاسر هى على الرد ، ولكنها لا تفتح فاها للرد الا بعد أن تلقى نظرة على وجه أمها وعينيها .

اما التغير الملحوظ الذى طرأ على سلوكها ، فكان نحوى أنا ، فهى

تبدي لي احتراما زائدا ، وتنظر الي باهتمام ، وتكلمني بمودة ، وهي مهتمة للغاية بكل ما يدخل السرور والرضى على نفسي . فعلمت أنهـا تشرفني بتقديرها ، وأنها معنية بالحصول على تقديري لها . وأدركت أن اميل لابد قد حدثها عني ، فكأنهما تآمرا معا على كسب عواطفي . وسرني أعظم السرور أن صديقي الشاب جعلني من موضوعات حديثه الانفرادي الأول مع حبيبته . فهـأنذا قد جنيت ثمرة ما تكبـدته من عناء في تربيته . فصداقته وحبه العميم لي هما أكبر جزاء وأوفاه . .

وتكررت الزيارات تترى ، وتوالت المحادثات الانفرادية بين الشابين ، حتى ثمل اميل بخمرة الحب وخال أنه وصل الى ذروة هنائه . ومع هذا لم يحصل من صوفي على اعتراف بحبها له . فهي تكتفي بالاصغاء اليه ولا تقول له شيئا . واميل يعرف حياءها ، ولذا لا يدهش من تحفظها. ويعلم أنه ليس هينا عليها ، وأن مكانته لديها غير يسيرة . ويعلم أيضا أن الوالدين هما اللذان يزوجان الأبناء والبنات . فخيل اليه أن صوفي تنتظر أمرا في ذلك الصدد من أبويها . فطلب منها الاذن في التماس يدها من أبويها ، فلم تعارض .

وحدثني اميل في الأمر ، فحدثت والديها باسمه ، وفي حضوره . وكم كانت دهشته حين علم أن صوفي تملك زمام نفسها كله . وأن بيدها وحدها أن تستجيب له وتسعده ! .

وبدأ اميل يعجب ويحار في فهم سلوكها . وأخذت ثقتـه تتضـاءل وتنحسر ، وفزع اذ رأى نفسه أقل حظوة ونجاحا مما كان يقدر ..

ولم يستطع اميل أن يحدس العقبات التي تعترض سبيل سعادته . وما لم يخبره بها أحد ، لما عرفها ما عاش ، وصوفي أشد عزة وأنفة من أن تصارحه بشيء من ذلك .

والحقيقة أن تلك العقبات التي تعوق صوفي عن قبول حب اميل ، كانت حرية أن تستحث فتاة سواها على القبول ! .

وجلية المسألة أنها كانت قد تعلمت عبرة مأساة حياة والديها . وهي فقيرة ، واميل ثري . فكيف يبدو تقديرها له نزيها وبينهما هذا الفارق العظيم في الثراء ؟ .

وكان اميل لا يدري ولايحس أنه غني ، فقد ربيته بحيث يستمد كنزه من قلبه لا من كيسه . أما أمواله التي هبطت عليه بحكم نسبه فلا يرى لها أدنى قيمة . ولهذا لم يستطع أن يحدس سر احجام صوفي ،وعزا ذلك الى عيب في نفســه . فمن ذا الذي يطاوعه قلبه أن يرمي بالنزق معبودته ..

ولم يعد يقترب من صوفي بتلك الثقة الجميلة التي يعرفها المحبون المحبوبون ، بل صار رعديدا مرتجفا أمامها . وعمل على كسب عطفها باثارة شفقتها ، بعد أن تلاشى أمله في اثارة حبها وحنانها . وكان اليأس يستولي عليه أحيانا ، وينفد صبره ، ويكاد يصل الى حد الغيظ .ويبدو على صوفي أنها شاعرة بما يعتمل في نفسه ، فتنظر اليه ، فاذا بهــذه النظرة كافية لفل سلاحه ، وازالة غيظه ، فيغدو أسلس قيادا مما كان من قبل ! .

ولما أعيته الحيلة في هذا العناد الذي لا يقهر ، وتلك المقــاومة التي لا تلين ، جاء يفضي بمكنون قلبه وجواه لصديقه القــديم ومربيــه . ويطلب منه العون والنصح :

— اني لفي حيرة مدلهمة ! فهي مهتمة بشأني ، وليس عندي في ذلك أدنى شك . ولا تتحاشى لقائي ، بل تسر به ، وحين انصرف عنها تبدي الاستياء . ولا تضن علي برأيها ، وأحيانا تطلب الى القيام بتصرف معين، بل وتأمرني بلهجة من لها الحق في الأمــر . ولكنها مع هــذا تأبى أن تستجيب لتوسلاتي . واذا تجاسرت على الكلام عن الزواج ، فرضت على الصمت فرضا . فاذا زدت على ذلك كلمة واحــدة ، غادرتني على

الفور . ترى ما هو السبب ، بل السر الغامض الذى يجعلها تريدنى أن أكون لها ، من غير استعداد لمفاتحتها فى أن تكون لى ؟ فيجب أن تقوم أنت ، وأنت الحظى بحبها وتبجيلها ، بحملها على الكلام ، والافصاح عن ذلك السر . انك بذلك تتوج عملك العظيم فى تربيتى .

وتحدثت الى صوفى فى الموضوع ، ولم أجد عناء كبيرا فى انتزاع السر ، ذلك السر الذى كنت أعرفه حدسا قبل أن تطلعنى عليه . ولكنى وجدت عناء أكبر فى استخراج اذنها لى باطلاع اميل على ذلك السر .

ولما شرحت الأمر لاميل ، زادت دهشته الى حد كبير .ولم يفقه شيئا من وجهة نظرها الدقيقة . أجل لم يستطع أن يفهم كيف أن جنيهات هناك أو هنا ، تزيد أو تنقص ، يمكن أن تؤثر فى قيمة الشخص أو خلقه. ولما بينت له العرف السائد عند الناس فى هذا الصدد ، أخذ يضحك . ثم استبد به السرور وقد خطر له الحل الموفق السعيد ، وهو أن ينطلق فورا ، فيحطم كل شىء ، ويمزق كل شىء ، ويتنازل عن كل شىء ،ليكون جديرا بالزواج من صوفى وهو فى مثل فقرها .

فبادرت استوقفه وأنا أضحك من حماسته واندفاعه :

— رويدك ؟ أما آن لهذا الرأس أن يعرف النضج والرزانة ؟ أبعد أن قضيت عمرك حتى الآن فى التفلسف ، لا تعرف كيف تفكر تفكيرا سليما ؟ من أين لك أن تعلم أنك باتباع هذه الخطة التى اعتزمتها ، لا تزيد موقفك سوءا ، ولا تجعل صوفى أشد عنادا واحجاما ؟ فلئن كان ثراؤك يعتبر امتيازا ضئيلا يرفعك فوقها فتحجم عنك أو تتردد فى الزواج منك ، فان تنازلك عن هذا الثراء سيكون امتيازا ضخما يزيد من الهوة بينكما ، ويضخم الحوائل . ولئن كانت كرامتها تأبى عليها أن تقبل منك التضحية الأولى ، فكيف يمكن أن تقبل منك التضحية الثانية ؟ لئن كانت تأبى أن يقال ان زوجها أغناها من ماله ، فكيف تطيق أن يقال ان زوجها افتقر من أجلها وتجرد بسببها من أمواله؟

كلا أيها الصديق ! بل أوصيك أن تزداد قصدا فى نفقتك ،حتى لايقوم بذهنها أنك تحاول اكتساب حبها بالبذخ أو الحيلة ! ثم هل تظن أنها تكره حقا الثراء الطائل والمال الكثير ؟ كلا يا عزيزى اميل . بل انها تخشى أثر الثراء فى نفس صاحبه . فالأغنياء يغلون قدر المال ،ويقدمونه على كل مزية وفضل . ويعتقدون أن من ينفقون عليه مالهم مدين لهم بدين لا يستطيع أن يقوم به مهما أسدى لهم من خدمات .فانظر لنفسك ماأنت صانع كى تبدد من نفسها هذه الشكوك والمخاوف . عرفها بنفسك معرفة أوثق وأصدق ، فليست المسألة بنت يوم وليلة .وأطلعها على كنوز قلبك النبيل ، كى تؤمن أن مزايا روحك ترجح بكثير كفة ثروتك التى يشبهك فيها الكثيرون . وبطول المثابرة ، والمصابرة ، والأناة ، تصل الى التغلب على مقاومتها ، واذا بها تنسى فى كرم نفسك غناك . أحبها . اخدمها . واخدم والديها الجليلين . وبين لها أن هذه العواطف ليست وليدة نزوة طارئة أو شهوة عارضة رعناء بل هى صادرة عن مبادىء راسخة لا تمحى من أعماق قلبك . وأظهر الاجلال الصحيح لفضل هؤلاء الناس الذين أخنى عليهم الدهر ، فهذا هو الطريق الوحيد الى قلبها .

* * *

وكان لهذا الكلام وقع ساحر على نفسه ، فامتلأ بالأمل بعد اليأس، والثقة بعد الانكسار ، لأنى لم أطلب منه لكسب محبة صوفى ورضاها الا ما هو مشوق الى فعله من تلقاء نفسه .

وهكذا ألفيت نفسى موضع السر من الحبيبين ،وصاحب نجواهما ومستشارهما فى وقت واحد ، كل منهما على حدة . ويالها من مهمة جليلة لمرب فاضل ! فانى لم أشرف بعمل من أعمالى طول حياتى ، كما شرفت فى عين نفسى بهذه الثقة التى احرزتها لدى الشابين . وأدرك الوالدان هذا فزاد تقديرهما لى ، لانهما اعتمدا على فى حفظ الحدود بين الشابين،

من غير أن يتدخل الوالدان فى ذلك بنفسيهما . واما الفتاة نفسها فكانت تغدق على من رعايتها ما لم آكن غافلا عن السر فيــه ! فهى تصب على ما تشتهى أن تصبه على اميل لولا الحياء ! واميل يدرك هذا ، ويتعزى حين ترفض الاتكاء على ذراعه للنزهة ، لأنه يراها تفضل عليه ذراعى ! وينظر الى نظرة فصيحة يقول لى بها :

— يا صديقى .. أحسن الحديث عنى ! .

ثم يتبعنا بنظراته فى اهتمام ، ويجتهد أن يقرأ أفكارنا ومشــاعرنا ويترجم أقوالنا عن ملامحنا واشاراتنا ، عالما أن ما نقوله لا يمكن أن يكون عديم الأهمية .

وبمرور الوقت ازدادت جرأة اميل ، وصار يتمسك بحقوقهباعتباره محبا صريحا . فيتكلم ، ويلح ، ويتوسل ، ويعاتب . ولا يبالى أن يجابه من أحد بقسوة ، ما دام يقول ما يريد كاملا . الى أن حصل منصوفى — بعد لأى — على كسب واضح ، اذ صارت تعامله صراحة بسلطان الحبيبة ، فتأمره بما تريد ، بدلا من التوجه اليه بالرجاء ،وتطالبه بالقيام بأعمال وتصرفات فى خاص شأنه . وصــارت هى التى تنظم مواعيــد الزيارات وعددها . وتحرم عليه أحيانا المجىء قبل يوم كذا ، أو المكث بعد الساعة كذا . ولا تفعل ذلك على سبيل الهزل أو المزاح ، بل على سبيل الجد ، واستخدام السلطة المعترف بها منه ، وبشدة كانت تجعله يندم أحيانا على منحه اياها هذه الحقوق .

ومهما كانتتأمره يفعل بلا تردد أو معارضة . ولا يناقشها اطلاقا . وأحيانا كان ينظر الى وهى تلقى أوامرها نظرة حبور ، وكأنه يقول :

— انظر يا صديقى ! لقد صارت تشعر أنها مالكة زمامى ! .

وكانت الماكرة ترمقه أحيانا خلسة ، وتبتسم خفية ، مزهوة بسرور حبيبها لتسلطها عليه .

* * *

والآن ، وقد أمسى اميل متلهفا حقا على الظفر باعجاب صوفى ، بدأ يشعر بقيمة المواهب الطيبة التى أحرزها . فصوفى تحب الغناء .وها هو يغنى معها . بل ويمضى الى أبعد من هذا ، انه يعلمها الموسيقى . وصوفى متوقدة الحيوية خفيفة الجسم والحركة ، تحب القفز . فهو يرقص معها، ويطور قفزاتها الى خطوات ويحسنها حتى تتقنها .

ان هذه الدروس ساحرة ، تدغدغ الروح بمرحها وتبعث فيهما الحيوية ، فيخف ما فى حبهما من تحفظ مبعثه الحياء ، فمن المسموح به أن يعطى الحبيب هذه الدروس لحبيبته فى شيء من يقظة الرغبة الحسية.

ولدى صوفى بيان عتيق مختل ، فيقوم اميل باصلاحه وضبطه . وهو أيضا عازف قيثارة ونجار ماهر . وقد أعد نفسه ليكون قادرا على مساعدة الناس فى كل فن وفى جميع الظروف .

وبيت صوفى فى موقع جميل . وقد استغل اميل هذا الجمال فى صنع مناظر مصورة ، كانت صوفى تساعده أحيانا فى رسمها ، وتزين بها مكتب والدها . وكان اميل يضع لهذه الصور اطارات غير مذهبة . ولكنها غنية عن التذهيب .

وبمراقبة اميل وتقليده استطاعت صوفى أن تتقدم فى فن الرسم محتذية به ، وكذلك تقدمت فى جميع الفنون الأخرى . وتذكر والداها يسارهما القديم عندما وجدا الفنون الجميلة تحيط بهما روائعها . وجمل الحب دارهما . فالحب يستطيع أن يجمل من غير نفقات ولا عناء ما لا تستطيع أن تجمله الثروة الطائلة بكل متاعبها .

وكما يثقل عبد الصنم صنمه بالذخائر والنفائس ، ويزين مذبحه بالكنوز . كذلك يجتهد المحب فى تزيين محبوبته ولا يكف عن اضافة مزيد من التحف اليها . أجل انها ليست فى حاجة الى شيء من ذلك كى تظفر باعجابه ولكنه فى حاجة الى تزيينها تكريما لها واعزازا . فكأنه يرى أن كل حسن ليس فى موضعه الصحيح ما لم يزين جمالها الكامل ..

وكان مضحكا ومؤثرا معا أن ترى اميل متلهفا على تعليم صوفى كل ما يعرفه . من غير أن يبحث أو يتساءل هل ما يعلمه لها يوافق هوى منها أو لا يوافق .

انه يحدثها عن كل شيء . ويشرح لها كل شيء بلهفة صبيانية . وكأنه يعتقد أنها ستفهم عنه بمجرد القول . وكأنه يرى جميع معارفه لا جدوى منها ما لم تصلح للعرض أمام عينيها . ويكاد يحمر خجلا من كل شيء يعرفه ولا تعرفه هي .

ها هو اذن يعطيها دروسا فى الفلسفة . وفى الطبيعة .وفى الرياضيات. وفى التاريخ . وفى آن واحد ودفعة واحدة . وتسر صوفى من رغبته واهتمامه ، وتجتهد فى الاستفادة منهما .

وفن التفكير ليس غريبا على النساء . ولكن لا ينبغى لهن عدم التعمق فى العلوم العقلية . فها هى صوفى تدرك كل شيء ولكنها لا تعى فى ذاكرتها شيئا كثيرا . وأعظم ما تحرزه تقدم فى الأخلاق والأمور المتصلة بالذوق . أما الطبيعة فلا تحفظ منها الا فكرة يسيرة عن القوانين العامة وعن نظام العالم . وأحيانا ، أثناء نزهاتهما ، كان يتأملان اعاجيب الطبيعة ، فيتجه قلباهما البريئان الطاهران نحو الخالق .

وتصور عاشقين فى ميعة العمر يقضيان خلوتهما فى الحديث عن الدين ! .

* * *

وعلى الرغم من هذا التفاهم الطيب ، لم يكن يخلو الحال من خلافات ومشاحنات قليلة . فالفتاة ليست خلوا من النزوات ولا الفتى خلوا من حدة الطبع . بيد أن هذه العواصف الصغيرة تمر سراعا . وتزيد من ارتباطهما . حتى أصبح اميل عن تجربة لا يخشى هذه العواصف كثيرا. لأن الصلح الذى يعقبها امتع من الغضب الذى تحدثه .

ولم يكن اميل جسورا . ومن جهة أخرى لم تكن صوفى بالفتاةالتى تسمح له بتجاوز الحدود . ولكن الحكمة لها أيضا حدها فى كل شىء . فكان أبوها يخشى أن تكون أقرب للصرامة منها للتسامح .

وفى خلواتهما ، لم يكن اميل يجسر أن يطلب منها أقل حظوة . وحينما تدس ذراعها تحت ذراعه أثناء النزهة ، قلما كان يتجاسر أن يضغط ذراعها على صدره وهو يتنهد .

وأخيرا ، بعد كبت طويل ، تجاسر على تقبيل ثوبها خلسة . وأسعده أن تتجاهل ذلك بضع مرات . وفى ذات يوم أراد أن يصنع هذا صراحة. فصدته . فأصر . فغضبت وندت عنها وهى مغيظة كلمات جارحة . فلم يتحملها اميل صامتا . وانقضى ذلك اليوم فى خصام . وافترقا فى نهايته ساخطين .

وذهبت صوفى الى صديقتها أمها . فكيف تخفى عنها أساها ؟ فهذا أول شقاق بينها وبين حبيبها . وأفضت لأمها بخطئها . فأوصتها باصلاح الخطأ . وحتم عليها والدها أن تصالح اميل .

وفى اليوم التالى بكر اميل بالحضور أكثر من المعتاد وهو قلق على العلاقة بينهما . وكانت صوفى مشغولة بزينة أمها . وكان الأب فى حجرة زينة الأم معهما . فدخل اميل باحترام ولكن فى حزن . وما كاد الوالدان يفرغان من تحيته ، حتى اتجهت نحوه صوفى ومدت اليه يدها وسألته فى لهجة رقيقة عن حاله . ومن الواضح أن تلك اليد الجميلة لا تمتد هكذا الا لكى تقبل ، فتلقى يدها ولم يقبلها . فخجلت صوفى وجذبت يدها وهى تغالب ارتباكها . ذلك أن اميل الذى لم يألف بعد أطوار النساء ولا يعرف مكان النزوات منهن ، لم يستطع أن ينسى ما حدث بسهولة. ولما وجد والدها أنها مضطربة محرجة ، رفه عنها بدعابته ، الا أن المسكينة كادت تبكى . وغالبت البكاء عبثا فظفرت من عينها دمعة .وما

ان رأى اميل تلك الدمعة حتى أسرع يجثو على ركبتيه ويتناول يدها فيقبلها بضع مرات . فضحك الأب من كل قلبه وصاح :

— لعمرى انك أطيب مما يجب . فلو كنت فى مكانك لما أغضيت عن حماقاتهن . ولعاقبت الفم الذى أهاننى .

فتشجع اميل بهذا القول .ورمق الأم بنظرة مستعطفة . فخيل اليه أنها راضية . فاقترب وهو يرتعد من وجه صوفى التى أشاحت برأسها ، وعرضت له كى تنقذ فمها وصفحة خد كأنها الورد ،ولم يقنع بها .فقاومته مقاومة هينة . ويالها من قبلة لولا أنها قطفت تحت بصر الأم ! .

وبعد هذه العقوبة النموذجية خرج الوالد لبعض شأنه . وأرسلت الأم صوفى متعللة بحاجة لها . ثم وجهت الخطـاب الى اميـل فى لهجة جادة . قالت :

— سيدى . أعتقد أن شابا فى مثل مولدك النبيل وتربيتك الرقيقة، له عواطف سامية وخلق فاضل ، لا يرضيه أن يجزى صداقة أسرتنـا بالحاق العار بها . وانى أناشدك أن ترجع الى صديقك وأستاذك لتفهم عنه واجباتك . وليقول لك ما هو الفرق بين الألعاب البريئة التى تجرى فى حضور الأبوين ، وبين الاستهتار الذى قد يقدم عليه البعض فى غيبتهما مستغلا فى ذلك ثقتهما أسوأ استغلال . فتنقلب تلك الألعاب البريئـة فخاخا خائنة ..

وبعد هذه الموعظة القصيرة التى كانت موجهة الى شخصيا أكثر مما هى موجهة الى تلميذى ، غادرتنا تلك الأم الحكيمة وأنا معجب ببعـد نظرها الذى جعلها لا تكترث بتقبيل فم ابنتها أمام عينيها ، قدر اكترائها بتقبيل ثوبها بعيداً عنها فى خلوة . وناقشت الأمر مع اميل وأفهمته ما فى ذلك من جوهر الأمانة ورعاية الثقة .

وحدث أن صوفى زادت بعد ذلك ثقة من قلب اميل . فاستخدمت

نسيئا من الحرية فى تصرفاتها . وهو نوع من السلوك شائع بين النساء فان المرأة حين تجد قلبها مشغولا بحب أكيد ، لا تهتم كثيرا بالتحفظ مع سائر الشبان لأنها لا تشعر من جهتهم بخطر ولا تخشى منهم مطمعا . وليست نظرتها اليهم نظرة مرشحين لقلبها . فهل شعر اميل بالغيرة ؟ هذا ما يجب النظر فيه . لأن مثل هذه المنغصات تدخل فى موضوع كتابى هذا .

ان جميع الملاحظات فى مملكة الحيوانات تدل على ثوران الغيرة الجامحة لدى الذكور على الاناث . أما لدى الانسان فليس الأمر كذلك . فما دام الزواج قائما على أساس الوحدانية لا تعدد الزوجات ، فالثورة الجنونية للغيرة من جانب الذكور من غير مبرر قوى لا معنى لها .

وعلى هذا الأساس فان اميل العاشق الغيور لا يكون مفتاتا جامحا قاسيا ، بل رقيقا متوجسا . فاهتمامه منصرف الى كسب محبوبته لا الى توعد غريمه . فهو لا يكره هذا الغريم بل يعتبره عقبة فى طريقه يتجاوزها من غير حقد . فكرامته ليست هى الجريحة فى هذا الموقف . بل سعادته هى المهددة بذلك التنافس وهو يعلم فى الوقت نفسه أن أساس التفضيل هو الفضل . ولذلك يضاعف من اجتهاده كى يكون ظريفا محبوبا . ولا يلبث منافسوه أن يفشلوا أمام مزاياه .

ان اميل يحب صوفى ولكن ما هى عناصر فتنتها التى أسرته ؟ انها الحساسية . والفضيلة . وحب الأشياء النزيهة . فهو حين أحب ذلك الحب فى صوفى ازداد حبا لهذه الأمور الرائعة . وكذلك صوفى أحبت فيه تقديره السليم للثروة الحقيقية ، وهذه الثروة هى مزايا الزهد والبساطة والنزاهة والعزوف عن البذخ والترف . وبهذا يكون التآلف تاما بين الحبيبين فى المزاج والأهواء . ولا أخشى على اميل أن يتغير بعد الزواج فى أسلوب معيشته .

زيارة عاطفية

في المرات الأولى من ذهابنا لزيارة صوفي كنا نركب الجياد كي يكون وصولنا أسرع . وتكرر ذلك أربع مرات . لأن القوم كانوا ينتظروننا في ساعة معينة . وفي المرة الخامسة ، على بعد نصف مرحلة من الدار لمحنا قوما على الطريق . فخفق قلب اميل عندما تبين صوفي واقترب منها وترجل عن جواده وأسرع يجري نحوها .

واميل يحب الجياد الجميلة . وكان جواده شديد البأس . فلما أحس بالعنان مرسلا ، أسرع يجري في الحقول . فطاردته على جوادي ولحقت به بعد لأي ، وعدت به . وكانت صوفي لسوء الحظ تخاف الجياد ولا تجسر على الاقتراب منها . الا أن اميل لم يلحظ شيئا من ذلك . فهمست صوفي في أذنه أنه أرهقني بهذا الطراد ، فأسرع اميل خجلان وأمسك بالجياد بعيدا عنها . وفي الرحلة التالية قرر ألا تستخدم الجياد . لأن أحدنا يجب أن يمسكها بعيدا عن صوفي . فاما أن يكون هو المحروم منها ومن صحبتها . أو أكون أنا . وفي ذلك حرج شديد . فقلت له :

— في وسعنا أن نأخذ معنا خادما يعنى بالجياد .

— وهل نرى أن نزيد بهذا الخادم ثقلا على أصحابنا ؟ فلا يكفي أنهم يطعموننا نحن ؟ .

— معك حق . فهم كرماء على ما هم فيه من عسر . ومن عجب أن الأغنياء بخلاء . وأن الفقراء أسخياء .

— هيا بنا نذهب راجلين .

— بكل سرور واني أرى أن الحب لا توافقه الضجة والأبهة .

وذهبنا سيرا على الأقدام . فوجدنا الأم والبنت فى الطريق كالمرة السابقة . وكان اميل يتصبب عرقا فمدت اليه صوفى يدها الحانية بمنديل جففت به خديه . فكان ذلك كافيا لأخذه بسياسة المشى وعدم ركوب الخيل .

ولما كان المسكن بعيدا . كان لابد من العودة مبكرا اليه . ومن القسوة الشديدة على عاشق أن يحرم تمضية السهرة مع محبوبته . وكنا نوغل فى الصيف والنهار آخذ فى القصر . ومعنى ذلك ألا نمكث عند أصحابنا الا برهة وجيزة . ففكرت الأم فى حل يحفظ مظاهر اللياقة .وهو العثور لنا على سكن فى قرية قريبة كى نقضى فيه الليل بين الحين والحين. فصفق اميل بيديه طربا . وعانقت صوفى من غير تفكير .

وشيئا فشيئا زادت الألفة بيننا . وكنت أذهب مع اميل أحيانا وأتركه يمضى بمفرده أحيانا أخرى . فالثقة ترفع الروح . ولا ينبغى أن نعامل الرجل معاملة الأطفال .ثم ما قيمة ما فعلت وبذلت فى تربيته ان لم يكن جديرا بثقتى .

وفى ذات مرة ذهب وحده ، وقد أخبرنى أنه سيبيت فى القرية . فلا يعود الى المدينة تلك الليلة ، رأيته يعود فى المساء ، فقلت له وأنا أقبله :

— ماذا يا عزيزى اميل ؟ لقد عدت الى صديقك .

— وهل تظن انى عدت بهذه السرعة بمحض رغبتى ؟ انها هى التى فرضت على العودة اليك فعدت من أجل خاطرها لا من أجل خاطرك !.

فتأثرت لهذه الصراحة . وقلت له وأنا أقبله :

— أيها الصديق الصريح الصادق . انك تكرمنى بهذه الصراحة التى تترفع عن المجاملة .

وكانت صوفى لا تسمح له الا بزيارتين فى الأسبوع لا تشبعان شوقه.

وفى الأيام الباقية لم يكد يخلد للبطـالة . بل كان ينصرف الى ألوان نشاطه السابقة فى الحرف والزراعة . أو يجوب الحقول ليدرس التاريخ الطبيعى على الطبيعة . ويفحص تربة الأرض ومنتجاتها . وطريقة زراعة كل منها . واذا خطر له تعديل مفيد للزراعة صارح به الفلاحين . وقد ابتدع بنفسه تحسينا أدخله على المحراث . وفى بعض الأحيان كان يشارك الفلاحين بيديه فى العمل . فيدهشون لانهم يجدونه ماهرا فى استخدام أدواتهم كواحد منهم .

وكان يجود على الفلاحين بخبرته وصداقته وبمساعدات مالية للقيام بالاصلاحات التى يقترحها . وأكواخهم التى يراها غير صحية كان يعيد بناءها على نفقته . اما من لا يملك بقرة فكان يشترى له بقرة .

وكان يحدث أن يسمع بفلاح ضعيف يستبد به جار قوى يرهقه . فيعين الضعيف حتى يأخذ له حقه من القوى .

وكان للحب أثره المباشر فى عطفه على المحبين . فان سمع بعاشقين يعوزهما المال للزواج جهزهما للزواج على نفقته .

وسمع ذات مرة بامرأة فقدت ابنها الوحيد فذهب اليها وعزاها تعزية قلبية مخلصة . وقضى لديها النهار بطوله . فهو لا يأنف من المساكين ولا يكره المقام بينهم . وكثيرا ما تناول طعامه لدى الفقراء الذين يزورهم أو الفلاحين الذين يساعدهم . فأشعرهم بالصداقة وبالمساواة بينه وبينهم فى الانسانية .. لانه كان يبذل الاحسان من شخصه وعواطفه قبل أن يبذله من ماله .

لعب وغضب

وكان أحيانا يتجه فى جولاته الى ناحية دار المحبوبة على أمل أن يملأ عينيه منها خلسة ، أو يراها وهى تتنزه من غير أن تراه . ولكن اميل كان دائما مستقيما فى سلوكه . لا يحب الخديعة والمين . وهـذا راجع الى شعوره بالكرامة . ولذا كان يصد نفسه متى اقترب اقترابا حقيقيا من بيتها . حتى لا يجد نفسه متلبسا بالتحايل . فذلك ينزل به فى عين نفسه ان لم يهبط به فى عين صوفى .

كان يكتفى بالجولان فى صحبتها .كأنه يتحرى آثار أقدامها ويتخيل جولاتها وملاعبها فى تلك الربوع .

وفى عشية يوم زيارتها كان يذهب الى القرية حيث يشترى الزهر والهدايا لها . وكانت صوفى تسر بتلك الهدايا اليسيرة وتمتدح اختيارها.

وفى بعض الأحيان كان يحلو لاميل أن يجعل شيئا من هداياه التى يحضرها جائزة يتسابقان رهانا عليها . وهذا التسابق من المعروف أن الفتيات لا يبرعن فيه . لذا كان من السهل على اميل أن يسبقها ويفوز عليها . وكانت هذه الألعاب تشيع المرح فى نفسيهما وتنشط الجسم . وتعتبر من أحسن وسائل تمضية الوقت والتقريب بينهما فى آن واحد .

وفى الأيام التى كنا لا نذهب فيـها للزيارة ، كان اميـل يتسلى بالحرف المختلفة التى تعلمناها معا فيما مضى . فيلتحق يوما فى الأسبوع على الأقل معى للعمل بالأجر لدى صاحب مصنع . ولم نكن نعمل هناك بصورة شكلية على سبيل الهواية التى يمارسها من هم أرفع من ذلك

المستوى . بل في نفس الظروف وخاضعين لنفس الشروط التي يعمل بها سائر العمال عند ذلك الأستاذ .

وكان والد صوفي عندما يأتي لزيارتنا قد يجدنا عاكفين على الصنعة. فلا يلبث أن ينقل ذلك الى ابنته وزوجته وهو متعجب . ويقول :

— هيا نذهب لنرى ذلك الشاب في المصنع . وستريان أنه لا يحتقر أحوال الفقراء ولا يزدريهم ! .

وكانت صوفي تسمع هذا الحديث بلذة عظيمة . وتآمرت الأسرة كي تفاجيء اميل وهو في العمل . وسألوني خلسة أسئلة عرفوا منها ما يريدون . وبعد أن تأكدوا من يوم معين بالذات ، استقلت البنتوالأم عربتهما وحضرتا الى المدينة في ذلك اليوم المعين .

وعندما دخلت صوفي المصنع لمحت في نهايته شابا في صدار مبتذل، وقد تشعث شعره ، وانصرف اهتمامه الى ما يصنعه بيده حتى أنه لم يرها . فوقفت صوفي وأشارت الى أمها . ووقفتا تنظران اليه وهو يعمل بالأزميل والمنشار وغير ذلك من أدوات النجارة .

ولم يثر هذا المنظر الضحك عند صوفي ، بل تأثرت منه . فهو منظر مهيب . وحقا يجب على المرأة أن تجل رئيسها ، فانه هو الذي يعمل من أجلها ، ويكسب لها معاشها ، ويغذوها . فهذا هو الزوج الصحيح.

وبينما هما مشغولتان بملاحظته ، لمحتهما فجذبت اميل من كمه . فالتفت ورآهما . وألقى الأدوات من يده واندفع وهو يبعث صيحةفرح. وبعد أن استقبلهما أعد لهما مكانا للجلوس ثم استأنف عمله . بيد أن صوفي لم تستطع أن تبقى جالسة . فنهضت وأخذت تجوب المصنع وتفحص الأدوات وتتحسس قطع الأخشاب المصقولة . وتجمع نشارة الخشب من الأرض وتنظر الى أيدينا ثم تقول انها تحب تلك الحرفة لانها نظيفة .

وحاولت أن تقلد اميل ، فتناولت فارة وأرادت بيدها البيضاء الرقيقة أن تصقل بها لوحا من الخشب . فانزلقت الفارة ولم تأخذ من الخشب شيئا .

وسألت الأم الأستاذ صاحب المصنع :

— كم تدفع أجرا يا سيدى لهذين الصانعين ؟ .

— انى أدفع يا سيدتى عشرين صلديا للواحد منهما ، فى اليوم ، وأقدم لهما الطعام . ولكن هذا الشاب يمكن أن يربح أكثر من هذا لو أراد . لانه أمهر صانع فى الاقليم .

فأسرعت الأم الى اميل وعانقته وضمته الى صدرها وهى تذرف الدمع وتقول :

— ولدى .. ولدى ! .

وبعد فترة من الوقت قالت الأم لابنتها .

— هيا بنا فلا يجمل أن نغيب أكثر من هذا .

واقتربت من اميل فضربته على خده ضربة خفيفة وقالت له :

— والآن أيها الصانع الماهر . ألا تريد أن تأتى معنا ؟ .

فأجابها بلهجة حزينة :

— انى مشغول . ومرتبط بالأستاذ . فاطلبى منه الاذن .

فسألت صاحب المصنع : هل يستطيع أن يستغنى عنه ؟ فأجاب :

— لا أستطيع . فعندى عمل عاجل يجب تسليمه بعد غد . ولاعتمادى على هذين السيدين رفضت عمالا آخرين تقدموا للعمل . فمن غير وجودهما لا يمكننى تسليم العمل فى اليوم الموعود .

ولم تعلق الأم بشىء . وانتظرت أن يعلق اميل . ولكن اميل أطرق وسكت . فأدهشها هذا السكوت ، وقالت له :

— أليس عندك ما تقوله ؟ .

فنظر اميل الى الفتاة الواقفة بجوار أمها نظرة حنان وقال :

— ها قد رأيت انى يجب أن أبقى .

فانصرفت السيدتان وتركتانا . فتبعهما اميل الى البـاب وشيعهما بنظراته ثم تنهد وعاد ليستأنف عمله من غير أن يتكلم .

وفى طريق العودة أظهرت الأم تأثيرها لابنتها قائلة :

— وهل كان من العسير الى هذه الدرجة أن يرضى صاحب المصنع بأى شيء كى يجيب طلبى ويلبى دعوتى ؟ ان هذا الشاب المسرف الذى يبذر المال بغير ضرورة لا يعرف كيف ينفق النقود فى مناسباتها اللائقة.

فقالت صوفى :

— حاشا لاميل أن يرى للمال كل هـذه القيمة بحيث يستخدمه لفسخ ارتباط شخصى أو تعهد بينه وبين صاحب العمل . وأنا واثقـة أنه كان مستعدا أن يعوض صاحب المصنع عن الضرر الذى سيلحق به من انصرافه اليوم . ولكن هذا كان يجعله مسـتعبدا لسلطان المـال بحيث يعتقد أن المال يعفيه من واجباته ، ويقوم مقام الأخلاق . ولست أحب أن أكون أنا سببا فى تغيير مبادئه هذه . فأنا أعلم أن اميل له طريقته الخاصة فى التفكير . وهى طريقة مختلفة عن طريقة الناس حقا . ولكنها أفضل منها . أتظنين يا أماه أن بقاءه فى المصنع كان هينا على نفسه ؟ ثقى أنه بقى حتى لا يخسر احترامه عندى كرجل حريص على العهد .

ومع هذا لم تكن صوفى متساهلة فى امتيازات المحبة التى لها عند اميل . بل كانت مدققة حريصة على أن يكون حبه لها بالغا أقصى الغاية. فهى تفضل ألا تكون محبوبة اطلاقا على أن تكون محبـوبة بين بين أو حبا يسيرا هينا . فهى شديدة الاعتزاز بكرامتها وكرامة قلبها الذى تعرف قدره . ولذا كانت ترقب سلوك اميل فى كل ما يتعلق بحبه لهـا وتنفيذ رغباتها . فهى لا تقبل منه أن يتأخر عن مواعيده معهـا ولا أن

يتعجل . بل تريده أن يكون دقيقا لأن التقدم عن الموعد معناه أنه يفضل رغبته على راحتها . وتأخره معناه الاهمال .

وقد حدث ذات مساء أنهم كانوا ينتظروننا . ولكننا لم نصل فى موعدنا وانقضت السهرة فى انتظارنا . فظنت المسكينة صوفى أننا متنا واستبد بها العذاب وقضت الليلة فى البكاء . ومنذ المساء كانت قد أرسلت رسولا يتقصى أخبارنا ويعود بها اليها فى الصباح الباكر . وعاد الرسول مع رسول من قبلنا يحمل رسالة شفوية فحواها أننا بخير، وبعد برهة وصلنا . واذا المنظر يتغير كلية . فجففت صوفى دموعها وقد استبد بها الغيظ لأن اميل حى ومع هذا جعلها تنتظره بغير مقتض .

وهمت أن تحبس نفسها فى مخدعها . وألح عليها أهلها أن تبقى . فوجب عليها أن تبقى . بيد أنها لبست قناع الهدوء التام . وأقبل الوالد علينا يقول لنا :

— لقد أقلقتم أصحابكم . وهنا بعض منهم لن يغفروا لكم هذا بسهولة .

فقالت صوفى بابتسامة تكلفت فيها اللطف :

— من تعنى يا والدى ؟ ..

— وماذا يهمك من يكون . مادمت أنت لست هذا الشخص الذى أتكلم عنه ؟ .

فغضت صوفى بصرها ولم تجب . واستقبلتنا الأم بهدوء فاتر . وشعر اميل بالحرج فلم يقترب من صوفى . فبادأته هى بالكلام . وسألته عن صحته ودعته للجلوس فى رقة خدعته عن الحقيقة . وتقدمت أنا فتناولت يد صوفى وهممت أن أقبلها كالعادة ، فجذبت يدها بصورة ملحوظة ، فاتضح الموقف لعينى اميل .

ولما وجدت صوفى أن شعورها افتضح ، لم تكتمه كل الكتمان .

وانقلب برودها المصطنع الى تهكم . فهى تجيب عن جميع الأسئلة بمقاطع من الكلمات بصوت بطىء متعثر . فكاد اميل يموت خزيا وفزعا ، ونظر اليها بألم باحثا عن عينيها عسى أن يقرأ فى نظراتها حقيقة عواطفها . فرشقته بنظرة قاسية جعلته يحول عينيه . ولم يعد الى الحديث معها أو النظر اليها .

ووجدت أن من واجبى التدخل لتوضيح الموقف . فتناولت يدها وقلت لها بكل رقة :

— يا عزيزتى صوفى . نحن مظلومان . ولكنك دائما تؤثرين العدل والعقل . فلا تحكمى علينا من غير أن تستمعى الينا .

ولم تجب بشىء فاستطردت :

— لقد بدأنا السير أمس فى الساعة الرابعة . وكان المفروض أن نصل فى الساعة السابعة . وقطعنا ثلاثة أرباع المسافة حينما شقت أسماعنا أصوات صراخ أليمة صادرة من التل المجاور لنا فأسرعنا الى مصدر الصراخ . فوجدنا فلاحا مسكينا كان عائدا من المدينة على جواده وهو مخمور ، فسقط من فوق الجواد وكسرت ساقه . فأخذنا نصرخ ونستغيث . فلم يرد علينا أحد . فحاولنا أن نعيد الجريح الى ظهر حصانه ولكننا لم نستطع ذلك . لانه كان يصرخ لأقل حركة صراخا فظيعا جدا . فرأينا أن نربط الحصان الى شجرة فى الغابة ثم جعلنا من أذرعنا محفة حملنا فوقها الجريح بأقصى ما نستطيع من اللطف وهو يرشدنا الى طريق بيته . وكان الطريق طويلا والحمل ثقيلا بحيث وجب علينا أن نستريح جملة مرات . وأخيرا وصلنا مضعضعين من التعب . واتضح لنا للأسف الشديد أننا نعرف ذلك البيت تمام المعرفة . وان هذا الفلاح الذى كنا نحمله هو ذلك الرجل بعينه الذى أحسن ضيافتنا فى أول يوم جئنا فيه الى هذه المنطقة وهو الذى أرشدنا الى بيتكم . ولكن ظروف الحادث

والاضطراب الشديد لم يتح لنا معرفته من قبل . ولم يكن فى البيت الا طفلاه الصغيران . وكانت زوجته حاملا . فأفزعها المنظر ، وأخذها المخاض ، فوضعت بألم شديد بعد بضع ساعات . فماذا كنا نصنع فى ذلك الموقف فى كوخ منعزل لا أمل أن نجد فيه من يعين أو يسعفه ؟ لقد قرر اميل أن يعود الى الحصان المربوط فى الغابة فيركبه الى المدينة ليأتى بطبيب . وأعطى الحصان للطبيب ثم عاد على قدميه . بعد أن أرسل اليك من المدينة رسولا خاصا يطمئنك . وأما أنا فكنت أقوم طول الوقت بخدمة الرجل الجريح والمرأة النفساء . ولا أريد أن أمضى فى التفاصيل لانها ليست موضوعنا الأصلى ، ولكنى أقول لك فقط ان اميل عاد من المدينة بعد الساعة الثانية صباحا .وقضينا الليل فى استراحتنا بالقرية . انتظارا لساعة يقظتكم كى نحضر ونؤدى لكم حسابا عن هذا الحادث .

وسكت . ولكن قبل أن يتكلم أحد اقترب اميل من حبيبته وقال لها بحزم وثبات :

— فى استطاعتك أن تقتلينى غما وألما . ولكن لا يمكنك أن تنسينى واجباتى الانسانية . فهى أقدس من واجباتى نحوك . ولن أنزل عنها من أجلك .

ولم تجبه صوفى بكلمة . بل نهضت وطوقت عنقه بذراعها وقبلت وجهه ثم مدت اليه يدها برشاقة لا نظير لها وقالت له :

— خذ هـذه اليد يا اميـل . فهى لك . وكن متى شئت زوجى وسيدى . فسأجتهد أن أكون جديرة بهذا الشرف .

وما ان قبلته بعـد ذلك . حتى استخف بابيـها الطـرب فصفق بيديه صائحا :

— أعد .. أعد ! .

ولم تخيب صوفى رجاءه . فقبلت وجنة اميل الأخرى قبلتين . ثم خجلت فجأة وهربت الى حضن أمها ودست فى صدرها الأموى وجهها المحتقن بحمرة الخجل .

ولا يمكننى أن أصف السرور الذى ساد الجميع . وان كان فى وسعكم أن تتصوروه . وبعد الغداء سألت صوفى هل يبعد المكان كثيرا لأنها تريد أن تزور الزوجين المسكينين . ووافق والداها . لأن عمل الخير دائما يستحق التحبيذ .

وذهبنا فوجدنا الزوجين فى سريرين منفصلين ومن حولهما جماعة من الناس ، يقومون على خدمتهما ، كان اميل قد كلفهم بذلك . ولكن المريضين لم يكونا مستريحين بسبب الألم وبسبب وجود الغرباء . فارتدت صوفى ميدعة . وقامت على تمهيد فراش النفساء . ثم فراش الرجل . وأعانت برقتها وحنانها على تعديل وضعه بما خفف عنه وكأن هذه الفتاة تعرف بالنظر موضع الألم وموضع الراحة .

وبلغ من رقتها أنها — وهى العزوف الأنوف — لم تتراجع أمام الرائحة الكريهة وقذارة المكان . فكأنها ملاك من ملائكة الرحمن فى حنانها ورحمتها وبرها . وكانت نظرات المريضين تنطق بذلك .

وعندما تم تعميد المولود . قام الحبيبان بكفالته . وهما يتحرقان فى أعماق قلبيهما على انجاب مثله .

* * *

وخطر لى أن على واجبا خاصا فى هذه المرحلة من العلاقة بينهما . فانتهزت فرصة انقضاء يومين من غير زيارة لدار صوفى ودخلت عليه حجرته وفى يدى رسالة . وقلت له وأنا أنظر اليه بامعان :

— ماذا أنت صانع ان جاءك أحدهم بنعى حبيبتك ؟ .

فصرخ صرخة عظيمة ونهض يحملق فى وجهى فزعا . فقلت :

— أجب ماذا أنت صانع ؟ .

فضايقه وأذهله هدوئى . واقترب منى وقد احمرت عيناه غيظا . وظهر الوعيد فى هيئته وقال :

— ماذا أنا صانع ؟ لست أدرى . ولكنى على كل حال لن أرى ما حييت من يأتينى بهذا النبأ .

فقلت له وأنا أبتسم :

— رويدك . انها بخير . وتفكر فيك . وتنتظرنا هذا المساء . ولكن هيا الآن نتمش قليلا ونتحدث .

ان غرامه الذى يشغل قلبه لم يعد يسمح له بمحادثاتعقلية خالصة كذى قبل . فيجب لذلك أن نستغل غرامه نفسه فى اثارة اهتمامه بدروسه . وهذا ما فعلته بذلك التمهيد المروع . ولذا كنت واثقا أنه سيصغى جيدا لما أقول :

— اننا يا عزيزى اميل يجب أن نكون سعداء . فهذه هى غاية كل كائن عاقل حساس . وهى أولرغبة تفرضها علينا الطبيعة ولاتفارقنا هذه الرغبة اطلاقا . ولكن أين السعادة ؟ من الذى يعرف أين هى ؟ ان كل انسان يبحث عن السعادة . وما من أحد يعثر عليها . ويقضى الناس حياتهم فى نشدانها . ثم يموتون من غير أن يبلغوها . اننا ما دمنا نجهل ما يجب علينا أن نعمله فالحكمة تقضى بأن نكف عن العمل . وهذا هو المبدأ الذى يجب أن يرعاهالانسان . ولكنه يتجاهله أو يجهله . فان البحث عن السعادة من غير أن نعرف أين هى قد يعرضنا للبعد عنها . ولكن ليس فى استطاعة كل انسان أن يكف عن العمل . ولهذا يفضل الناس العمل مع الضلال على الركون الىالسكون .والقعود عنالتنقيب. ولذا سأجتهد أن أتجنب الضلال فى البحث عن السعادةلك . وقد تحريت منذ البداية أن أجنبك كل خطوة لا لزوم لها . والتزمت طريق الطبيعة

ليقيني أن الطبيعة هي التي ستدلنا على طريق السعادة . فان السعادة ان وجدت لا يمكن أن تجافي الطبيعة . ولهذا شببت يا بني بريئا من الحقد ومن العبودية ، حرا راضيا عادلا طيبا نزيها . ذلك أن العناء والألم يولدان الرذيلة . فالانسان لا يغدو شريرا الا عندما يكون شقيا . وقد قضيت طفولة سعيدة . وأرجو أن تمتد ذكراها الى أيام شيخوختك . وأنا واثق أنك كلما ذكرت تلك الطفولة استمطرت على أستاذك البركات . وقد علمت عندما شببت عن الطوق كيف تشب محبا للحق والخير ، تتجلد للألم وتحب العمل وتقرأ كتاب الطبيعة الكبير . وتتحكم في عواطفك . وتتقشف ولا تعرف انحلال الترف . فليست هنالك سعادة بغير شجاعة ولا فضيلة بغير كفاح وصراع . والفضيلة والقوة صنوان . فالفضيلة لا يمكن أن يتصف بها الا كائن ضعيف بطبيعته قوي بارادته . فالرجل الفاضل حقا هو الذي يعرف كيف يقهر عواطفه وشهواته . لانه عندئذ يستلهم عقله وضميره . ويقوم بواجبه ويلزم جادة النظام . فلا يحمله على تنكبها شيء . وقد كنت يا بني فيما مضى حرا حرية العبد الذي لا تكليف عليه . أما الآن فستكون حرا حقا . ستكون سيد نفسك بأن تتحكم في قلبك وعواطفك . فبهذا يا اميل تغدو رجلا فاضلا حقا . وهذا نوع جديد من الكفاح يحتاج الى رياضة أشق من رياضاتك الأولى . فان الرياضة على متاعب الطبيعة الخارجية تساعدنا عليها الطبيعة. أما ما يأتينا من أنفسنا فلا شأن للطبيعة به وأمره موكول الينا كلية . فالشهوات منا لا من الطبيعة . ولهذا فالينا كل أمرها . وعلينا أن نقاومها مستقلين بجهدنا . وقد كان تعلقك بصوفي أول عاطفة لك وهي عاطفة جديرة بك . فاجتهد أن تكون هذه العاطفة هي الأخيرة كما أنها الأولى. فهي عاطفة نقية نقاء نفسيكما . فاحرص عليها ولا تزل بك القدم في شهوات غير نقية . وانه من الخطأ أن نقسم العواطف الى حلال وحرام.

فنستسلم للأولى ونمتنع عن الأخرى . فكل عاطفة طيبة ما دمنا مسيطرين عليها . وكل عاطفة شريرة سيئة ما دمنا مستعبدين لها . فما يجافي الطبيعة هو التمادي في العاطفة حتى تتجاوز مدى قدرتنا . ويفلت زمامها من يدنا . فنشتهي ما ليس في وسعنا . أو ما يحرمه علينا الضمير النقي . ولئن لم يكن في مقدورنا ان نهوى أولا نهوى . ففي مقدورنا أن نسيطر على هوانا . فهذه هي الفضيلة جمعاء . أجل ان كل عاطفة نسيطر عليها مشروعة . وكل عاطفة تسيطر علينا آثمة .فالرجل الذي يحب زوجة رجل آخر ليس آثما ما دام يخضع هذه العاطفة الشقية لسلطان الواجب والضمير . ولكنه يكون آثما ان أحب زوجته هو الشرعية الى درجة اهدار كل اعتبار في سبيل ذلك الحب . فكن رجلا وتحكم في قلبك . وادرس حدود ارادتك جيدا كي تحبس عاطفتك داخلها جيدا . فانك ان فعلت ذلك كنت فاضلا وعشت سعيدا . ولاتعلق قلبك بالجمال الذي يزول . ولا تتطلع الى رغبات تتجاوز قدرتك . وقدم واجبك قبل هواك . واجعل الأهم في كل شيء قبل المهم وكن مستعدا في كل وقت للنزول عن كل ما هو عزيز عليك متى أوجبت الفضيلة ذلك . فانك ستكون عندئذ سعيدا رغم قسوة الأيام . حكيما رغم ثوران العواطف. وفي رخائك ستكون أنت مالك مالك ، وليس مالك هو الذي يملكك . ولن يزعجك فراق ملذاتك المادية ، فان الحكيم لا تعظم عنده الدنيا ، ولا يأسى على فراقها .

وكان اميل يصغي بانتباه وقلق لما أقول . وكان يتوقع خاتمة كئيبة على ضوء تمهيدي القاسي فسألني :

— ما هو هدفك من هذا الكلام ؟ ماذا تريدني أن أصنع على سبيل الرياضة التي أشرت اليها ؟ رياضة التحكم فيعواطفي وقلبي حتى يتجاوز حبي حدود ارادتي ، ولا يفلت زمامه من يدي ؟ .

— ما أريده منك أيها العزيز . بل ما أوجبــه عليك ، هــو فراق صوفى ! .

— ماذا تقول ؟ أفارق صوفي ؟ أفارقها ؟ أكون خائنا مخادعا نذلا حانثا بالعهد ؟ .

— بل ماذا تقول أنت ؟ أمنى أنا تخشى يا اميــل أن تتعلم هــذه الأمور ؟ .

— لن أتعلمها منك ولا من سواك . لن أفعل ذلك الذى تطلبه منى محافظة على ما غرزته فى نفسى من المبادىء .

وكنت أتوقع تلك الثورة فتركته حتى هدأ . ثم قلت :

أتعتقد يا اميل أن انسانا فى الدنيا أسعد منك في هــذه الشهور الثلاثة الأخيرة ؟ انكقد تذوقت السعادة .بلأتيت عليها كلها واستنفدتها قبل أن تذوق لذات الحياة . فليست هناك سعادة وراء ما ذقتــه حتى الآن . لأن لذة البدن عارضة وتقلل دائما من لذة القلب . وأنت قد تمتعت عن طريق الأمل بما لم تتمتع به عن طريق الواقع . ولو أمكن أن تدوم هذه الحالة بينكما لوصلت الى السعادة العليا . بيد أن الانسان فان . وكل شيء فى حياته عارض . واذا طالت حالة السعادة عليه ذهب التعود بطعمها . وعندئذ يتغير القلب وهــكذا ابن آدم ، ان لم تتركه السعادة تركهــا وها هو الوقت يمــر سريعــا من غــير أن تحس به . انقضى الصيــف واقترب الشــتاء . فيجــب أن نغــير نظــام معيشتنا لأن هذا النظام الحالى لا يمكن أن يدوم .. ولو تتجنبرحلاتنا اليومية فى ثلج الشتاء . وان كنت أحسبك تستهين بالثلج فى ســبيل رؤيتها . انك تريد أن تتزوج صوفى . وقد تفكر فى التعجيل فى الزواج الآن حلا لاشكال الشتاء والجليد والقال والقيل . ولكنك لم تعرفها الا منذ خمسة شهور أو أقل . تريد أن تتزوجها لا لأنك تراها ملائمــة

صالحة لك . بل لأنها تروق لك . كأنما الحب لا يخطيء في تقريب المتباينين غير المتلائمين . وكأنما الزواج القائم على الحب يستحيل أن ينقلب الى كراهية! أنا أعترف أنها فاضلة . ولكن هذا لا يكفى ؟ هل يكفى الشرف كي يصلح أساسا للمعاشرة وملاءمة الطباع ؟ ان طبع المرأة لا يبدو في يوم وليلة وأربعة شهور لا تصلح أساسا للحكم على العمر كله . وربما كان غياب شهرين كافيا كي تنساها . وربما كان غيابك فرصة لرجل آخر كي يجليك عن قلبها . وربما عدت بعد شهرين لتجدها فاترة نحوك . فالعواطف لا تعرف المبادىء . ومن الجائز جدا أن تظل شريفة وقد أقلعت عن حبك . وان كنت أرجح أنها ستظل أمينة لعهدك . ولكن من يدريك ؟ لابد من التجربة والتجربة خير برهان . فأقدم على التجربة بنفسك الآن ، قبل أن تفرض التجربة نفسها عليك بعد فوات الأوان ، ان صوفى في الثامنة عشرة من عمرها . وأنت لم تكد تجاوز الثانية والعشرين . وهذه سن الحب ولكنها ليست سن الزواج. فأي أب وأي أم ستكونان ؟ يجب على الأقل لكى تقدما على تربية الأطفال أن تتجاوزا أنتما مرحلة الطفولة . أتعرف أن الحمل قبل النضوج يضعف التكوين ويقصر عمر المرأة ؟ وان ذلك يؤثر في صحة الأطفال ؟ ان الأم التى تحمل يتوقف نموها . لتغذى طفلها . فيجب ألا تحمل المرأة قبل تمام نموها . فمن أجل حبها ومصلحتها يجب أن تؤجل هذا الزواج. ثم يجب أن تتأنى من جهتك الى أن تتقن واجبات الزوج والأب . فمتى أصبحت زوجا ورب أسرة أصبحت عضوا في الدولة . فيجب أن تعرف ما هى الدولة كما عرفت واجبك كانسان . وأن تعرف ما الحكومة وما الوطن . ولا يكون ذلك الا عن طريق الرحلة والاسفار ودراسة نظم الحكومة . لهذا يجب أن تفارق صوفى. وأقول تفارقها الى حين. ولا أقول تتخلى عنها أو تهجرها . بل تغادرها كي تعود اليها وأنت أجدر بها . وتطلب يدها وأنت على ثقة من سعادتك واسعادها .

وخطر لاميل العاشق الساذج حل فقال متوسلا :

— أتزوجها ونسافر معا ! .

— ان الرحلة واجبة كي تصبح جديرا بالزواج منها .

— اذن أتزوجها ثم أسافر . وقد اطمأننت واطمأنت .

— أتزوجها ثم تتركها يا عزيزي اميل ؟ أفهم أن يعيش محب بعيدا عن حبيبته . أما أن يعيش زوج بعيدا عن زوجته بغير عائق ضروري فأمر لا أفهمه ولا أعقله . وكي أهون عليك الأمر وتكون صادقا حين تقول لصوفي انك مضطر لفراقها مؤقتا ، سأذكرك بوعدك أن تطيعني الى أن تتزوج . وأنا آمرك الآن بفراق صوفي .

فغض بصره وشرد لحظة ثم قال بثبات .

— ومتى نرحل ؟ .

— بعد ثمانية أيام . اذ يجب اعداد صوفي لهذا الرحيل . فالنساء ضعيفات ويجب أخذهن بالرفق وتخفيف وقع الصدمة عليهن .

* * *

وكان وقع الصدمة على صوفي شديدا حقا . ولكنها تجلدت مستعينة بقدرة النساء الفطرية على اخفاء شعورهن . وقمت أنا بالترفيه عنها مؤكدا لها أن اميل سيظل محافظا على عهدها .

وكان الوداع شاقا على نفسي . ولا سيما عندما قبلتني صوفي وأوصتني والدمع يسيل من عينيها أن أسهر على اميل وأرعاه .

وكان وداعها لأميل بالغا حد الروعة . فقد شحب وجهها وغامت عيناها . وتناول يديها يضمهما الى قلبه وقد تحولت الى تمثال من الأسى واللوعة .

الأسفار

يتساءل الناس هل من المفيد للشبان أن يسافروا ، وقد كثر خلافهم في هذا الموضوع .

والحقيقة أن اساءة استخدام الكتب تقتل العلم ، لأن القارىء يخال أنه يعلم ما قرأه ، فيعتقد أنه معفى من تعلمه . والحق أن الافراط في القراءة لا يؤدى الا الى خلق الأدعياء الجهلاء . فعصرنا هو أكثر العصور الأدبية نصيبا من عدد القراء ، ومع هذا فهو أقل العصور نصيبا من عدد العارفين .. وليس في جميع دول أوروبا دولة يطبع فيها أكثر مما يطبع في فرنسا من التاريخ وكتب الأسفار والرحلات . ومع هذا فليس هناك بلد أقل من فرنسا معرفة بخصائص الشعوب الأخرى وأخلاقها . فان تلك الكتب تجعلنا نهمل كتاب الدنيا الكبير ، وحتى حين نقرأ ذلك الكتاب ، يتمسك كل واحد منا بالصفحة التي يقف عندها ولا يتجاوزها.

ان الباريسى يعتقد أنه يعرف البشر عموما . مع أنه لا يعرف الا الفرنسيين . وهو في مدينته الحافلة بالأجانب ينظر الى الأجنبى كأنه ظاهرة خارقة لا نظير لها في الدنيا . ومن رأى أهالى الطبقة الوسطى في تلك المدينة الكبيرة وعاشرهم سيدرك مدى ما هم عليه رغم ذكائهم من غباوة وقلة فطنة . والغريب أن كل واحد منهم قرأ عشر مرات على الأقل وصف بلد ذلك الأجنبي الذى يدهشه كل تلك الدهشة .

وانها لمهمة شاقة أن يقاوم الانسان المزاعم التى يوردها المؤلفون ، ومزاعمه الشخصية ، كى يصل الى الحقيقة . وقد قضيت عمرى أطالع كتب الأسفار . ولم أجد من بينها كتابين يعطيان فكرة واحدة عن شعب

بعينه . وحينما أقارن القليل الذى أمكننى ملاحظته بنفسى بما قرأته فى تلك الكتب ، أجدنى نادما على ما أضعته من وقتى فى مطالعة كتب الرحالين . ويزدادَ اقتناعى بأن تلك الموضوعات لا يجمل تحصيلها بالقراءة ، بل بالمشاهدة .

ولو أن جميع الرحالين أخلصوا وصدقوا ، لما قالوا الا ما رأوا وما اعتقدوا . ولم يموهوا الحقيقة الا بالألوان الخادعة التى تتراءى بها لعيونهم .

فلنترك اذن الكتب ومطالعتها لأولئك الذين يقنعون باستقاء معلوماتهم منها . فهى لا تصلح الا لحشو أذهان وشقشقة لسان .. فأنا أومن ايمانا راسخا بأن الشخص الذى لم ير الا شعبا واحدا لامعرفة له بالبشر . فحينما يتساءل بعضهم عن جدوى الأسفار للشبان ، يجب أن يتساءلوا من باب أولى : هل يكفى للرجل الحسن التربية أن يعرف مواطنيه فحسب ؟ أم ينبغى له أن يعرف البشر عموما ؟ .

والسؤال بهذه الصيغة لا يثير خلافا ، ولا يبعث على الريب والشقاق .

ولكى ندرس البشر . أيجب علينا أن نجوب الأرض كلها ؟ هل يجب أن نذهب الى اليابان وأن ندرس جميع أفراد السلالة ؟ .

والواقع أن هناك أناسا يتشابهون جدا . حتى انه لا لزوم لدراستهم فرادى . فمن رأى عشرة فرنسيين فكأنه رأى الفرنسيين جميعا . ولكن هذا لا يصدق تماما على الانجليز ، وعلى بضعة شعوب أخرى . وان صح أن لكل شعب طابعه الخاص المميز الذى نستخرجه بالاستقراء ، لا بملاحظة فرد واحد ، بل بملاحظة أفراد عديدين ، وليس يكفى للمثقف أن نجوب الأقطار والديار . بل يجب أن نعرف كيف نسافر . فمن يلاحظ يجب أن يكون له عينان . وأن يدير عينيه نحو الموضوع الذى يريد معرفته . فهناك

أشخاص كثيرون تعلمهم الأسفار أقل مما تعلمهم قراءة الكتب . لأنهم يجهلون فن التفكير . وهم حينما يقرأون الكتب ينقادون على الأقل لعقل المؤلف . اما حين يسافرون فلا يعرفون كيف يشاهدون ويلاحظون.. لأن فطنتهم الشخصية كليلة .

وكان الأقدمون قلما يسافرون . وقلما يطالعون . وقلما يؤلفون . ولكن يتضح من القليل الذى بقى لنا من آثارهم أنهم كانوا يحسنون الملاحظة فيما بينهم خيرا مما يحسن مواطنونا ملاحظة مواطنيهم . ولا حاجة بنا للايغال الى هومير . الشاعر الوحيد الذى ينقلنا الى الموضع الذى يصفه بقوافيه . اذ يكفى أن نرجع الى هيرودوت . فلا يستطيع أحد أن ينكر عليه براعته في تصوير الطباع والأخلاق فى تاريخه . مع أنها ترد على سبيل السرد لا على وجه التعليق والتأمل . وهو يجيد ذلك خيرا مما يجيده مؤرخون على كثرة حشد كتبهم بالصور والنماذج .

وتاسيتوس أحسن وصف الجرمان فى زمنه . خيرا من أى كاتب وصف الألمان فى زماننا هذا . ولا شك فى أن المتضلعين فى التاريخ القديم يعرفون الاغريق والقرطاجنيين والرومان والغال والفرس خيرا من معرفة الشعوب المعاصرة لجيرانهم .

ويجب الاعتراف بأن الخصائص الأصلية للشعوب تتلاشى يوما بعد يوم . ويصبح من العسير ادراكها والفطنة اليها . فالأجناس تختلط وتتزاوج . والشعوب تتداخل ، وبهذا يختفى التباين القوى الذى كان يلفت النظر فيما مضى لأول وهلة . ففى الزمن الغابر كانت كل أمة تظل مغلقة على نفسها . لأن المواصلات كانت أقل مما هى اليوم . والأسفار أقل . والمصالح المشتركة أو المتعارضة أقل أيضا . والعلاقات السياسية والمدنية بين شعب وشعب معدومة . وكذلك المحادثات والمفاوضات الملكية المألوفة اليوم . والسفارات العادية أو المقيمة باستمرار . وأما الرحلات

الملاحية الكبيرة فكانت نادرة . وكذلك التجارة البعيدة . فالمتاجر البعيدة كانت ان حدثت تحدث لحساب الأمير نفسه . والأمير يستخدم عادة الأجانب أو التافهين الذين لا يؤدون صورة صادقة للشعب . واما اليوم فالعلاقات بين آسيا وأوربا أكثر ألف مرة مما كانت بين الغال وأسبانيا . فأوروبا وحدها كانت أكثر تشتتا من الأرض بأكملها فى وقتنا الحاضر .

وقد يقال ان لدينا اليوم علماء يسافرون لتحصيل الثقافة . وهذا خطأ . فالعلماء يسافرون طلبا للمصلحة مثل سائر الناس . فلم يعد اليوم وجود لأمثال افلاطون وفيثاغورث . لأن علماءنا لا يسافرون الا بأمر من البلاط الملكى الذى يرسلهم ويدفع لهم الأجر لمشاهدة كذا وكيت . وهم قوم أمناء للأجر الذى يتقاضونه . فيحصرون مشاهدتهم فيما كلفوا به .

وهناك فرق جسيم بين السفر لمشاهدة بلد ولمشاهدة شعب .فمشاهدة بلد أمر يهتم به المتطفلون والمستطلعون . ولا يهمهم الشعب الا فى المرتبة الثانية . اما من يسافرون طلبا للحكمةفهم عكس ذلك لأن الطفل يلاحظ الأشياء الى أن يكبر فيلاحظ الناس . أما الرجل فيجب أن يبدأ بملاحظة الناس . وان بقى من وقته شىء لاحظ الأشياء .

فمن سوء التفكير أن يقال ان الأسفار لا فائدة منها . تأسيسا على أننا نسىء السفر . ولكن متى اتفقنا على جدوى الأسفار ، هل يتبع ذلك أن الأسفار تلائم جميع الناس ؟ .

هيهات ! انها لا تلائم الا أقل القليل من الناس . لا تلائم الا ذوى الحزم والصرامة على أنفسهم بحيث يستخلصون من أخطاء الشعوب دروسا من غير أن تغويهم تلك الأخطاء . فينساقوا اليها .وبحيث يجدون العبرة من الآثام والرذائل ، من غير أن ينزلقوا اليها . ذلك أن الأسفار تدفع بالفطرة الى نهايتها القصوى . فتتم على الرجل صلاحه أو فساده

الفطرى . فمن عاد من الجـولان فى الأرض عاد مالكا لصـورته التى سيبقى عليها ما عاش . فاما صالحا واما فاسقا بصورة واضحة .

ان الشاب الذى ساءت تربيته يجد فى الأسفار مجالا فسيحا لاشباع بوادر فساده . فيلتقط من الشعوب التى يخالطها شر ما لديها . اما الشاب الذى حسنت تربيته فيسافر بقصد التثقيف . ويعود من أسفاره وقد تمت له الحكمة والفضيلة عن طريق ميدانها الفسيح .

وعلى هذه الصورة ستكون أسفار اميل .

* * *

ان كل ما يصنعه العقل يجب أن يخضع لقواعده . ومتى اعتبرنا الأسفار جزءا من التربية فيجب أن تكون لها قواعدها .

ان من يسافر بقصد السفر انما هو جوال آفاق . اما من يسـافر بقصد الثقافة فلا بد أن يكون له موضوع معين . لأن الثقـافة التى لا هدف لها بالذات ، ليست شيئا على الاطلاق . ولهذا أود أن يكون للشاب اهتمام محسوس بالثقافة . وهذا الاهتمام المختار اختيارا جيدا هو الذى يحدد طبيعة ثقافته . وهذا الاهتمام يجب أن يكون على صورة مصلحة . واثارة الاهتمام أو المصلحة هى الأسلوب الذى حاولت دائما تطبيقه فى التربية .

والآن وبعد أن عالجنا العلاقات المادية بينه وبين نظرائه من الكائنات، والعلاقات الأخلاقية بينه وبين سواه من الناس . يتبقى أن نعالج علاقاته المدنية مع مواطنيه . ولهذا يجب أن يبدأ بدراسة طبيعة الحكومة على العموم . والصور المختلفة للحكومة . والحكومة المعينة التى ولد فى ظلها . كى يرى اميل هل من المناسب له أن يعيش فى ظلها أم لا . ذلك أن هناك حقا لا يمكن أن ينقض لكل انسان متى بلغ رشده وملك زمام أمره ، أن يكون حرا فى التنازل عن العقد الذى يربطه بالمجتمع المعين ، وذلك بمغادرة الاقليم الذى يستوطنه ذلك المجتمع .

وتعتبر الاقامة فى ذلك الاقليم بعد بلوغ الرشد تأكيدا ضمنيا للارتباط الذى تعهد به أجداده قبل ولادته . وحق البالغ من التنازل عن وطنه مثل حقه فى التنازل عن ميراث أبيه . فان محل الميلاد هبة من الطبيعة . وكل انسان حر فى رفض التقيد بمحل ميلاده الا باختياره .

سأقول لاميل اذن ، على سبيل المثال :

— انك عشت حتى الآن تحت رعايتى . لانك كنت قاصرا عن توجيه نفسك وحكم نفسك . بيد أنك تقترب الآن من السن التى تتيح لك الشريعة فيها التصرف فى أموالك والتصرف فى شخصك . وستجد نفسك وحيدا فى المجتمع . ويجب قبل أن تتزوج أن تعرف أى رجل تريد أن تمسى . وفيم تريد أن تقضى حياتك . وما هى الوسائل التى تعتزم اتخاذها لكسب معاشك ومعاش أسرتك . فمع أن هذه المسألة الأخيرة ينبغى ألا تكون هى المشغلة الأولى أو الوحيدة الا أنها ينبغى أن تعالج وتسوى مرة واحدة . فهل تريد أن تعيش تابعا لقوم تبغضهم؟ أم تريد أن تمارس العلاقات المدنية التى تجعلك تحت رحمة غيرك ، وتجبرك على أن تكون لصا كى تنجو من شر اللصوص ؟ .

وعندئذ سأوضح له وسائل توظيف ثروته سواء فى التجارة أو الأعمال المالية . وسأبين له أن جميع تلك الوسائل لا تخلو من مخاطرة . ومن ارتباط وتبعية . بحيث يتقيد فى اخلاقه وعواطفه وسلوكه بالآخرين. سأقول له :

— وهناك وسيلة أخرى هى دخول الخدمة العسكرية . أى تأجير شخصك بأجر طيب جدا ، كى تقتل قوما لم يتعرضوا لك بأذى من أى نوع . وهذه المهنة لها مقام كبير لدى الناس . وهم يحترمون احتراما فائقا من لا يصلحون الا لذلك العمل . وسترى أن هذه المهنة لاتستلزم من أصحابها شجاعة أو بسالة أو جرأة الا لدى النساء . فأقل الناس

شرفا وكرامة سيكون أحسنهم وصولا الى الحظوة والتكريم . أما من يتعرف الى اجادة مهنته العسكريةفحسب فيمسيأضحوكة زملائه .وربما طرد من الخدمة . فميدان الجندية الأكبر ليس الخنادق بل حجـرات الزينة ومخادع النساء ! .

وأنا واثق أن جميع هذه الأمور سوف لا تجد هوى من اميل . وأحسبه سيقول لي :

— وهل نسينا ألعاب طفولتي ؟ وأين ذراعاى ؟ وأين قوتي ؟ ألست أحذق أنواع الصـنائع ؟ فلماذا أهتم بتلك الوظائف الوجيهة ولماذا أكترث لآراء الناس البله . انى لا أعرف مجدا ولا جاها الا جاه عمل الطيب والاحسان والعدل . ولا أعرف سعادة الا سعادة حياة الاستقلال مع من أحب ، أكسب كل يوم مزيدا من الصحة ومن الشهية لنهوضي بالعمل . فجميع الأعمال التي حدثتني عنها لا تغريني . وكل مرادى من الدنيـا ضيعة صغيرة فى ركن من أركان الدنيا . أصرف همي الى زراعتها وأعيش بلا هموم . بين صوفى وحقلى . وذلك حسبى من غايات الثراء .

— اجل يا صديقى . هذا كاف لسعادة رجل حكيم . ولكن الحقل والمرأة المخلصة شيئان نادران . أندر مما تظن وأندرهما المرأةوقد وفقك الله اليها . بقى أمر الحقل الذى تشعر به خالصا لك وحدك . فأين عساك تجده يا عزيزى اميل وفى أى موضع تختاره ؟ فى أى ركن من الأرض تستطيع أن تقول أنا السيد هنا . سيد نفسى وسيد هذه الأرض ؟ انك قد تجد الأرض الخصبة ولكنك لم تجد الحـرية فيها والاسـتقلال عن الناس والسلطان . أتظن أنه من اليسير أن يجد الرجل الشريف أرضا يتاح له فيها أن يظل شريفا . بمنجاة من الدسائس والقضايا والقيود التى تفرضها السلطة على الحرية ؟ أين هى الدولة التى يستطيع أن يقولفيها الانسان ان الأرض التى أزرعها لى وحدى ؟ يجب يا اميل قبل أن يقر

قرارك على اختيار الحقل أن تتأكد من ضمان حريتك وأمنك فيه . فلا تغتصب الحكومة حريتك . ولا ترهقك سلطات الدين . ولا تكبلك أحكام العرف السائد . يجب أن تكون بمنجاة من الضرائب الباهظة التي تأكل ثمرة كدك والقضايا التي تأكل رأس مالك . وموظفي الحكومة الذين يغتصبون مالك بالرشوة ، والجيران الأقوياء الذين يكلفونك من أمرك رهقا . انى أكثر منك خبرة يا اميل . ولهذا أدرك ما في رغبتك من عسر ومشقة ، على ما فيها من شرف واخلاص وامانة . ولو تحقق لك ذلك لتمت سعادتك فهيا بنا نخصص السنتين القادمتين للبحث عن الدولة التي تسمح لك نظمها بهذه الحرية حين تختار حقلا في أرضها لتزرعه بيديك . سنجوب كل أوروبا بحثا عن هذا الملاذ المنشود الذي تتحصن فيه سعادة أسرتك من الظلم والجور بجميع أنواعهما .

* * *

ولست أدرى هل فطن جميع قرائي الى أى مدى سيسوقنا هذا البحث الذى اقترحته على اميل ولكنى أعلم جيدا أنه ان لم يعد من هذه الأسفار متضلعا فى جميع شئون الحكومات والعرف العام والأخلاق ونظم الدولة ، فمعنى ذلك حتما أن أحدنا ــ هو أو أنا — محروم من الذكاء أو الفطنة .

ان القانون السياسى لم يزل فى مرحلة الولادة . بل انه لم يولد بعد .وربما طال المخاض فلم يولد اطلاقا . وجروتيوس أستاذ جميع العلماء فى هذه الناحية ليس الا طفلا . وأسوأ من هذا أنه طفل سيىء النية . وعندما أسمع أحدا يرفع جروتيوس الى عنان السماء — ويمطر هوبز باللعنات ، أدرك على الفور مدى قلة ذوى الرأى الذين يقرأون ويفهمون حق الفهم هذين المؤلفين .

والحقيقة أن مبادىء المؤلفين واحدة تماما . ولا خلاف بينهما الا فى

التعبير . انهما مختلفان أيضا من حيث المنهج . ذلك أن هوبز يعتمد فى كتابته على الأغاليط . وجروتيوس يعتمد على أقوال الشعراء . وفيما عدا ذلك فكل شيء بينها سواء .

والمحدث الوحيد الذى كان بوسعه أن ينشيء هذا العلمْ العظيم هو مونتسكيو المجيد . بيد أنه اكتفى باثبات القانون الذى تسير عليه الحكومات القائمة ولم يتكلم فى مبادىء القانون السياسى من حيث هو . وشتان بين هذين الموضوعين .

وان من يريد أن يحكم حكما صائبا على الحكومات كما هى كائنة، ملزم أن يجمع بين الدراستين . فيجب أن يعرف ما ينبغى أن يكون كى يحسن الحكم على ما هو كائن . والصعوبة العظمى فى اثارة اهتمام فرد بمناقشة هذين السؤالين والاجابة عنهما : ماذا يهمنى ؟ وماذا أستطيع أن أفعل فى هذا الموضوع ؟ .

وقد وضعنا اميل فى موقف يجره الى الاجابة عن هذين السؤالين معا .

والصعوبة الثانية تأتى من مزاعم الطفولة والمبادىء التى يربى عليها الشخص ومن انحياز المؤلفين الذين يتحدثون دائما عن الحقيقة من غير أن يهتموا بها اطلاقا ، وانما اهتمامهم كله بمصالحهم التى لا يتحدثون عنها ولا يجرون لها ذكرا . فالشعب لا يمنح كراسى الجامعات ولا المعاشات ولا كراسى المجامع العلمية والأكاديميات . فكيف يمكن أن يقيم هؤلاء المؤلفون حقوق الشعب السياسية ؟ .

وقد دبرت الأمر بحيث ألغى هذه الصعوبة بالنسبة لاميل فقد نشأ طفلا لا يعرف ما هى الحكومة . وكل ما يهمه من الأمر أن يعثر على الحكومة الأفضل . وليس هدفه تأليف الكتب . وان ألف يوما كتابا فلن يكون هدفه منه التغزل فى ذوى السلطان . بل اقامة حقوق البشر .

وتبقى بعد ذلك صعوبة ثالثة ، وهى وضع قواعد للملاحظة قبل الاقدام على الملاحظة وايجاد مقياس تقاس به الأمور التى تكون موضوع الدرس . ومبادىء القانون السياسى هى هذا المقياس . والموضوعات التى ندرسها هى القوانين السياسية فى كل بلد على حدة .

والمبادىء واضحة سهلة مأخوذة مباشرة من طبيعة الأشياء . وستكون موضوع مناقشة فيما بيننا نحن الاثنين . فمثلا سنعود أولا الى حالة الفطرة وسندرس ان كان الرجال ولدوا عبيدا أو أحرارا . مجتمعين أو مستقلين . وهل يتجمعون باختيارهم أو قسرا . وهل القوة التى تجمعهم يمكن أن تنشىء لها حقا دائما . بمقتضاه يكون لتلك القوة حكم الالزام حتى عندما تتغلب عليها قوة لاحقة لها . أو أن تلك القوة الأولى حينما تتغلب عليها قوة لاحقة تسقط . وعندئذ يكون الحكم للقوة القائمة من حيث هى . ومعنى ذلك أن من استطاع مقاومة القوة القائمة فهو فى حل من ذلك . وذلك قانون فيما يبدو لا يزيد كثيرا على القوة الغاشمة وليس اسمه الا تلاعبا بالألفاظ .

وسنبحث أيضا هل يمكن القول أن كل مرض يأتى من الله . وهل يترتب على ذلك أن تكون دعوة الطبيب جريمة . سنبحث أيضا هل نكون ملزمين أمام ضميرنا باعطاء كيس نقودنا لقاطع الطريق متى طلبه منا ، مع أنه فى استطاعتنا أن نخفيه عنه . ذلك أن المسدس الذى يشهره فى وجهنا قوة كذلك .

فان كانت كلمة القوة فى هذه المناسبة يجب أن تعنى شيئا آخر غير القوة الشرعية التى تخضع لقوانين تستمد منها كيانها قوة غاشمة لا سند لها .

ولنفرض أننا طرحنا عنا فكرة الحق القائم على القوة . واننا قبلنا قانون الطبيعة أو السلطة الأبوية أساسا للمجتمعات فيجب أن نبحث عن

مقياس هذه السلطة . وكيف تأسست فى الطبيعة . وهل لهـا سـند سوى منفعة الطفل وضعفه والحب الفطرى الذى يكنه أبوه له . وهل عندما ينتهى ضعف الطفل وينضج عقله يصبح هذا الطفل الحكم الطبيعى الوحيد الذى يقرر ما يلائم حياتهم . فيكون بذلك سيد نفسه مستقلا عن سائر الرجال . حتى عن أبيه . فانه من الثابت أن الابن يحب نفسه . وليس بمثل هذا الثبوت حب الأب لابنه .

وعندما يموت الأب ، يلتزم الأبنـاء طاعة أكبرهم . أو طاعة أحـد سواه لا يكن لهم التعلق الفطرى الذى يكنه الوالد . ثم ان هنالك لدى بعض الشعوب رئيساً أوحد تخضع له العائلة كلها وتطيعه . وعنـدئذ يجب البحث فى كيفية توزع السلطة . وبأى حق يكون فى العالم كله أكثر من رئيس واحد يحكم الجنس البشرى .

ولنفرض أن الشعوب تكونت باختيارها . وأن الأطفال يخضعون لاخوتهم أو أعمامهم . لا قسرا بل باختيارهم . فهل هـذا النـوع من المجتمع يعتبر دواما فى عداد التجمعات الحرة أو الاختيارية .

وننتقل الى حق الرق . فننظر هل يستطيع رجل شرعا أن يبيـع نفسه الى رجل آخر بلا قيد ولا شرط اطلاقا . بمعنى أنه يتنـازل عن شخصه له ، وعن حياته وعن عقله ، وعن ابنته .وعن كل أخلاقيـات أفعاله — أى يكف عن الوجود المستقل من غير أن يموت — مع أن الطبيعة كلفته مباشرة بحفظ ذاته . ومع أن ضميره وعقله يوجبان عليه ما يفعله وما يمتنع عنه .

واذا كان العبد لا يستطيع بيع نفسـه بلا تحفـظ لمولاه . فكيف يستطيع شعب أن يبيع نفسه بلا تحفظ لحاكمه أو رئيسه ؟ واذا ظل العبد حكما فى ملاحظة عقده مع مولاه بحيث لا يتجاوز المولى حدود العقد ، فكيف يحرم الشعب من مثل ذلك الحق ازاء حاكمه أو رئيسه ؟ .

وسنكون ملزمين بالنظر فى معنى ذلك اللفظ الجمعى للشعب . لنرى

هل يجب لقيامه أن يكون هنـاك عقد ضمنى على الأقـل . اذ قبـل اختيار الملك يكون الشعب شعبا . وكيف يكون شعبا من غير عقـد اجتماعى بين أفراده ؟ .

ان العقد الاجتماعى هو أساس كل مجتمع مدنى .ومن طبيعة هذا العقد يجب أن نستنبط طبيعة المجتمع .

وسنبحث محتوى ذلك العقد . وهل يمـكن التعبير عنـه بهـذه الصيغة :

— ان كلا منا يجعل فى الملك المشترك أملاكه هو شخصه وحيـاته وكل قوته ، تحت الادارة العليا للارادة الكلية العامة . وبحيث يعتبر كل منا جزءا غير متجزىء من الكل .

ومتى فرضنا ذلك ، سنلاحظ لكى نحدد الألفاظ التى نحتاج اليها، أن ذلك العقد الاجتماعى ينشىء كيانا معنويا جمعيا ، ولهذا الكيان أو الهيئة أعضاء بعدد أصوات الجمعية العمومية لذلك المجتمع . وهـذا الشخص العمومى المعنوى يسمى عادة باسم الكيان السياسى .ويسميه أعضاؤه باسم الدولة حين يكون سلبيا ، وباسم السلطان حين يكون ايجابيا . وباسم القوة عند مقارنته بالكائنات السياسية المماثلة له . وأما أعضـاء ذلك الكيان السـياسى أنفسهم ، فيطلق عليهم مجتمعين اسم الشعب . ويطلق على كل فرد منهم اسم مواطن باعتبارهم مسـاهمين فى سلطان الدولة . ويطلق عليهم اسم الرعايا باعتبارهم خاضعين لسلطان الدولة .

وسنلاحظ أيضا أن العقد الاجتماعى يتضمن التزاما متبادلا بين الهيئة العامة وبين الأفراد . فان كل فرد كأنه يعقد العقد مع نفسه .فهو مرتبط من جهتين . باعتباره عضوا فى سلطان الدولة بازاء الأفـراد ، وباعتباره عضوا فى مجموعة الرعية بازاء بسلطان الدولة .

وسنلاحظ أنه لا يلتزم أحد الا بعقد عقده بنفسه .فالمشاورات العامة التى يمكن أن تلزم جميع الرعايا ازاء سلطان الدولة ، لا يمكن أن تلزم الدولة تجاه نفسها . وعلى ذلك ينعدم وجود أساس سليم سوى العقد الاجتماعى نفسه . وهذا لا يمنع الهيئة السياسية من الارتباط مع غيرها من الهيئات الاجنبية ، وكأنها فرد عادى .

وكل من الطرفين المتعاقدين ، أعنى كل فرد من جهة ، والمجتمع من جهة أخرى ، ليس لهما سلطة مشتركة أعلى فهما تحسم ما بينهما من خلافات . ولهذا يجب أن نبحث هل من حق كل من الطرفين أن يفسخ العقد متى شاء . ويتنازل بذلك عن نصيبه وحقه ازاء الطرف الآخر .

ونزيد هذه النقطة ايضاحا . فنلاحظ أن السلطان بحسب العقد الاجتماعى لا يملك أن يعمل الا بالارادة المشتركة الكلية .وأفعاله ينبغى ألا يكون لها موضوع سوى الشئون العامة الكلية . ويترتب على ذلك أن الفرد لا يجوز أن يضار بواسطة السلطان مباشرة . ما لم يتم الضير بصفة عامة . وهذا مستحيل لأن معناه أن المجتمع يريد الضرر لنفسه . وعلى ذلك يكون العقد الاجتماعى مستغنيا عن أى ضمان سوى القوة العامة . لأن الضرر لا يمكن أن يحدث من القوة العامة بل من الأفراد . وفى هذه الحالة لا يكون الأفراد أحرارا أو متحررين من التزاماتهم العامة ، بل يجب عقابهم لأنهم انتهكوا التزاماتهم العامة .

ولكى نفصل فى جميع هذه المسائل يجب أن نتذكر على الدوام أن العقد الاجتماعى ذو طبيعة خاصة به وحده . من حيث ان الشعب لا يتعاقد الا مع نفسه . بمعنى أن الشعب من حيث هو هيئة ذات سلطان تتعاقد مع الأفراد من حيث هم رعايا . وذلك شرط يعتبر أساس الجهاز كله . وهو الذى يجعل الالتزامات شرعية معقولة مجردة من الخطر . وهى بغير هذا الأساس تكون سخيفة استبدادية جائرة .

ان الأفراد لا يخضعون الا للسلطان الاجتماعى . ذلك أن هذا

السلطان ليس شيئا سوى الارادة العامة . وسنرى كيف أن كل شخص مطيع للسلطان الاجتماعى لا يطيع فى الواقع الا نفسه . وكيف أن الانسان أكثر حرية بالعقد الاجتماعى مما كان فى حالة الفطرة .

وبعد أن نقارن الحرية الطبيعية بالحرية المدنية فيما يختص بالاشخاص سنقارن بينهما فيما يختص بالأموال . فندرس حق الملكية من حيث علاقته بحق السلطان . وندرس الملكية الخاصة من حيث علاقتها بالملكية العامة . وسننظر هل حق الملكية هو الذى قامت عليه قوة السلطان . وفى هذه الحالة يكون ذلك الحق مقدسا غير قابل للنقض . أما اذا اعتبرنا حق الملكية حقا عاما لجميع المواطنين . فسيخضع للارادة العامة . ويكون من سلطة الارادة العامة أن تلغى حق الملكية عموما . بمعنى أن السلطان ليس له أى حق فى المساس بملكية فرد أو جملة أفراد .ولكن له الحق شرعا فى الاستيلاء على أملاك الجميع بلا استثناء . كما حدث فى أسبرطه أيام ليكرج . فى حين كان اقدام سولسون على الغاء الديون عملا غير مشروع .

ومن حيث ان الرعايا لا يملك الزامهم الا الارادة العامة . فسنبحث عن كيفية ظهور هذه الارادة وعن العلامات التى تتعرف بها عليها وبماذا يكون القانون قانونا . ما هو تعريفه وما هى خصائصه . وهذا البحث طريف للغاية . لأن تعريف القانون لم يتم بعد .

وفى اللحظة التى يقيم الشعب اعتبارا خاصا لفرد أو جملة أفراد من أعضائه ، ينقسم ذلك الشعب على نفسه . وينشأ بين الكل والجزء علاقة كأنهما كائنان منفصلان . وأحد الكائنين هو الجزء . والكائن الآخر هو الكل ناقصا ذلك الجزء . بيد أن الكل ناقصا جزءا ، لا يكون كلا . بل يكون جزءا . وبهذا تكون العلاقة غير قائمة بين الكل والجزء . بل بين جزأين غير متكافئين .

أما عندما يشرع الشعب للشعب كله . فهو لا يعتبر الا ذاته .وتكون

العلاقة علاقة بين الكل من جهة معينة مع الكل من جهة معينة أخرى .من غير انقسام أو تجزئة . فموضوع التشريع يجب أن يكون عاما . وكذلك الارادة المشرعة يجب أن تكون عامة . وسنبحث ان كان يمكن قيام نوع آخر من التشريعات يحمل اسم القانون .

ولما كان السلطان لا يستطيع أن يتكلم الا بقوانين . ولما كان القانون لا يمكن أن يكون له موضوع سوى الموضوع العام الذى يخص بالتساوى جميع أفراد الدولة . فالسلطان لايملك أن يشرع فى مسألة خاصة . ومع هذا قد يحتاج حفظ الدولة . الى اصدار التشريعات فى مسائل خاصة . فيجب أن نبحث عن وسيلة لذلك .

ان تصرفات السلطان لا يمكن أن تكون الا تصرفات الارادة العامة. أى أنها قوانين . ولكن يجب بعد ذلك قيام تصرفات تنفيذية لتلك القوانين . وهى أعمال الحكومة الادارية . وهذه الأعمال ليس لها موضوع سوى الشئون الخاصة الفردية . فالتصرف التشريعى الذى يقضى بانتخاب رئيس للدولة يعتبر قانونا . والتصرف الذى به يتم اختيار ذلك الرأى تنفيذا للقانون عمل من أعمال الحكم .

وسنبحث هل من الممكن أن يتخلص الشعب من حقه فى السلطان ويخلعه على شخص أو مجموعة أشخاص . ذلك أن عملية الانتخاب ليست قانونا . والشعب حين يمارسها لا يكون هو السلطان . ولست أرى كيف يمكن للشعب أن ينقل حقا ليس له . أى كيف يمكن للشعب بما هو رعية أن يمارس نقل حق الشعب بما هو سلطان .

ان جوهر السلطان هو تقومه بالارادة العمومية . فكيف تتثبت اطلاقا من مطابقة ارادة فردية (هى ارادة الرئيس) على الدوام للارادة العامة (وهى ارادة الشعب) بل من المرجح أن تكون هذه الارادة الفردية مخالفة أو مناقضة للارادة العامة . بسبب المصلحة الشخصية التى تدفع صاحبها للتحيز . فى حين أن المصلحة العامة تجنح الى المساواة .وبفرض

أن الارادة الفردية للرئيس والارادة العامة أمكن تطابقهما . فان عدم ضرورة ذلك التطابق ضرورة مطلقة تكفى لانسلاخ صفــة السلطان الشرعى عن الارادة الفردية (للرئيس) .

وسنبحث هل يمكن بغير انتهاك للعقد الاجتماعى أن يكون رئيس الشعب كائنا ما كان الاسم الذى اتخذه عند انتخابه ، يمكن أن يعتبر أكثر من موظف لدى الشعب . أو خادمه الذى يتلقى من الشعب الأمر بتنفيذ القوانين التى أصدرها الشعب . وهل يمكن من غير انتهــاك لحرمة العقد الاجتماعى أيضا أن يعفى هؤلاء الرؤساء من تقديم حساب للشعب عن ادارتهم لشئونه . أو من الخضوع لتلك القوانين عينها التى يطبقونها على سائر الناس .

واذا كان الشعب لا يملك نقل حقه الأعلى الى أحد . فهل يملك أن يعهد بذلك الحق الأعلى بصفة مؤقتة الى فرد أو مجموعة أفراد ؟ أى هل يملك الشعب الذى ليس من حقه أن يتخذ لنفسه سيدا ، أن يتخذ ممثلين نوابا عنه ؟ ان هذه المسألة هامة وجديرة بالمناقشة .

واذا كان الشعب لا يستطيع أولا يملك أن يتخذ لنفسه ملكا أو ممثلين نوابا عنه . فيجب اذن أن نبحث كيف يطبق قوانينه بنفسه .وهل يجب أن تكون له قوانين كثيرة يغيرها ويبدلها فى أوقات متقاربة ،وهل من اليسير أن يكون الشعب الكثير العدد هو المشرع لنفسه بنفسه .

ويسوقنا هذا للنظر فى هل يعتبر الشعب الرومانى شعبا كبيرا .وهل من الخير أن توجد شعوب كبيرة ؟ وهل يحسن أن توجد فى الدولة هيئة متوسطة بين الرعايا وبين السلطان . وهذه الهيئة المتوسطة تتولى الادارة العامة وتنفيذ القوانين وصيانة الحرية المدنية والسياسية .

وليس أعضاء هذه الهيئة ، حكاما . وتسمى مجموعتهم فى جملتها حكومة .

وحينما نعتبر أفعال هذه الهيئة مجتمعة من حيث علاقاتها بالمجتمع

كله نجد أن عضو الحكومة يخضع لأوامر الحكومة باعتباره فردا من الشعب . أى أنه يحكم نفسه . وبهذا الاعتبار يكون عضو الحكومة بمثابة فرد من المجتمع ، له صفتان . صفة المسهم فى الحكم والتشريع . وصفة المسهم فى الخضوع للحكم والتشريع .

ولكن يجب أن تقتصر هيئة الحكومة على تنفيذ القوانين التى يسنها الشعب . ولا تقدم الحكومة على اصدار قوانين من تلقاء نفسها . فان اقدام الحكومة على تجاوز حدود تنفيذ القوانين الى سنها وانشائها يؤدى الى حق الرعية فى رفض الطاعة وتسود الفوضى . فاما أن تنحدر الدولة الى حكم استبدادى هو حكم الطاغية ، أو تنحل عقدتها وتصبح فوضى .

لنفرض أن الدولة تتكون من عشرة آلاف مواطن . فى هذه الحالة لا يمكن اعتبار السلطان الا بصورة كلية . فى حين أن كل فرد من العشرة آلاف له من حيث هو رعية . وجوده الفردى المستقل . فنصيب كل فرد فى هذه الدولة من السلطان بنسبة واحد الى عشرة آلاف . فى حين أن هذا الفرد خاضع للسلطان كلية ، بنسبة واحد صحيح .

فاذا كان الشعب مكونا من مائة ألف كان نصيب الفرد من السلطان الكلى بنسبة واحد الى مائة ألف . أى أن نفوذه ووزنه العام عشر نفوذ الفرد من الدولة السابق ذكرها . ومعنى هذا أنه كلما كبرت الدولة حجما وعددا ، قلت قيمة أفرادها . وتضاءلت حريتهم .

وكلما قل وزن الفرد بالقياس الى سلطان الدولة الكلى ، عظم سلطان الدولة ونفوذها على الأفراد . وأوشك أن يكون نفوذا استبداديا لا مقاومة له .

وعلى هذا الأساس يكون الخلاف فى نسبة حرية الرعايا بين دولة ودولة . ناجما عن اختلاف أحجام الدول .

وقياسا على ذلك قد يمكننا القول ان كثرة عدد أعضـاء الحكومة يؤدى الى توزع السلطان عليهم . مما يؤدى الى ضعف تلك الحكومة وقلة نفوذها .

وتوضيحا لهذه النقطة سنميز فى كل شخص من أشخاص الحاكمين بين ثلاث ارادات . ارادته كشخص .لا يبحث الا عن مصلحته الشخصية. وارادته كحاكم له نصيب من ارادة الحاكمين العامة المشتركة بينهم . وهى ارادة تستهدف مصلحة الحـكومة فحسب . وارادة الشعب أو السلطان وهى أشد عموما من ارادة الحكومة . وبعبارة أخرى يكون عضو الحكومة له ثلاث صفات : صفته كفرد من الناس وصفته كعضو فى الحكومة منفذ للقوانين . وصفته كعضو من الشعب صاحب السلطان المنشىء للقوانين .

وفى التشريعات الكاملة يجب أن تكون الارادة الفردية معدومة تقريبا . وأن تكون الارادة الحكومية محدودة جدا . وأن تكون الارادة الشعبية أى ارادة السلطان العـام للمجتمع هى السـائدة على سائر الارادات .

والمشاهد فى الواقع عكس ذلك فالارادة العامة للشعب هى أضعف الجميع . وارادة الحكومة أقوى منها . والارادة الخاصة لعضو الحكومة من حيث هو شخص له مصالح مقدمة على كل شىء . فالفـرد الحاكم يفكر فى نفسه أولا . ثم فى مصلحة الحكومة ثانيا . ولا يكاد يفكر فى مصلحة الشعب . فهو يضع كونه فردا معينا فى المقـام الأول . وكونه حاكما فى المقام الثانى . وكونه من الشعب فى المقام الأخير . وذلك هو عكس ما يقتضيه النظام الاجتماعى تماما .

وبعد النظر فى تلك الأمور كلها سنرى كيف تكون الحكومة بين يدى رجل واحد . بحيث تجتمع ارادته الشخصية وارادة الحكومة فى مجال واحد . وتتركز غاية التركز .

ومعنى هذا هو السلطان المطلق للحكومة . ويترتب على ذلك أن أشد الحكومات فاعلية وايجابية هى حكومة الفرد الواحد .

* * *

وقد طال الخلاف منذ زمن بعيد حول أحسن صور الحكومة . من غير أن يفطنوا الى أن كل حكومة يمكن أن تعتبر أفضل الحكومات فى حالة معينة ، وأن تعتبر أسوأها فى سائر الحالات ..

واذا كان ما نراه صحيحا من أن عدد الحكام فى أى دولة يجب أن يتناسب تناسبا عكسيا مع عدد المواطنين — ولست أعنى بالحكام سائر موظفى الحكومة ، بل كبار الرؤساء فى الأمة ، اما الباقون فليسوا الا أدوات لهؤلاء — فان الحكومة الديموقراطية تلائم الدول الصغرى . والحكومة الارستقراطية توافق الدول الوسط ،والملكية أو الدكتاتورية تناسب الدول الكبرى ..

وعن طريق النظر فى هذه الأمور سنصل الى معرفة واجبات المواطنين وحقوقهم ، وهل فى الامكان فصل هذه عن تلك . وما هو الوطن ، ومم يتكون بالضبط . وبم يعرف كل امرىء ان كان له أو ليس له وطن ..

وبعد النظر فى كل مجتمع مدنى من حيث هو ، سنقارنه بغيره من المجتمعات كى نعرف العلاقات المختلفة التى يمكن أن تنشأ بين الدول الكبيرة والصغيرة والقوية والضعيفة ، فى حال الخلاف والاتفاق والحرب والسلم ، والمحالفة وغير ذلك . ومن المعلوم أن الاستبداد والحرب هما أكبر الأوبئة التى تصاب بها البشرية .

وسنبحث أخيرا أنواع العلاج التى نشدها الناس لتلك المشكلات عن طريق عصبات الأمم أو اتحاداتها . تلك الاتحادات التى تترك رئيس كل دولة فى موضعه . وتسلح الاتحاد كتلةواحدة ضد أى عدوان غاشم من الخارج . وسنرى هل يمكن اقامة اتحاد فيدرالى طويل الأمد .والى

أى حد يمكنّ بسط حقوق الأتحاد العام من غير اضرار بالسلطان الذى لكل دولة من دول الاتحاد على حدة .

* * *

وسوف لا تكون أسفارنا الى المدن الكبرى . فانها لا تمثل خصائص الشعوب المميزة . بل تتشابه الحياة فى جميعهـا على اختلاف مواطنها . فلن تفيدنا الرحلة اليها مزيدا من علم أو خبرة بأحوال الناس وأخلاقهم وطباعهم . فلا جدوى اذن من زيارتها . بل ستكون أسفارنا الى أقاصى الأرياف . حيث تقل الحركة والتجارة والاتصالات والأسفار وزيارات الأجانب . فهناك تبدى خاصة الشعب واضحـة غير مختلطة بغـيرها . فالفرنسيون لا تجدهم فى باريس علىحقيقتهم . بل فىثورين .والانجليز لا تجدهم فى لندن على حقيقتهم ، بل فى مرسى . والأسبان لا تجدهم فى مدريد على حقيقتهم ، بل فى غاليسيا .

وقد شرح موتسكيو فى كتابه روح القوانين العلاقات الضرورية بين طباع الناس وحكوماتهم . فمن شاء فليرجع الى ذلك الكتاب ليجد أن هناك قاعدتين سهلتين بسـيطتين للحـكم على الصـلاح النسبى للحكومات . والقاعدة الأولى هى قاعدة السـكان . فحيثما يتنـاقص عددهم تنحدر الدولة الى الانحلال . والاقليم الذى يزداد عدده هـو أفضل حكومة ولو كان أفقر مالا . ولست أعرف سوى شـذوذ واحد لهذه القاعدة . وهذا الشذوذ يتمثل فى الصين .

ولكن ينبغى أن يكون ازدياد السكان نتيجة طبيعية لا طارئة .فلايكون ذلك بالاستعمار أو الهجرة المؤقتة . ولا بضغط القانون . فحينما حمل الامبراطور أغسطس على العزوبة وأصدر قوانين ملزمة للعزاب بالزواج كان ذلك ارهاصـا باضمحلال الامبراطورية الرومانيـة ، لأن الزواج الاجبارى بحكم القانون لا يكون نتيجة طبيعية لاخلاق الأمة .

والقاعدة الثانية على الصلاح النسبي للحكومة وقوانينها لهـا صلة بالسكان أيضا ، لا من حيث العـدد الاجمالي . بل من حيث الكثافة وتوزع السكان بالتساوي على ارجاء الدولة . فلا يتجمع السكان في المدن الكبرى على حساب الريف . علما بأن المـدن الكبرى تعيش عالة على الريف .

ولا ينبغي عند دراسة السياسة أن نغتر بشكل الحكومة . بل يجب أن نراقب أثر الحكومة في أحوال الناس ، فالانتخابات مثلا هي التي تدل بطريقة اجرائها على مدى حرية الأمة .وطريقة معاملة الموظفين للناس دليل آخر .

ومن الأمور التي يجب أن ندرسها في ارجاء الريف في أمم مختلفة أثر الحب الحقيقي في الشبان . فان الشاب اما أن يحب واما أن يفسق . ولست أتكلم عن المظاهر في السلوك بل عن الحقائق . وانى أعترف هنا أن فكرة دفع اميل الى الحب والعشق قبل سفره ليست من ابتكارى ، وانما استوحيتها من الحادثة التي أرويها هنا .

كنت في البندقيــة ذات يوم أزور رائد شــاب انجليزى . وكان الوقت شتاء . وقد جلسنا حول النار . ووصل البريد فأخذ الرائد يقرأ الخطابات . ثم قرأ لتلميذه اللورد جون الصغير خطابا منها بصوت مرتفع لم أفهم منه شيئا لأنه بالانجليزية . بيد أنى لاحظت أن التلميذ الشاب كان محتقن الوجه وهو يصغي للخطاب . ويمزق الدنتلا الدقيقة التي تزين كميه خلسة ويلقى بها الى النار . الى أن أتى عليها . وأدهشنى هذا التصرف الغريب . فانتظرت الى ختام تلاوة الخطاب وأظهرت الرائد على معصمى تلميذه العاريين . فانفجر ضاحكا ثم شرح لى الأمر .

— ان هذه الأكمام التي مزقها اللورد جون هدية من سيدة مقيمة في هذا البلد . واللورد مخطوب في انجلترا لآنسة يحبها كثيرا . وهي أهل لأكثر من هـذا الحب . والخطـاب من والدة الخطيبة تقـول له

فيه أن ابنتها تنسج بيديها ليل نهار أكماما من الدنتلا الرفيعة لخطيبها . وزارتها بالأمس صديقة لها . وأصرت على مساعدتها فى هذا النسيج الدقيق . وفجر اليوم لاحظت الأم أن ابنتها مستيقظة . فدخلت عليها فوجدتها منهمكة فى فك جميع ما صنعته صديقتها من الغزل .لأنها لاتريد أن يكون فى هديتها لخطيبها غرزة واحدة صنعتها يد غير يدها . فأحس اللورد جون بالتبكيت لأنه قبل هدية سيدة أخـرى . ومزق الأكمام وأحرقها .

ولم تغرب عن ذهنى هذه الحادثة التى استثارت ذهنى وعواطفى .

* * *

والآن حان أن نعود باميل الى صوفى وقد نمت مداركه واتسع أفقه ونضجت عواطفه . وكنت حريصا على ارتباطه فى أسفاره بذوى الفضل فى البلاد المختلفة ، كى تستمر المراسلات بينـه وبينهم . وتقيـه من الانحصار الضيق فى العصبية القومية . فان المراسـلات مع الأجانب الفضلاء وقاية طيبة من هذا الداء .

وقد استغرقت هذه الأسفار سنتين تقريبا فى جميع الدول الكبرى بأوربا وبعض دولها الصغرى ، وقد تعلم فى خلالها لغتين أو ثلاثلغات أساسية . ودرس على الطبيعة كل ما وقع عليه نظره من حيث التاريخ والأخلاق والتاريخ الطبيعى والفنى .

وأخيرا قلت له :

— والآن يا صديقى . لعلك تذكر الهدف الأساسى من رحلاتناهذه. وها أنت قد شاهدت ولاحظت . فما هى نتيجة ملاحظاتك ؟ وأينستختار اقامتك ؟ .

وما لم أكن مخطئا فى تربيتى له ومنهجى ، فسيكون جوابه :

— أين تريدنى أن أقيم ؟ انى لا أريد أن أضيف غلا جديدا الى

ما كبلتني به الطبيعة والقوانين . فكلما نظرت فى أعمال الناس ونظمهم ، وجدتهم يزدادون عبودية ورقا كلما أمعنوا فى الحرص على استقلالهم. ويبدو لى أنه كى يصبح الانسان حرا يكفى الا يضمر الرغبة فى التخلى عن حريته . وقد علمتنى يا أستاذى العزيز أن أكون حرا حين علمتنى كيف أستسلم للضرورة من غير مقاومة أو ضغـــط . وما دمت غير راغب فى مقاومتها فلن أصنع شيئا لمدافعتها . وقد بحثت فى أســفارنا عن موضع من الأرض أستطيع أن أقول انه ملكى . ولكن ما من موضع بين الناس الا وتحيط به شهواتهم وأهواؤهم . لقد وجدت بعـد طول بحث أن رغبتى متناقضة .لأننى بفرض تفريطى فى كل ارتبــاط ، سأكون على الأقل مرتبطا بأرضى . وستكون حياتى مشــدودة الى تلك الأرض . والسلطة والحرية تتعارضان . فلا أريد أن يكون للأرض على سلطان . لأنى لا أستطيع أن أكون سيد كوخ الا بأن أنزل عن سيادتى على نفسى. وانى أذكر أن ممتلكاتى كانت من أسباب أبحاثنا . وقد صورت لى وبحق انى لا أستطيع أن أحتفظ بثروتى وحريتى فى آن واحد . ولكنك حينما أردت أن أكون فى آن واحد حرا وبغير احتياجات ، كنت تريد أمرين متعارضين . فانى ان نجوت من حاجتى الى الرجال دخلت فى خضوعى للطبيعة . وماذا أصنع بالثروة التى تركها لى أبواى ؟ انى سأبدأ بأن أقضى على تأثيرها فى نفسى . بحيث تكون تلك الثروة هينة عندى .فان بقيت لى لم أفرح بها . وان نزعت منى لم آس عليها . ولن أكلفه نفسى لفتة للابقاء عليها . وبهذا ســأكون حرا سواء كنت غنيا أو فقيرا . ولن تكون حريتى مرتبطة باقليم معين ، بل سأكون حرا أينما حللت على وجه الأرض . فان جميع قيود التعصب والانحياز محطمة عندى . ولا أعرف الا قيود الضرورة الطبيعية . وهذه تعلمت كيف أحملها منذ مولدى . وسأحملها حتى الممات ، لأنى رجل . ولماذا لا أعرف كيف أحملها حرا ،

ما دامت العبودية تحملنيها كذلك ، بالاضافة الى قيود العبودية ؟ وماذا يعنيني أين آكون . وفى كل مكان يعمره البشر سأكون بين اخوانى ؟ أما اذا حالت ثروتى دون حـريتى فانى أتخلى عنها . وأعيش من كد يدى . وان قطعت يدى سأعيش ما أطعمنى الناس . وأموت أن تخلوا عنى . وسوف يزعجنى الموت لأن الموت مكتوب على الانسان سواء كان فقيرا أو غنيا . هذا هو ما عولت عليه . مدركا أن التحرر من الشهوات هو الحرية . وليست الحرية بنت مكان ما . فهيا يا والدى اعطنى شريكة حياتى . وسأكون حرا . فان قيدها هو القيـد الوحيد الذى أرحب به وأفخر بحمله .

— انى فخور يابنى بأن أسمع منك كلاما جديرا بالرجال . وكنت موقنا قبل اسفارك أنك ستصل الى هذه المرحلة . وستدرك ما وراء المظاهر فى المجتمعات والنظم . وان الحرية ليست رهنا بشكل معين للحكومة . وانما هى فى قلب الانسان الحر ، يحملها معه اينما كان . اما الرجل المنحط فيحمل رقه وعبوديته أينما حل . ولكنى أحب أن أقول لك ان لمسقط رأسك عليك حقا فمنه أخذت مقومات الحياة . وان لوالديك عليك حقا . فأنت مرتبـط باقليم وبأهل . ويجب أن تكون خدماتك لبنى وطنك وذويك قبل غيرهم من المواطن والناس . وكل ما أطالبك به أن تتجنب حياة المدن الكبرى والبلاط لأنها تفسد الأخلاق وتفضى للانحلال بما فيها من بعد عن حال الطبيعة واعتماد على التكلف الذى هو نقيض الفطرة .

وانى أتخيل اميل وصوفى وقد أقاما فى ذلك الركن البعيد من الريف حيث أسرة صوفى . فان فى أبويها قدوة لمن يريدون حياة فاضلة تقوم على اسداء الخير للناس وحب الأرض والتمسك بالفضيلة والبعـد عن الترف وكل ما فيه عبودية للمظـاهر الخادعة . فهنـاك ستحيا الأرض بجودهما . وتحيا القلوب ببرهما . وتزدهر الحياة فيهما ، وفيما حولهما.

زواج إميل وصوفي

والآن لا أريد أن أشغل الناس بالاسهاب فى لقاء صوفى واميل .فقد تكون فى ذلك لذة ومتعة .ولكن ليس فيه فائدة جدية . وحسبى أن أقول ان حبهما قائم على التقدير الذى يدوم ما دامت الحياة ، وعلى الفضائل التى لا تتلاشى حين يتلاشى الجمال وتذهب السن والألفة بسحر الطرافة والفتنة .

أخير رأيت أجمل أيام اميل ،فكان أسعد أيامى . فيه توجت جهودى بالفلاح وبدأت أذوق ثمرة كدى الطويل فى تربيته .انه يوم اقتران الزوجين بعقدة لا تنفصم ، عقدها القلب قبل أن يعقدها اللسان ! .

وقل بين الناس من يعرفون كيف يتحدثون الى عروسين فى يوم الزفاف . فان اليوم رهيب لا يستحب فيه المزاح الماجن كما يفعل الكثيرون . وهو حبيب الى النفس لا يستحب فيه العبوس الذى يشيع الكآبة فى النفوس . وانى سأقول لهما على انفراد شيئا كهذا :

— لو استطاع الناس أن يستبقوا فى ظل الزواج حب «الخطوبة» لأقاموا لهم فردوسا أرضيا ، ولم أر أحدا أفلح من قبل فى هذا . ولكنى موقن أنه ان كتب لبشر شىء من ذلك التوفيق ، فأنتما أحرى الناس به . فهل تريدان أن أدلكما على وسيلة ناجعة تضمنان بها ذلك التوفيق ؟ انها سهلة يسيرة . تناسيا عقد الزواج لتظلا عاشقين .وهى خطة قد تبدو سهلة للرجل فى جدة العرس وطرافته . ولكنها تزداد صعوبة كلما ذهبت طرافة الرباط الزوجى والامتلاك . وانى أحذركما من الضغط والاكراه

على الحب والملازمة . فان الحب عاطفة يقتلها الاكراه . والمتعة شيء لا ينال بالأمر ولا يخضع للقهر فأحذرك أيها الشاب من أن تجعل أقدس المداعبات وأجملها ضربا من الواجب تخضع له المرأة عن غير رغبة قياما بتعهداتها الزوجية . ان الرغبة المتبادلة هي أساس الحق الزوجي . والطبيعة لاتعرف أساسا للوفاء الزوجي الا الرغبة المتبادلة بين الزوجين . يجب أن يكون الزواج بالقلب لا بالجسد . وأن يكون تنفيذه بالرغبة لا بالقانون .فضع نصب عينيك يا اميل أن تكون عشيق زوجتك ولتضع هي نصب عينيها أن تكون عشيقتك . ولكن يجب أن تكون عاشقا يحترم عشيقته . فهي ترتفع في مجال الفضيلة وهي تبذل لك نفسها ، ولا تنحط بمقدار ذلك البذل . ولست أطالبها أن تبدى لك رغبتها صراحة في وصالك ، فاني أعلم ما هي كرامة الأنثى وما هو خفرها . ولكن يكفي أن تفطن يا أميل الي رغبتها الكامنة ورضاها المستور ، وتذكر أنه حتى في الزواج لاتكون لذة الجسد شرعية الا حينما تكون متبادلة بين الزوجين وهيهات أن يكون الزواج مبررا للاغتصاب . فليس الا اغتصابا أن ينال الرجل لذته من زوجته وهي عنه راغبة . ولا تظنا أن هذا المبدأ سيباعد بينكما . بل سيجعل كلا منكما يتحرى رضى صاحبه ليحظى باعجابه ويصل الى اشباعه . وهكذا يقرب الحب بينكما دائما .

* * *

وفي المساء . وقد تأهبت لفراقهما سأقول لهما :

— تذكرا كلاكما أنكما كائنان حران . وأن المسألة بينكما ليست مسألة واجبات زوجية . ومجاملات زائفة .

وأختفي عن ناظريهما ردحا . وعند عودتي بعد بضعة أشهر ، يهمس اميل في أذني وهو يقبلني :

— هنيء تلميذك يا أستاذى . فانى سأغدو أبا عما قريب . وحاشا لله أن ألقى اليك أعباء تربية الابن بعد عناء تربية الوالد ! حاشا لله أن ينهض بهذا الواجب المقدس أحد سـواى . ولكنك ستبقى أسـتاذا لأستاذية : أبيه وأمه . وأرشدنا ووجهنا .أما نحن فيجب أن تقوم بالعبء بأنفسنا . وانى أشعر أنى الآن أحوج من أى وقت مضى الى ارشادك . وقد بدأت واجباتى كرجل كامل .لقد أديت واجبك نحوى والآن سدد خطاى كى أحذو حذوك . وأسترح فقد آن للمدلج أن يحمد السرى وأن يستريح .

محتويات الكتاب

صفحة

تقـــديم : للأستاذ أحمد زكى محمد ٥

التربية : عنـد جان جاك روسو ١٢

مقـدمة المؤلف ١٧

الكتاب الأول :

الطفولة الأولى وما تقتضيه من عناية ٢٣

الكتاب الثانى :

الطفل : تربيتـــه الأخلاقية ٧٥

الكتاب الثالث :

الغلام فى الثانيـــة عشرة الى الخامسة عشرة : التربية الذهنية ١٥١

الكتاب الرابع :

المراهقـة والتعليم الدينى ١٧٧

الكتاب الخامس :

صـــوفى أو المرأة ٢٣٣

الناشر: الشركة العربية للطباعة والنشر

Bibliotheca Alexandrina
0358830

يطلب م
الشركة العربية للطباعة
والمكتب التجاري ببيروت ، ومكت

الثمن ٥٠ قرشا